المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

سياسات الدول المتحاربة

الجزء الأول

كتاب لمؤلف مجهول

جمعه وأعده
ليو شيانغ

ترجمة
محسن فرجانى

1140



سياسات الدول المتحاربة

(الجزء الأول)

المركز القومى للترجمة
لمشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١١٤٠
- سياسات الدول المتحاربة
- ليو شيانغ
- محسن فرجانى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨ م

هذه ترجمة كتاب :

战国策全译

中国历代名著全译丛书

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

سياسات الدول المتحاربة

(الجزء الأول)

كتاب لمؤلف مجهول

جمعه وأعده : ليـــو شـيـــانغ

ترجـــمـــة : مـــحـــسن فـــرجـــانى

٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

شيانغ ، ليو
سياسات الدول المتحاربة/جمعه وأعده ليو شيانغ
ترجمة : محسن فرجاني/ القاهرة : المركز القومي للترجمة ٢٠٠٨
٢٩٨ ص، ٢٤ سم (الجزء الأول)
١- العالم - تاريخ ٢ - الأحداث الجارية
٣ - التاريخ
أ - شيانغ ، ليو (جامع، معد)
ب - فرجاني ، محسن (مترجم) ٩٠٩

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٨٥٨٢
الترقيم الدولي I.S.B.N. 977 - 437 - 732 - X
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

المقدمة

كان الزمان أواخر عصر دولة خان الغربية (٢٠٦ق.م – ٢٣م) . وكان المكان بقعة مظلمة فى أحد مخازن القصر الملكى الحاكم، حيث تراكمت ملفات قديمة باقية من زمن "الدول المتحاربة " (٤٧٥ – ٢٢١ق.م) . ولم يكن أحد يدرى أن مثل ذلك الكنز يقبع هناك فى ذاك الموضع البعيد، منسيًا مهملاً ، وبرغم قيمة تلك الأوراق التى سُلِّطت فوقها الأضواء فجأة ؛ فقد اتضح أن النصوص مبعثرة وحروف الكلمات متاكلة والصفحات مهترئة ؛ كل النسخ تقريبًا كانت مصفرة تعانى الأعراض نفسها التى تصيب الأوراق الراكدة فى زوايا النسيان على مدى حقب طويلة، وعلى الفور أصدر القصر قرارًا بفحص ومراجعة تلك الملفات، مع الحرص على ضبط وتصحيح المتون، وأوكلت هذه المهمة إلى أشهر وأقدر باحث فى التاريخ القديم، وأبرز محقق لكتب التراث، الأديب الشاب " ليو شيانغ" . كانت النسخ الموضوعة أمام ذلك المحقق تشتمل على عناوين مختلفة منها مثلا :" الملفات الرسمية "، و"الشئون الملكية"، و"المزايا والمساوئ "، و"حديث الشئون العامة "، و"الكتاب الكبير"؛ بالإضافة إلى عناوين أخرى متفرقة للمجموعة نفسها من الأوراق، وقد استطاع "ليو شيانغ " بصبر ودأب أن يرتبها ويجمعها بين دفتى كتاب واحد ، تناول فى فصوله أحداثًا ووقائع تنتسب إلى اثنتى عشرة دولة وإقليم من عصر "الدول المتحاربة"، ولما كانت معظم المدونات عبارة عن مناظرات وخطط لمفكرين ورجال دولة ومخططين سياسيين ذاعت شهرتهم فى ذلك الزمان البعيد، فقد وجد "ليو شيانغ" أن أنسب عنوان يمكن اختياره للكتاب هو "سياسات الدول المتحاربة"، فتناول ريشته وخط هذه الكلمات الثلاث برموز عريضة واضحة فوق صفحة الغلاف، وقسم محتوى الكتاب إلى ثلاثة

وثلاثين جزءاً ترصد أحداث مائتين وخمس وأربعين سنة من تاريخ الصين، كانت بداياتها قد شهدت بزوغ نجم دولتى "تشين"، و"هان "، وجاء ترتيب تلك الأجزاء تابعًا لسجلات الرئيسية التى حملت أسماء الدول الصينية الكبرى (الدول المتحاربة) كما يلى :

١ - سجل دولة "جو الغربية"، جزء واحد فى سبعة عشر فصلاً .

٢ - سجل دولة "جو الشرقية"، جزء واحد فى اثنين وعشرين فصلاً .

٣ - سجل دولة "تشين"، خمسة أجزاء فى أربعة وستين فصلاً.

٤ - سجل دولة "تشى"، ستة أجزاء فى سبعة وخمسين فصلاً .

٥ - سجل دولة "تشو"، أربعة أجزاء فى اثنين وخمسين فصلاً .

٦ - سجل دولة "جاو"، أربعة أجزاء فى ستة وستين فصلاً .

٧ - سجل دولة "وى"، أربعة أجزاء فى واحد وثمانين فصلاً .

٨ - سجل دولة "هان"، ثلاثة أجزاء فى تسعة وستين فصلاً .

٩ - سجل دولة "يان"، ثلاثة أجزاء فى أربعة وثلاثين فصلاً .

١٠- سجل دولة "سونغ ويه"، جزء واحد فى عشرة فصول .

١١ - سجل دولة "جونشان"، جزء واحد فى عشرة فصول .

وجملتها ثلاثة وثلاثون جزءاً تشتمل على أربعمائة وستة وثمانين فصلاً، ومع ذلك وبرغم دقة التصنيف ووضوح الترتيب وتمام وشمول أجزائه وفصوله لكل ما اتصل من قريب أو بعيد بوقائع الصراع بين الدول الصينية المتحاربة، فقد لاقت نسخة الكتاب المصير نفسه الذى آلت إليه معظم كتب التراث الصينى القديم - على نحو ماذكرت فى مقدمة كتاب" الطاو " (المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة) - من أن طريقة تدوين الكتب القديمة فى الصين، لم تكن تُعنى كثيراً بضبط المتون ودقة التصنيف؛ إذ كانت توضع لفائف الأوراق متجاورة ومتراصة دون فواصل

واضحة، مما أدى إلى خلط هائل بين المؤلفات المختلفة، فتجد عدة فصول مثلاً من كتاب" المحاورات " قد اندست وسط أحد نصوص كتاب " فن الحرب"، أو العكس، فلم يكن غريبًا إذن أن يتعرض نص " سياسات الدول " لشيء من التشويه، فتضيع فصوله وسط متاهة تقاليد حفظ المصادر والمدونات القديمة، بل قد أحيطت نسبة الكتاب إلى مؤلفه أو - بالأحرى - موثقه بظلال قاتمة من الشك. ففيما يتعلق بالنص الأصلي، لم يسلم الكتاب في أماكن متفرقة من نسخته القديمة من تصرف النساخ بالحذف والتعديل، إذ امتدت أقلام كثيرة تحذف هنا وتزيد هناك باعتبار أن الحذف واجب مذهبي وقومي من وجهة نظر كونفوشية رأت في نصوص الكتاب دعوة صريحة للتفوق الأناني، وإشادة بطرائق الحيل السياسية الماكرة، والدسائس الدبلوماسية الخبيثة، وهو ما يخالف صحيح مذهبها الذي كان وقت توثيق الكتاب وتجميعه رقيبًا صارمًا. وفي أواخر عصر أسرة خان الشرقية (٢٥ - ٢٢٠م) قام أحد المؤرخين بإضافة الشروح الكونفوشية إلى المتن وحواشيه، فلما كان عصر أسرة سونغ (القرن الخامس الميلادي) تصادف أن كان أحد أشهر أدباء ذلك الزمان اسمه" سن فان" يطالع أوراقًا قديمة، فاكتشف - بالصدفة - الأجزاء المفقودة من النسخة المتداولة لـ "سياسات الدول المتحاربة "، فراجع النص، وأثبت الأجزاء والفصول بعد أن ضم إليها المتفرق، لكن ولأسباب يطول ذكرها دون داعٍ، ولأننا لسنا بصدد المراجعة الدقيقة في تاريخ الوثائق والمدونات التاريخية الصينية ، أقول لعدة أسباب، فقد اختلفت النسخة التي أعدها "سن فان"عن سابقتها التي وثقها "ليو شيانغ"؛ فقد نقصت بعض الفصول هنا وزادت هناك، لكن الذي بقي في آخر المطاف أن أمست محفوظات التراث القديم تحتوي على نسختين مختلفتين لكتاب واحد، واعتبرت النسخة التي حققها "ليو شيانغ" هي الأقدم.

وقد تم اكتشاف إحدى النسخ الأثرية من الكتاب في أواخر عام ١٩٧٣م بمنطقة " تشانغشا" (الصين الشعبية) بإحدى المقابر الملكية التابعة لعصر أسرة خان الغربية (٢٠٦ق .م - ٢٣م) وهي نسخة مطبوعة على الحرير، قام علماء الآثار بفحصها، فظهر

أن ترتيب فصولها مماثل لترتيب النص الأصلى "الأقدم"، ولكن مجموع أجزائها لم يتجاوز سبعة وعشرين جزءًا فقط. ووجد أن أحد عشر فصلاً منها مطابقًا للنصوص الأصلية الواردة فى أشهر مدونة تاريخية قديمة ، وأعرق المصادر الكبرى لتاريخ الصين القديم على الإطلاق وهى المعروفة بعنوان "سجلات تاريخية" بينما فقدت تمامًا الأجزاء الستة عشر الباقية. وكانت هذه النسخة تحمل عنوانًا مختلفًا بعض الشيء "كتاب مناورات الدول المتحاربة"، وهنا ينبغى توضيح مسألة مهمة جدًا بخصوص عناوين الكتب التراثية الصينية، التى يلاحظ كثير من الباحثين المتخصصين وجمهور القراء عمومًا أنها لاتثبت على حال، فتتغير مع العصور وتتبدل حتى فى العصر التاريخى الواحد، من دون أى تبرير أو سبب مفهوم، وبيان ذلك يتضح فيما درجت عليه تقاليد توثيق الكتب القديمة التى تنسب إلى آحاد المؤلفين، من عدم الاعتداد بالتزام عنوان واحد ثابت، بل كثيرًا ما جرى تغيير العناوين مع اختلاف ظروف النسخ وملابسات التدوين، ودواعى المراجعات التاريخية للتراث، على ضوء المذاهب الفكرية والفلسفات السائدة؛ فمثلاً كتاب "حوارات كونفوشيوس" عمدة التراث الكونفوشى، لم يحمل هذا العنوان على نحو دائم إلا فى بداية عصر أسرة خان (٢٠٦ ق.م – ٢٣م)، وكذلك فإن أشهر نص تراثى فى التاريخ الصينى"سجلات تاريخية "لأعظم المؤرخين الصينيين قاطبة " صما تشيان" ؛ قل "هيرودوت "الصين، أو "أبو التاريخ الصينى القديم" من غير مبالغة ، كان يطلق عليه فى القرن الأول لميلاد السيد المسيح "سجلات تايشى كون " وأحيانًا "تايشى كون، ومن ثم كان مفهومًا أن يأتى تعديل المتن الأصلى تحت عنوان آخر مختلف. وعموما فما أن جاء زمن أسرة سونغ الشمالية (٩٦٠ – ١١٢٧م) حتى كانت النسخة القديمة الكاملة من الكتاب قد فقدت تمامًا، ولم يعد من الممكن الحصول على نسخة جديدة إلا بتجميع عدد من المخطوطات المتناثرة، حيث تشكل منها جميعًا النص التام لكتاب "سياسات الدول المتحاربة "، على النحو المتداول به الآن، علمًا بأن المتن قد تعرض لمراجعات متتالية وعمليات ضبط وتصحيح أهمها ما جرى له من تحقيق فى عصر أسرة "يوان" الملكية (١٣٢٥م) ، حيث تم الأخذ ببعض ما قام به الأديب الشاب "سن فان" من تصويب فى بعض المخطوطات المتناثرة الباقية

من العصر القديم. هذا فيما أحاط بتدوين النص الأصلى من اضطراب، أما فيما أثير من جدل حول نسبة الكتاب إلى مؤلفه "ليو شيانغ"، فقد أثيرت الشكوك وتضاربت الأقوال؛ ذلك أن النسخة الأصلية المثبتة ليست سوى محصلة متون متعددة تعزى إلى مصادر مختلفة، ثم إن أقلامًا أضافت وأخرى عدلت، وبين التغيير والحذف والإضافة، ضاعت ملامح القلم الأصلى الذى قام على التحقيق الأول. عمومًا فقد خرجت نتائج بحوث مستفيضة حول هذه النقطة، بالتقديرات التالية: أولاً: لابد أن يكون المؤلف الأول واحدًا ممن عاصروا فترة الدول المتحاربة (٤٧٥ - ٢٢١ ق.م) ، ثانيًا: ربما كان هذا الكاتب الأول مقيمًا بإحدى الدولتين "جو" أو "هان" ، ثالثًا: إن جزءًا من محتوى الكتاب قد قام على جمعه أحد الأقلام المجهولة إبان عصر أسرة خان الغربية (٢٠٦ق.م - ٢٣م) ومن هنا جاء استنتاج كثير من المتخصصين فى مبحث التراث الصينى القديم بأن قدرًا كبيرًا من المادة التى استفاد منه ليو شيانغ فى إعداد نص كتاب سياسات الدول المتحاربة ، لايعدو كونه مقاطع مطولة مما تم تسجيله على يد الكتاب والمحققين فى عصر أسرة خان الغربية، بل ذهبت بعض التقديرات - فى شطحاتها-لتزعم إن هذا الكتاب بالتحديد؛ ليس سوى سطو جرىء قام به "ليو شيانغ" على كتاب آخر بعنوان "جوانيون" يعنى "كنز المعانى" حرفيًا ، وهو لمؤلف مغمور اسمه "كواى تونغ"، وقيل إن هذا المؤلف واحد من المؤلفين المحتملين لكتاب "سياسات الدول"، لولا اعتراض معظم المتخصصين على هذا الزعم الذى لايستند إلى شواهد قوية، وبراهين قاطعة. ولعل الباعث على إثارة المزاعم حول نسبة الكتاب إلى "ليو شيانغ" يتمثل فيما هو مقطوع به من أنه - حسب اعترافه هو نفسه فى مقدمة كتابه - لم يزد عن أن جمع وثائق مدرسة المناورات السياسية وأقوال المخططين السياسيين ليضمها فى كتاب واحد، أما إضافته الوحيدة فلم تكن سوى اختياره لعنوان الكتاب، على هذا النحو" سياسات الدول المتحاربة " فقط لاغير!

وزعم بعض الباحثين أن مؤلف الكتاب الحقيقى هو ابن ليو شيانغ، الملقب بـ "ليو شين"، وأنه - أى الابن - صاحب الفضل الأول والأخير فى ترتيب وضبط

النص، واختيار العنوان أيضاً ، بالإضافة إلى مزاعم أخرى تجد صدى عند عدد من الباحثين المعاصرين فى وثائق التاريخ الصينى ، تردد أن المؤلف الأصلى للكتاب هو"كواى تونغ" – المشار إليه سابقًا، صاحب كتاب "كنز المعانى" – وكان هذا الرجل أحد أشهر رجال التخطيط السياسى فى عصر الدول المتحاربة، وقد شارك بنفسه فى جهود مدرسة المناورات السياسية؛ لترويج أفكارها . ومدرسة المناورات عبارة عن مذهب فكرى شائع فى ذلك الزمان، وذلك بإصدار التوصيات واقتراح السياسات والخطط للملوك ورجال الدول المختلفة، وقد عمل لفترة مستشاراً سياسيًا لعدد من قصور الحكم وكان قد وضع من قبل كتاب «كنز المعانى» – المشار إليه سابقًا– ليضمنه الأفكار السياسية الرائجة فى ذلك العصر، فيما لم يتجاوز واحداً وثمانين فصلاً ، ثم قيل – رداً على هذا الزعم وضبطًا لما جمحت به التقديرات: إن كواى تونغ هذا، كان قد بدأ فى كتابه "سياسات الدول " لكنه لم يكمله، فجاء ليو شيانغ من بعده، ليستكمل رصد الوقائع التى بدأت بتسجيل عصرالربيع والخريف (٧٧٠ – ٤٧٦ق.م) وينجز التدوين فيتمه عند أحداث توحيد الصين تحت راية دولة تشين (٢٢١ – ٢٠٦ق.م).

وربما كان من بين الأسباب التى دعت إلى رواج مختلف المزاعم التى نالت من دقة المتن وصحة إسناد الكتاب إلى مؤلفه أو موثقه أومحققه؛ أن طبيعة ذلك العصر–عصر الدول المتحاربة–كانت تحتمل، بل تشجع على تنوع المصادر بما يسمح للوقائع والأحداث التاريخية بأن تروى بأكثر من طريقة وعلى ضوء أكثر من وجهة نظر، وقد كان فى ذلك العصر أيضا، بما شهده من نشاط فكرى هائل، وجدل محموم للآراء، كل الأسباب التى تبرر نسبة وضع الكتاب إلى دستة من المؤلفين، فلم يكن زمن الدول المتحاربة بالذات زمنًا عادياً، بل كان الزمن الذى اشتدت فيه الصراعات بين الملوك وحكام الأقاليم، فى وقت لم تكن قد تأسست فيه – بعد– سلطة حاكمة مركزية تتمتع بدرجة من النفوذ والقوة مثلما تحقق – فيما بعد – على يد "تشين"، ولا كانت "الكونفوشية "، أو "الطاوية"، أو غيرها من المذاهب الفكرية والفلسفية القديمة قد تمتعت بالاعتراف الرسمى والرواج الشعبى؛ وبالتالى فقد تهيأت بيئة اجتماعية

وسياسية وفكرية متفتحة نشطة وحيوية استصفت من لهب النزاعات مشاعل وأنوارًا للفكر، واستقطرت نيران المعارك وحرابها معدنًا أصيلاً انصهر فى تركيبة آلتها الحضارية الجبارة . كان ذلك هو العصر الذى أقيمت فيه معجزة البناء العتيد "سور الصين العظيم" كأقوى وأقدم حاجز دفاعى أقامته يد الإنسان على مر التاريخ، وكان ذلك أيضًا هو العصر الذهبى لحضارة تفردت بخصائص ثقافية وحضارية، واستضاءت بهدى تجربتها الفريدة.

كان ذلك عصر الجدل الكبير، جدل الآراء والأفكار والتصورات والاتجاهات، مثلما كان عصر المساجلات بين قادة الدويلات والحكماء والأبطال والشعراء والفنانين، حيث تشكلت ملامح الشخصية الصينية فى جوانبها الفكرية والفنية، فظهرت الفلسفات والمذاهب الكبرى: "الكونفوشية"، و"الطاوية "، و" القانونية "، و"الموهية"، و"المذهب الأسمى"، و"الين يانغ"، و"المذهب المختلط"، و"المذهب الريفى"، وغير ذلك من المذاهب الفرعية؛ ومن بين هذه الاتجاهات ظهرت مدرسة ، أو بعبارة أخرى المذهب الفكرى المعروف كمصطلح تاريخى باسم "تسون هنغ"؛ أى "المناورات السياسية" ، وقد ظهر هذا المذهب فى أجواء المواجهات القتالية الدامية والمعارك التى عمت أرجاء الدويلات الصينية فى نهاية عصر الربيع والخريف، وظل الناس إبان تلك الفترة، يرتدون دروع الحرب، ويحملون الرماح وينضمون تحت رايات الفرق المحاربة؛ إما للعمل ضمن تشكيلات القوات بهدف القتال مع الأطراف المتصارعة، أو للانخراط فى صفوف المقاومة الأهلية ضد محاولات الاختراق أو الضم أو الاحتلال. وأصبحت الموضوعات العسكرية القتالية ومسائل العلاقات السياسية تلقى رواجًا بين الناس ووسط دوائر العمل الرسمى، مثلما شغلت أذهان رجال البلاط الحاكم فى كل دولة وبطبيعة الصراع الدائر على المستويين العسكرى والسياسى، فقد تشعبت الأفكار فى اتجاهين، ودائما أبدًا تتشعب أفكار الصين فى اتجاهين متقابلين أو متناقضين، وليس بالضرورة متضادين؛ فدائمًا ما كان الجدل بين أطراف متنازعة سمة كامنة فى حركة الفكر والحياة فى الصين، حتى قبل أن تأتى إليها المادية الجدلية والماركسية

بقواعد المنطق الجدلي، بزمان طويل، وتقريبًا منذ أن امتدت بتأملاتها الفلسفية إلى المقابلة بين الأرض والسماء ، ثم بين السماء والإنسان ، وبعد ذلك استطاعت بنظرية "الين يانغ" أن تؤصل رؤية المتناقضات وتعزو أسرار البقاء إلى التنازع الدائم بين طرفين يتجاذبان قطبي الصراع لتدور وتتجدد دورة الحياة.

الاتجاه الأول: رأى فى الموضوعات العسكرية مادة خصبة للدراسة والتأمل، فمن ثم بدأت مدرسة الفكر العسكرى تصب جهودها فى التأليف ووضع الكتب وعمل المناظرات حول أربعة أقسام محددة، هى: "المناورات"، و"الطبوغرافيا "، و"الين يانغ"، و"الفنون القتالية". وكان أهم قسم فيها جميعًا هو "المناورات" ، وأشهر رواد هذه المدرسة اثنان "سون تزى" صاحب كتاب " فن الحرب "، و" سون بين " تلميذه النجيب الذى أكمل رسالته الرائدة فى نظرية الحرب .

الاتجاه الثانى: اتخذ من الدسائس والمؤامرات والخطط السياسية موضوعًا للمناظرات الفكرية وتحقيق أغراض التفوق والمطامع التوسعية لدى الأقاليم والدول فى نزاعاتها المتبادلة خلال ذلك الزمان الذى يسمى بطبيعة وقائعه بـ "زمن الدول المتحاربة" ، وأهم قادة الرأى فى هذا الاتجاه الفكرى ثلاثة هم: "سو تشين" ، و"تشانغى"، و"كويكو تزى" فأولئك هم أرباب فنون التخطيط السياسى، ومن مجموع اجتهاداتهم تشكلت مدرسة الفكر السياسى القديمة، التى اشتهرت باسم مدرسة أومذهب "المناورات السياسية" ، وهى المدرسة الفكرية التى راجت مقولاتها بين قادة الدول وحكام الأقاليم فى صراعهم لتحقيق أطماعهم التوسعية، ولئن كان الجميع يعتمد على القوة العسكرية بصورة أساسية فى ميادين القتال ، فإنهم قد أعطوا أهمية كبرى لآراء رجال التخطيط السياسى، وشاعت فى ذلك العصر مقولة" إن النصر أو الهزيمة لايتحددان فى نهاية الأمر بالقوة العسكرية وحدها، بل بالاستخدام الجيد للوسائل السياسية"، شىء قريب ربما من مقولة "كلاوزفيتز" فى العصر الحديث من أن " السياسة هى السلاح بوسائل أخرى "، لكن بمداخل وتفاصيل مختلفة، ولم تكن مهمة رجال السياسة هنالك سهلة؛ لأن تكلفة ما أقدموا عليه كانت تساوى نسف

قواعد الأخلاق التى تم إرساء دعائمها فى زمن الربيع والخريف – الزمن السابق مباشرة على اندلاع الحرب بين الدول القديمة–وتأسيس مفاهيم جديدة قادرة على استيعاب فنون الدهاء وألوان الدسائس والمؤمرات مما أفسح المجال لطرق براغماتية فى إدارة الصراع أن تحتل موقعًا محترمًا وسط مذاهب فكرية لمعت بسبب ما أرست من قواعد للفضائل والأخلاق وأصول المعاملات، وكان طبيعيًا أن يحدث الصدام مع الكونفوشية أساسًا، لكن فى مرحلة متأخرة لأن المذهب الكونفوشى لم يكن قد تغلغل فى نسيج الحياة الفكرية الصينية، وبالمناسبة، فلا يمكن، فى هذا السياق، عقد مقارنة بين أفكار مدرسة الخطط السياسية والآراء "الميكيافيللية" من ناحية ؛ لأن رجال السياسة الصينيين كانوا حريصين على التواصل مع الإطار العام للمبادئ الإنسانية والأخلاقية فليست هناك غاية يمكن أن تبرر أى وسيلة بل قد قيل أحيانا إن مدرسة المناورات واءمت بين مبادئها ومقولات الفكر الطاوى، ومن ناحية أخرى، فقد كان "ميكافيللى" يملك رؤية لكنه يحلم بشخصية أو بطل تاريخى يجسد رؤاه وأفكاره، فى حين كان فلاسفة المناورات فى الصين يتجادلون حول أفكار متعارضة فى ظل صراع بين أبطال "جاهزين" لهم أدوار واضحة ، كل ما يهمهم البحث عن نظرية واضحة تساعد على بلوغ قمة السيادة والتفوق ، ولو إن فكرة البطل الرمزى (المخلص الأسطورى) كانت تراود أذهان الجميع.

لكن حتى الصدام مع المبادئ الأخلاقية لم يكن يقارن بما كان يؤمل تحقيقه من مصالح لعروش سعت سعيًا محمومًا لتكوين إمبراطورية عظمى، ولرجال سياسة ومنظرين وجدوا الفرصة سانحة لعرض وجهات نظرهم حول الصراع الدائر بين الدول والأقاليم، والترويج من ثم لأفكارهم ونظرياتهم التى تباينت فى محتواها، لكنها كانت تؤلف اتجاهًا فكريًا واحدًا يتزعمه قطبان اثنان بلغت شهرتهما درجة استحقا معها أن ينالا موقعًا فريدًا على ساحة الفكر جنبًا إلى جنب "لاوتسى" فيلسوف الطاوية، و"سون تزى " المذكور آنفًا، بل يتقاسمون مع "كونفوشيوس" و"منشيوس" أكاليل الشهرة والمجد، وهما : "تشانغى" و"سو تشين"، وقد اشتق اسم مدرسة

المناورات من مواقفهما السياسية ، ذلك أن المصطلح الصينى لذلك المذهب - كما سبق أن أوضحت - يطلق عليه "تسون هنغ " وهما كلمتان، أولاهما: بمعنى الخط الرأسى، والثانية: المحور الأفقى، فما علاقة ذلك بالصراع الدائر بين الدويلات ؟، ولكى نفهم المسألة بوضوح فلنعد إلى مشاهد الصراع التى شدت عصرًا بأسره إلى التناحر الذى دام قرابة مائتين وسبعين عامًا بين بضع وعشرين دولة لم تزد أكبرها قوة ومكانة عن سبع دول كبرى، هى : (تشين، وتشو، وتشى، ويان، وهان، وجاو، ووى)، انظر الخريطة الملحقة بالمقدمة ، وكانت أطماع دولة تشين التوسعية تذهب إلى أبعد مما يتخيل أحد، ولم تكن باقى الدول تسمح لها حتى بأن تزعم لنفسها مكانة الدولة المستقلة؛ لأنها - على حد زعمهم - كانت متاخمة حدوديًا لعدد من القبائل الهمجية، وتأوى داخل حدودها قدرًا هائلاً من الغرباء والبرابرة ، وبالكاد تستحق أن تكون دولة صينية . خالصة المفارقة أن كلمة "تشين " ستصبح الاسم المتداول للإشارة إلى الأمة الصينية كلها، بعد التحور اللفظى من تشين إلى "تشاينا " ثم "تشين " وحسب ظاهرة التبادل بين الأصوات المهموسة، ستتحول فى اللسان العربى إلى الـ"تسين" ثم الـ"صين" كما هو مفهوم، وقد نشأت أسباب تدعو إلى الوحدة بين ست دول تكتلت فى وجه أطماع تشين المتزايدة، وهو الموقف الذى سانده فريق من قادة مدرسة المناورات بريادة المفكر الشهير " سوتشين" وتشكلت على هذا الأساس مجموعة المحور الرأسى "تسون" باعتبار أن الوحدة المقترحة هنا كانت تتعلق بالدول الواقعة على خط رأسى - من الشمال إلى الجنوب. أما الفريق الثانى من المخططين السياسيين فكان ينصح الدول جميعًا بالتحالف مع تشين فى جبهة واحدة مترابطة، وهو الفريق الذى أطلق عليه مصطلح "هنغ" أى الخط الأفقى؛ لأن دعوته كانت موجهة أساسًا إلى الدول الواقعة على خط أفقى من الشرق إلى الغرب حيث دولة تشين تقبع وحدها هناك تحلم بجبهة عريضة "بحجم الدول والأقاليم التى تحت السماء" ، وكان يمثل هذا الفريق الخبير والمفكر الاستراتيجى الداهية "تشانغى" وبين هذين الرائدين تلخصت كل وجهات النظر التى خرجت عن مدرسة الفكر السياسى الصينى فى زمانها، وسميت بذلك الاصطلاح السابق ذكره.

أما المعلم الأول الفيلسوف الأكبر صاحب أول مدرسة سياسية فى الصين فهو المفكر "كويكوزى" - الذى يحمل اسمه أحد كتب التراث الصينى فى الفكر السياسى القديم، وهو عبارة عن مجموعة مبادئ نظرية فى أصول الفكر الاستراتيجى - وهو الأستاذ الذى تخرج على يديه رائدا التخطيط المشار إليهما سابقًا .

والحق يقال إن آراء رجال التخطيط فى ذلك العصر لم تكن حلولاً عبقرية أو مجموعة قواعد أو قوانين للفكر السياسى، وإنما كانت مجرد آراء عامة ووجهات نظر مرنة للتعامل مع وقائع محددة فى مسيرة الصراع بين الدول، وبالتالى فلم تكن قواعد عامة ذات تأصيل منهجى مثلما نجد فى كتاب "فن الحرب" عند "سونزى "، أو "قواعد التخطيط " عند " كويكوزى "، بل كانت هناك سياقات ونماذج مطولة من أحداث وسرد تفصيلى لوقائع أقرب بخصائصها لشواهد التاريخ منها لمبادئ النظريات أو مناهج الفكر؛ وهو الأمر الذى جعل من النص التاريخى أنسب محتوى يمكن أن يضم بين جنباته تفاصيل الوقائع والظروف على هذا النحو أو ذاك، ولنطالع بإيجاز صورة للسياق التاريخى الذى انبثقت منه أفكار مدرسة المناورات، ومن البداية الأولى.

ففى بداية عصر الدول المتحاربة، كانت دولة "وى" هى الأقوى، ولكن بمرور الأيام راحت دولة "تشين" تجرى إصلاحات داخلية، فتعاظمت قوتها مما أثار انتباه "وى" فسارعت إلى الاستيلاء على دويلات الشرق، وهاجمت دولة "جاو"، فاستنجد حاكمها بدولة "تشى" التى خفت فورًا لنجدتها ووجهت قواتها تجاه "وى" ، وكانت هذه قد ارتبكت أوضاعها الداخلية، فاضطرت لسحب قواتها من "جاو" بهدف إعادة ترتيب أحوالها، لكن القوات اشتبكت فى طريق عودتها بجيش "تشى" الذى قطع عليها الطريق وكبدها خسائر فادحة، وراحت "تشى" تطبق سياسة أسمتها "حصار "وى" لإنقاذ جاو"واستعادت "وى" قوتها وقامت فى ٣٤٢ق. م بغزو دولة "هان" التى استنجدت فورًا بدولة تشى، فلم تلبث هذه أن أعدت قواتها وقامت فى العام التالى باقتحام مدينة "داليان" - أهم مدن "وى" - مما اضطر قائد قوات "وى" إلى أن

يسحب جيشه من هان ويعود إلى البلاد فى الحال، لكن جيش "تشى" نجح فى حصار قوات "وى" مما تسبب فى إرباكها ووقوع الفوضى بين جنودها ومنيت بهزيمة ساحقة، ولم تكد تمر مدة حتى فوجئت "وى" المهزومة بقوات "تشين" تدق عليها الباب وتدمر البقية الباقية من قوتها وتستعيد منها أرضها المحتلة ، وظلت "تشين" منذ ذلك الوقت تمثل تهديداً خطيراً لأمن "وى" مما دعا هذه الأخيرة إلى نقل عاصمتها من آنى إلى داليان وإجراء مفاوضات سلمية مع دويلات الشرق بهدف إقامة علاقات ودية معها وكانت تلك الدويلات قد تلبسها الرعب مما رأت من تعاظم قوة تشين وتطلعاتها لضم أراضى دول الشرق، فتحالفت جميعها وتكتلت فى جبهة واحدة مناوئة لـ "تشين" . وأقامت دول الشرق جيشاً موحداً لمقاومة أطماع "تشين" ، وأطلقت على سياستها هذه اسم "التكتل الرأسى"؛ فلم تسكت تشين بل عملت بدورها على ضرب سياسة التحالف المناوئة لها، تمهيداً للزحف نحو الشرق، باستخدام التهديد العسكرى والتآمر السياسى لتفتيت التكتل الشرقى، وهو التخطيط الذى عرف تاريخياً باسم التحالف الأفقى ، وحسبما تذكر الوثائق فقد كان أهم رجل يعبر عن الاتجاه الأول هو رئيس الوزراء والمفكر السياسى "سوتشين" ، بينما كان ممثل الاتجاه الثانى (التحالف مع تشين) رجل الدولة، السياسى الداهية "تشانغى" ، ولاقت خطة سوتشين دعم وتأييد الملك "أون" – حاكم دولة يان – ثم لحقت به دولة "جاو" وجاءت فى إثرهما كل من : (هان، وتشى، وتشو) على التوالى لتشكل جميعها التحالف الرأسى أو (التحالف الشمالى الجنوبى – بصيغة جغرافية صحيحة)، وهو التكتل الذى وقف حجر عثرة فى طريق تقدم قوات "تشين" ومعرفة أحوال التكتل الشرقى، ثم دبت الفتن بين مجموعة ذلك التحالف وراحت كل دولة فيه تنظر نحو جاراتها بعين الريبة، وتراكمت التناقضات بينها، وراحت كل منها تعيد النظر فى مواقفها على حدة، وفجأة وسط تلك الأحداث؛ مات سوتشين رجل التحالف الشرقى القوى، وانهار التكتل دفعة واحدة، وجاء تشانغى – كبير وزراء تشين – يدعو لإقامة التحالف الأفقى أيضاً ، وبتعبير جغرافى طبيعى، التحالف الشرقى الغربى، وأساساً فقد كان هدف تشين عقد التحالف مع دولتى"وى" ، و"هان" ؛ وذهب تشانغى أولاً إلى "وى" لإقناعها بالخروج

عن التكتل الرأسى والانضمام إلى "تشين" فلما لم ينصت ملك "وى" إلى تلك الدعوة الواضحة ، قامت تشين بغزو "هان" وأنزلت بها تدميراً مهولاً، مما بسط رقعة الحذر والخوف فى أرجاء الدويلات؛ فـأذعنت وى لنصيحة "تشين" وانسحبت من التكتل الشرقى لتتحالف مع الدولة الصاعدة نحو القوة والنفوذ ، وعليه فقد قامت دول الشرق بتوحيد صفوفها، وأعلنت حاكم دولة تشو رائداً لتكتلها وهكذا خرجت قوات الحرب المشتركة والمؤلفة من جيش كل من (وى، وتشو، ويان، وهان، وجاو) ، وانطلقت لغزو تشين التى صمدت لها وفرقت حشودها ومزقتها بدداً، وترنح التكتل الشرقى، وراحت وى، وهان ترضخان لنفوذ تشين بعدما كانتا قد تمردتا عليها، وتشكل من ثلاثتها التحالف الأفقى (تشين، وى، هان) مقابل دولتى (تشو، وتشى)، اللتين صمدتا وحدهما فى التكتل المناوئ؛ شوكة فى جنب تشين وحليفتيها الجديدتين، ولم تتوان تشين عن أن ترسل رجلها القوى تشانغى إلى الملك " هواى" – حاكم تشو – تدعوه إلى التحلل من مواثيقه مع تشى، لينضم إلى التحالف الأفقى، وراحت ترغبه فى ذلك بشتى الوسائل حتى أنها عرضت عليه هدية سخية مقدارها مساحات شاسعة من الأراضى، وعندما ظهرت علامات تشير إلى موافقة الملك على مناقشة الدعوة، وراح يتكلم فى تفاصيل الفوز بالهدية، فوجئ بأنه يتعرض لخديعة مدبرة بعناية فائقة؛ ذلك أن الأراضى الهدية التى قيل إنها عرض سخى لامثيل له حيث تبلغ مساحتها ستمائة لى مربع (حوالى ستمائة ميل) فإذا بها لاتكاد تتجاوز ستة أمتار – راجع التفاصيل فى سجل دولة تشو "سياسات الدول" – وعلى الفور قامت دولة تشو على قدم لتثأر لكرامتها، وهاجمت تشين فى عقر دارها، لكن كان للحيلة ألف قناع، وللدهاء مائة ألف ذراع ماكرة؛ وكان أن امتدت إحداها بدعوة كريمة لجلالة الملك "شاو" الأعظم – حاكم تشو – ترجوه الحضور بنفسه للقاء عاجل مع أخيه "ملك تشين" الذى يتطلع إلى هذا اللقاء الودى ببالغ الشوق ، وما أن وطئت أقدام الملك أرض تشين حتى ألقى القبض عليه وأودع السجن حيث مات غريبًا ذليلاً، وتعقدت الأمور كثيراً على الجبهة المعارضة لتشين، لكنها بقيت على كل حال، صامدة وراء أسوارها. وما أن تغلبت تشين بالدهاء والحيلة على موقف تشو المتزمت تجاهها،

حتى راحت تتبع خطة سياسية أساسها مصادقة الدويلات البعيدة وضرب دول الجوار بهدف ضم الدول البعيدة بوسائل ودية، مقابل استخدام العنف والتهديد في وجه الدول المجاورة، بل الاعتداء عليها واحتلال أراضيها بالقوة، هكذا توجهت قوات تشين وضربت دولتي (وي ، وهان) واستولت على خمس مدن كبرى وأعلن ملك تشين نفسه إمبراطوراً على الأراضي الغربية في مواجهة الإمبراطورية الشرقية، التي تقع تحت سلطان الملك "مين" – حاكم تشي – ثم سقطت تلك الألقاب بعد فترة وجيزة عندما اكتشف كلا الطرفين أن التوسع المطلوب الذي يليق بمكانة ومساحة امبراطورية هائلة مازال أمامه شوط بعيد. وبات من المؤكد حينئذ أن كتلة التحالف الشرقي قد فنيت عن آخرها، وكانت التناقضات بين دولها قد تفاقمت حدتها ودب الشك بينهم، فاتجهت الأنظار نحو دولة سونغ ذات الموقع الأوسط بين الدول (تشي ، وجاو ، ووي) مما أكسب موقعها أهمية استراتيجية، فلما كان العام ٢٨٦ ق.م، قامت دولة تشي بغزو دولة سونغ واحتلتها ثم ضمتها بالكامل إلى أراضيها؛ وهو ما أثار القلق وسط الدول كافة، فقامت تشين على رأس مجموعة الدول الخمس (تشو، وهان، وجاو، ووي، ويان) بغزو تشي، حيث أنزلت بقواتها هزيمة منكرة، لولا حدوث بعض الاضطرابات الداخلية في تشين، لما توقف القتال على الجبهة ولا اضطرت الدول الست أن تسحب قواتها تباعًا.

فلما كانت دولة يان قد تعرضت لاحتلال غاشم من جانب تشي، ارتكبت فيه فظائع وحشية، فقد ردت على العدوان بمثله وقامت بغزو تشي والتوغل في عاصمتها "لينزي" مما اضطر حاكم الأخيرة إلى الهرب والوقوع من ثم في قبضة أحد ضباط دولة تشو، فأجهز عليه بسيفه وظلت دولة يان تعيث فساداً في أرض تشي مدة خمس سنوات، قامت أثناءها باحتلال أكثر من خمسين مدينة حتى لم يبقَ لتشي سوى مدينتين اثنتين فقط، صمدتا في وجه القوات المعتدية، فلما مات ملك يان وخلفه حاكم آخر قام بتغيير الوزراء وقيادات الجيش وأقام مكانهم من تهاونوا في شئون البلاد حتى دب الانحلال وانتشر السلب والنهب بين الأهالي وعمت الفوضى، فخرج أهالي تشي للمقاومة وقد سنحت لهم فرصة الانقضاض على قوات يان فأوسعوهم قتلاً

وتنكيلاً حتى تفكك الجيش وتبددت القوات واستعاد الأهالى بلدهم من براثن الاحتلال، وكانت الأوضاع الاقتصادية تشهد تطوراً طيبًا فى زمن الدول المتحاربة، لكن مطالب الأداء الاقتصادى الجيد لم تتوفر فى ظل أجواء القتال والفوضى السائدة فى كل مكان، وبدت آثار ذلك ونتائجه السيئة على حياة الناس ومستوى معيشتهم، وشاعت حالة استياء عامة ونفور من الحرب الدائرة بين الدول، وفى تلك المرحلة التاريخية، ومع تطور الظروف، وفى سياق الأحداث نضجت مطالب عامة تدعو إلى ضرورة الوحدة الشاملة بين الدول والأقاليم، وكانت مجموعة دول الكتلة الشرقية متأخرة نسبيًا عما حققته تشين من إصلاحات جذرية على المستوى الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والفنى والثقافى فى ظل حركة إصلاحية اشتهرت فى التاريخ باسم "حركة شانبيان " يعنى الإصلاح الشامل وهو ما هيأ لها المقدرة، خلال قرن كامل من الزمان على تأسيس نظام حكم مركزى ذى طابع (أوتوقراطى) استبدادى ساعد على رفع مستوى الإنتاج وتحقيق استقرار اجتماعى وتقوية قبضة السلطة المركزية الحاكمة فانطلقت طاقة التطور من عقالها وبالطبع فقد حدثت طفرة فى القوة العسكرية ظهرت فى أداء قتالى متميز وتقنية عالية أنتجت أسلحة متطورة ووضعتها فى أيدٍ مؤهلة وقادرة على استخدام السلاح، ولم تقف أغراض تشين التوسعية عند حدود جاراتها المتاخمة، بل امتدت لتبتلع كل مساحة أراضى دول التكتل الشرقى مجتمعة؛ ذلك أنها كانت قد شنت هجوماً كاسحًا فى ٢٧٨ق.م على دول الشرق الست، وأسقطت عاصمة دولة تشو، وفى العام التالى واصلت زحفها لتبسط سيطرتها على مدن وأقاليم ذات أهمية، ثم تقدمت وهاجمت دولة هان، وتغلبت على قوات جاو بعد أن ذبحت قائدها العسكرى أمام جنوده وكانت معركة " تشانبين" هى التى أرست قاعدة انطلاق تشين نحو تحقيق حلم الوحدة لكل أرض الصين فيما سمى بالمرحلة الأولى لمشروعها التوسعى، أما المرحلة الثانية، فقد تقدمت فيها جحافل تشين تحت قيادة جلالة الملك بنفسه، بعد أن أقال رئيس الوزراء عن منصبه وأقام نفسه مكانه ، وواصل تقدمه بالقوات ناحية الشرق، واكتسح فى طريقه دولة هان، وبعدها وى، ثم تشو، وفى

٢٢٢ق.م أسقط عرش دولتي يان، جاو ، وفي العام التالي عصف بدولة تشي فجعلها أثرًا بعد عين، وأعلن الملك " وانغ جن" توحيد الصين ، وأنها دولة مركزية كبرى، ونصب نفسه إمبراطوراً، وتلقب بـ "تشين شيهوانغ"؛ أي أول إمبراطور لـ "تشين".

وتتضح قيمة كتاب "سياسات الدول" في أنه المصدر التاريخي الوحيد، بالقطع، الذي حفظ للإنسانية أهم أحداث ووقائع الفترة الزمنية الممتدة من عام ٤٩٠ق. م، وحتى ٢٢١ق.م من تاريخ الصين القديم، وهي الفترة التي شهدت بداية وانتهاء ما سمي بعصر الدول المتحاربة، وقد عرض أساسًا للدور الذي قام به المخططون السياسيون في معالجة مختلف جوانب الصراع الدائر بين الدول والأقاليم في ذلك الوقت، يكاد الكتاب أيضًا أن يكون هو السجل الوحيد الذي رصد نشاط تلك المدرسة الفكرية ولو أن مساحة العرض فيه قد شملت كذلك تصوير بعض ملامح المجتمع الصيني، بما يعظم من قيمته كأحد أهم المدونات التاريخية التي سجلت شكل الحياة الاجتماعية والسياسية وعكست أهم الجوانب الفكرية في حياة المفكرين والمثقفين في ذلك الزمان البعيد من تاريخ الصين، وتبرز قيمته أكثر في صياغته الصياغات الشائعة وقتئذ، بل كانت المدونات السابقة مثل كتب "كوايو"، و"تسوجوان" ، و"سجلات تسو" مقيدة بالالتزام الصارم بمبادئ الكونفوشية، وهو ما يبرز خصائص "سياسات الدول .. " بوصفه كتابة متطورة سمحت بعرض وجهات نظر جريئة جدًا، أظهرت – في جانب منها – تحديًا للأصول الأخلاقية المقررة ومبادئها التي رأت فيما قدمته نصوص السياسات من سير ووقائع وأدوار قام بها المخططون السياسيون من أصحاب وأتباع مدرسة المناورات السياسية، في القرارات السياسية وبحثًا عن المنفعة الذاتية بأي ثمن وإطاحة بكل القيم والمبادئ الإنسانية وأصول المعاملات ، وربما كان السخط الكونفوشي على الكتاب، وهو السبب فيما ثار من تشكيك في قيمته الفكرية، ومع ذلك فلم يكن لكل اعتراضات النقاد الكونفوشيين أن ينال من المكانة التاريخية للكتاب سوى ما تردد من أنه لم يكن ينبغي له كسجل تاريخي موضوعي ومحترم، أن يبرز دور المخططين السياسيين والمناظرين الفكريين على نحو مبالغ فيه ، وهو ما نال من مصداقيته كمصدر تاريخي بالغ في إعلاء قيمة دور الفرد على حساب الوقائع التاريخية.

وهنا فلابد من توضيح عدة نقاط حول قيمة كتاب السياسات بوصفه مصدراً تاريخيًا، دون إغفال لما أثارته المآخذ والانتقادات الكثيرة حول طريقته فى التدوين؛ فالكتاب يجرى تصنيفه ضمن المصادر التاريخية القديمة باعتباره سجلاً لمادة تدوين تاريخى رصدت وقائع وأحداث عصر الدول المتحاربة، وهو بهذا المعنى امتداد لتقاليد راسخة سبقته بزمان، ويلحظ الدارسون أنه قد جاء متأثرًا بالصياغات الأسلوبية السابقة عليه فى المؤلفات الكبرى، مثل: "كتاب التاريخ"، و"سجلات الربيع والخريف"، و"تسواجوان" ، و"سجلات تشو"؛ ولما كان عصر الدول المتحاربة، بطبيعته، عصر حروب ونزاعات وأجواء مليئة بالقلق؛ إذ رأى الناس بلادهم تسقط تحت الغزو وأسوارًا كبرى تقام على رؤوس الجبال فانكفأت النفوس على دفائن وساوسها وأشباح ظنونها، وانفتحت خلال أسوار العزلة طاقات من الخيال المحتشد بفرسان امتشقت سيوفًا ورماحًا بلون الأساطير، وتنزلت من الرؤى والحكايا أسرار الحكمة تنطق بها ألسنة الفصحاء والمفكرين، ولم يكن رجال الخطط السياسية يحملون أسلحة قتال، بل آراءً وحججًا ذات منطق وبراهين، فكانوا أقرب لصورة الحكماء القدامى منهم لمظهر الموظفين ورجال البلاط الطامعين فى المجد والشهرة، بل كثيرًا ما دفعوا أرواحهم ثمنًا لآرائهم، لدرجة أن واحدًا مثل "هان فيتس"، وهو المفكر القدير والسياسى العظيم، قتل غدرًا بسبب وشاية لاأساس لها من الصحة.

وبالتأكيد، فقد كانت ظروف العصر تملى على المؤرخ طرقًا مغايرة فى التدوين، وقد كان ليو شيانغ فى الأصل أديبًا مشدودًا للمجال الذى يتعاظم فيه دور الشخصية وأثرها فى الحياة بأكثر مما يمكن أن يحمله المكان أو الزمان أو حتى الحدث من دلالات، وقد لمس بنفسه من خلال الوثائق ذلك الدور العظيم الذى قام به رجال الخطط السياسية فى زمن الصراع وتأثيرهم فى مجريات الأحداث، وظهر أمامه الرمز أوسع أفقًا ومجالاً للتأثير، وربما كانت مشكلته أن الحدود فى تصوره تقاطعت بين الممكن للبطل فى الأسطورة ، والمتاح للسياسى فى التاريخ، ومن ثم تداخلت فى طريقة سرده للأحداث تفاصيل الوقائع وملابساتها مع أطياف من المرويات الشعبية والأساطير،

وهو الأمر الذى أكسب الصياغة لونًا إنسانيًا، أسهم فى إضافة مذاق أدبى للنص - شكل عام - ولئن اختلف النقاد حول تقدير القيمة التاريخية للكتاب، فإنهم لم يتفقوا حول شىء اتفاقهم على القيمة الأدبية لأجزائه وفصوله، وللإنصاف فالخصائص الأدبية والتاريخية للكتاب تكمل بعضها بعضًا، باعتبار أن طريقة التدوين جاءت بالفعل طفرة هائلة نقلت أسلوب الكتابة التاريخية من تقاليد "التدوين الزمنى " بالأيام والسنين مما كان شائعًا فيما سبقته من نصوص إلى الكتابة وفق نظام " السير والتراجم الشخصية " الذى ازدهر فيما تلاه من مؤلفات، حتى قيل إن أبا التاريخ الصينى " صما تشيان"، تأثر بأسلوبه فنقل عنه أجزاءً مطولة وهو يضع مدونته الشهيرة " سجلات تاريخية ".

وفى الجانب الأدبى، فهو أرقى صياغة بلغتها الكتابة الصينية فى الزمان القديم والحديث، والمعاصر أيضًا بما خط من سمات أثرت فى النصوص الإبداعية المختلفة وخصوصًا الرواية الأدبية من القرن السابع إلى الثالث عشر الميلادى. ويعزى إلى هذا الكتاب أيضًا، إحداث نقلة فى طرق الكتابة والتعبيرات والأساليب الإنشائية للغة الصينية فى تلك الفترة، على نحو ما نجد من تأثيرٍ لكتاب " الألفاظ " للهمذانى أو "فقه اللغة " للثعالبى، فى تراثنا العربى. وبكل تأكيد، فكتاب "سياسات الدول .." قطعة من النثر الأدبى التاريخى الجميل، لا يدانيه كتاب آخر بلغ مبلغه فى جاذبية الوصف وروعة السرد.

هذا، ولايمكن أن يؤخذ على سجل تاريخى قديم أنه يحتفى بالدلالات الأسطورية، ولايمكن لثقافة شعب؛ أيًا كان، أن ترسخ قيمة وجودها فى جذور التاريخ بغير رموز أسطورية.

ومثلاً ، فلم يكن ممكنًا للرايخ الثالث فى ألمانيا، أن يؤسس مشروعية البحث عن مجال حيوى لوجوده فى غياب الزعم بالتفوق العرقى مستندًا إلى الميثولوجيا الجرمانية. وليغفر لى القارئ استدعاء مثل مشوب بفظائع ومحارق ضد الإنسانية ، ثم إن أمة كبيرة بحجم الولايات المتحدة الأمريكية نشأت تحت أضواء العصر الحديث

وتشكلت فى إطار وقائع ملموسة، وجدت من أدخل الأساطير الجرمانية والأنغلوساكسونية فى مسرد تاريخها الشعبى.

وعلى أية حال، فالأسطورة، وبمعيار البحث العلمى، تحمل دلالة تفسير لخبايا الضمير الإنسانى والأنماط الإنسانية لمختلف المجتمعات الحضارية والثقافية.

ومن زاوية شخصية، فقد كان ذلك العنصر الأدبى الذى أضاف للخصائص التاريخية والفكرية للكتاب مذاقًا جماليًا فريدًا، من بين أكثر الجوانب إمتاعًا فى ترجمة الكتاب.

وهذه بالمناسبة، أول ترجمة للكتاب من الصينية مباشرة إلى اللغة العربية - إن لم أكن مخطئًا - ولا أعرف ما إذا كانت هناك ترجمات له فى الإنجليزية أو اللغات الأوروبية الأكثر تداولاً، وكنت فيما سبق من ترجمات لكتب التراث الصينى، أطالع ماهو متاح من ترجمة فى الإنجليزية، متأثرًا بطريقة البحث الأكاديمى فى توصياتها بمراجعة المصادر السابقة المنشورة، ذات الصلة، بموضوع الدراسة ولا أريد أن أخوض فيما نصحنى به بعض المترجمين من أعضاء هيئة التدريس من ذكر تفاصيل متعلقة بالترجمة، قد لا تهم القارئ فى قليل أو كثير؛ فما فائدة أن أغرق القارئ فى تفاصيل نظريات الترجمة وقضية" المكافئ الترجمى " وآراء شليرماخر وبارخوتاروف ورومان ياكوبسون، وبالإضافة إليهم نذكر يانفو (من الصين)، وهل رأيت مناهج الترجمة الأدبية هى الأنسب، أم تصرفت بمزاج المبدع الفنان ، أم وجدت ذلك مستحيلاً لاستحالة الترجمة أصلاً على ماكانت تقول به بعض مدارس الترجمة الألمانية ؟!

فإذا تجاوزنا عن السؤال بكيف تمت الترجمة ؟ فلنحاول الإجابة عن السؤال بلماذا ترجمت هذا الكتاب بالذات؟، والإجابة ببساطة؛ لأنه يقدم جانبًا جديدًا ومختلفًا عما نطالعه فى المؤلفات الصينية القديمة ؛ لأنه يسد فجوة معرفية فى مبحث المصادر

التاريخية المتعلقة بتلك الفترة من تاريخ آسيا وتاريخ الصين، وتاريخ الإنسانية، ولئن كانت الترجمات الأوروبية للتراث الصينى تحدد للقارئ تفضيلات أو أولويات معينة فى اختيارالكتب والموضوعات المترجمة، فهى من الناحية الأخرى، كانت متأثرة بتقاليد المدارس الصينية واتجاهات تفضيلاتها، ولما كانت هذه قد ورثت تقاليد عريقة فى الفكر موسومة بطابع كونفوشى، فقد استحسنت ما رأته الكونفوشية حسنًا وخسفت بالأرض بما لم تره كذلك، ولم يكن كتاب "سياسات الدول..." مما يروق أولئك السلفيين المتزمتين. لكنه يروق لى تمامًا أن أضيف إلى المكتبة العربية هذا المصدر التاريخى الفريد والنص الأدبى العريق، والوثيقة الوحيدة التى تضم أفكار مذهب المناورات السياسية كما تبدت عبر وقائع عصر الدول المتحاربة، وأتمنى أن يكون الكتاب ذا قيمة لجمهور القراء وللدارس المتخصص فى مادة المصادر التاريخية وللأنثروبولوجى والباحث فى الفكر السياسى الصينى القديم وكذلك لمؤرخى الأدب.

وقد حرصت فى الترجمة أن أنقل عن نسخة صينية محققة ومزودة بشروح وافية وقد وضعت بين قوسين مربعين ما يساعد على توضيح المتن من شروح وتعليقات جمعتها بتصرف من كلمات المحققين والمعلقين والدارسين فى غير نسخة من الكتاب علمًا بأن هناك أكثر من نسخة مجانية منشورة باللغة الصينية ، على شبكة الإنترنت العالمية، وقد وضعت قوسين هلاليين للشروح المصاحبة للنص فى النسخة المترجم عنها، ولم أشأ أن أحيل القارئ إلى هوامش بعيدة عن المتن حفاظًا على تواصل السرد وتوفيرًا لوقت وجهد القارئ ودفعًا لأسباب الملل والسأم قدر الإمكان. على أن معظم الشروح تركزت على مقابلة مواقع المدن والعواصم والأقاليم القديمة بما يناظرها على الخريطة الطبيعية والسياسية الحالية للصين، مما يثقل على القارئ ولايفيد كثيرًا فى توضيح مضمون الكتاب، ثم رأيت من الأوفق أن ألحق به خريطة توضح موضع أهم الدول والعواصم والأقاليم فى عصر الدول المتحاربة، بالإضافة إلى مسرد زمنى للعصور التاريخية الصينية، بحيث يتيسر للقارئ التعرف على ملامح المكان والزمان منذ البداية الأولى علمًا بأن طبيعة تدوين الكتاب تسمح بقراءته دون ترتيب، حيث

عنوان كل فصل هو الجملة الأولى منه، كأنه قصة أو حكاية منفصلة بذاتهاعن سابقتها أو لاحقتها من مدونات الفصول.

وبالطبع – وكما تدرك سيدى القارئ–فالنصوص القديمة تقرأ فى سياق زمنها وعلى ضوء الظروف التى أتاحت للعقل تصورات إنتاجها. وبهذه المناسبة أرجو ألا يفسر اهتمامى بترجمة التراث بأنى منحاز أو مؤيد أوحتى متحمس على أى نحو؛ لإضفاء قداسة أومبررات للخشوع والخضوع لكتابات تداولها القدماء؛ كل القدماء، أو للتسليم بصحة وجلال ماسطرته الأقلام فى الصحف القديمة؛ أى صحف قديمة، وبالعكس، فلم أكن لأتصور أبداً أى قيمة للتراث فى ذاته.

وقيمة التراث الصيني تتضح فيما يمكن أن نطالع به، ومن خلاله جانبًا من مسيرة العقل الإنسانى فى تطوره، لعلنا نستطيع أن نسلط أنوار الفهم على فجوات من ظلام دامس تعترض طرق الوعي بالحضارة الصينية، والثقافة الشرق آسيوية عمومًا؛ ذلك أن أمة عاشت طوال هذه القرون خلف أسوار العزلة اكتسبت مقدرة على التخفى خلف أقنعة رمزية مسرفة فى الغموض، وثقتى بأن شيئًا قريبًا من مفاهيم التحليل النفسى تقوم به الترجمة، أو على الأقل تملك الوعى به، وهى تقوم على ترجمة النصوص القديمة، حيث يمكن الوقوف على طبيعة أنماط أساسية فى الشخصية الثقافية الصينية وملاحظة مسارات تطورها وجوانب تفوقها وإخفاقاتها الغائرة فى أعماق التاريخ. وربما استطاعت عملية الترجمة أن تسلط الضوء على تلك الرموز المختزنة وراء النصوص أملاً فى تحرير كل طاقات الوعى بالآخر – كما يقولون ! – ومن ثم تتسع دائرة الوعى وتتقدم مسيرة العقل الإنسانى. ولا أتصور، من ناحيتى، لأى تراث قديم قيمة سوى ما يمكن أن يحققه بهذا المعنى. وأعتذر إن كنت قد أقحمت آرائى، لكن التوضيح ضرورى، فى زمن استدعاء المواريث وتقديس الماضى والأسلاف والارتماء فى أحضان الأضرحة وهياكل القبور.

أتمنى أن تكون هذه الترجمة إضافة ذات قيمة للمكتبة العربية، ولقد كانت الحضارة العربية دائمًا تحرص على مد جسورها إلى الصين وقد جاء حين من الدهر

كان فيه البحارة اليمنيون وتجار العراق ووفود قصور الخلافة فى بغداد ورحالة المغرب هم أقدر من يعرف طرق الوصول وخبايا الترحال إلى الصين.

وبعد ، فإنى أهدى هذه الترجمة إلى رائد الفكر الاستراتيجى العربى، الكاتب والمفكرالأستاذ محمد حسنين هيكل؛ ويشرفنى كل الشرف، أن أقدم إليه ترجمة "سياسات الدول.. ". وقد كنت طوال الفترة التى قضيتها فى نقل الكتاب إلى العربية أستشعر حضوره مهيباً جليلاً ، وتقدير الألفاظ هنا ليس من باب المبالغة أو المجاز، بل - بالفعل - كان حضور الأستاذ هيكل يفرض نفسه منذ أول صفحة فى هذه الترجمة بل قبل ذلك بكثير، منذ أن التقيت فى الصين بمترجمين قدامى ومثقفين لم يذكروا من عالم السياسة العربية سوى أسماء قليلة، كان اسم الأستاذ هيكل يلمع من بينها على وجه خاص؛ فقد كان الرجل الذى التقى بنجوم السياسة الصينية وقادة وضعوا أساس انطلاق الأمة الصينية نحو المستقبل وأمضى فى لقائه بهم ساعات طوالاً، حتى بدا كأنه واحد من أولئك المخططين القدامى، أو عبقرياً ممن أسهموا فى صنع التاريخ، كنت أتطلع فى العيون الآسيوية حين تتسع دهشة وتلمع فى إعجاب، وشعرت بمنتهى الفخر وأنا أنقل البصر إلى صفحة سماء عريضة مرصعة بثريات بعيدة من النجوم، آثرت أن تتوارى فى شموخ فوق سحابات قاتمة لتومض ألقًا هائماً فى عيون ليالٍ مسهدة ترقب فجر نهار جديد .

وبكل العرفان أشكر الكثيرين ممن بذلوا جهداً دؤوباً للمعاونة فى إعداد المسودة الأولى فى هذه الترجمة، سواء بمراجعة المخطوطة ثم تدقيق النص المطبوع أو تقديم الآراء والمقترحات، مع تحية خاصة للأستاذ /جمال الغيطانى لكل ما قدمه ويقدمه من توصيات فى هذه الترجمة وغيرها، فهو صاحب فكرة ترجمة التراث الصينى للعربية بالأساس، ويتفضل مشكوراً-برغم مشاغله-بإبداء توجيهاته وملاحظاته السديدة وكثير مما لايتناهى ذكره.

وكذلك أتوجه بالشكر للمجموعة التى شاركت مباشرة فى إنجاز هذا الكتاب وهم - مع حفظ الألقاب للجميع - (الزميل) ماجد الصعيدى، لما بذله من جهد فى

المراجعة اللغوية، و(الصديق) سيد محمد قطب ، فقد كانت أراؤه وأفكاره خير معين على مراجعة جهود الترجمة، فكراً وممارسة، ولايفوتنى أن أذكر بكل تقدير وامتنان ماقدمته (الزوجة) حنان أحمد مرزوق من جهد كبير فى مراجعة النص الكامل للترجمة، بالإضافة إلى مراجعة مصادر الأبحاث المختلفة والمتعلقة بموضوع الكتاب وكان لملاحظاتها الكثيرة ومشاركتها الإيجابية فى تعديل الصياغة أعظم الأثر فى إنجاز النسخة التامة لهذا الجزء من الكتاب.

وختاماً فلا أظن أن ترجمتى هنا، هى الترجمة المثلى، بل تبقى الفرصة قائمة - لابد - لترجمات أخرى يقوم بها زملاء أكثر وعياً ومقدرة ، سواء من العرب أو الصينيين، عن اللغة الأصلية أوغيرها، على نحو أشد دقة وأعظم نجاحاً واقتداراً.

محسن فرجانى

القاهرة-يوليو ٢٠٠٧

سجل جو الشرقية

لما قامت دولة تشين بحملة عسكرية

لما قامت دولة تشين بإعداد حملة عسكرية لغزو جو الشرقية، وأعدت لذلك كل العدة وتهيأت للقتال، رغبة منها فى استعادة الأوانى التسع (الأوانى ثلاثية الأرجل التى اخترعها الإمبراطور " يو" وصارت تتوارثها الممالك، رمزًا للسلطة والمهابة والجلال) تحير ملك جو وأصابه قلق عظيم، وراح يفضى بأفكار قلبه للوزير يانشواى، فقال له الوزير: " هدئ من روعك يا مولاى، ودعنى أدبر لك مخرجًا، وأستأذنك فى الذهاب إلى مملكة تشى الشرقية أطلب منها الدعم العسكرى فى مواجهة هذا الأمر"، وذهب يانشواى إلى مملكة تشى وقابل جلالة الملك تشى شوان ، وقال له: " تعرف جلالتكم أن دولة تشين تتصرف فى كثير من الأمور بحماقة لا حدود لها؛ لدرجة أنها تستعد الآن لغزو جو الشرقية وذلك فى محاولة منها لاستعادة الجيودينغ (الأوانى التسع)، وقد غادرت البلاد وكل رجال البلاط فيها، من جلالة الملك إلى آخر وزير جالسون فى القصر لا يغادرونه ليل نهار، يقلبون الأفكار على كل وجه، وقد أجمعوا رأيهم على أمر واحد وهو إنه من الأفضل أن نعطيكم أنتم الجيودينغ بدلاً من تسليمه لدولة تشين، ولا شك أن فى حماية بلد من هلاك وشيك تعزيزًا للكرامة، والسمعة الحسنة وحفظ ماء الوجه، ثم إن الحصول على تلك الأوانى التسع يساوى حيازة أثمن جواهر الأرض جميعًا، فعساك يا مولاى تتدبر هذا الأمر مليًا ".

وما كان من الملك تشى شيوان إلا أن رحب بهذا الاقتراح، بل فرح جدًا وراقت له الفكرة، ثم إنه أرسل جيشًا قوامه خمسون ألف مقاتل، وأصدر أمرًا بتعيين

"شنسى" قائداً عاماً لذلك الجيش مع تكليفه بالدفاع عن دولة جو الشرقية، وعندئذ، توقفت تشين عن استعدادات الغزو العسكرى.

وتوالت الحوادث، وكان أن أعربت دولة تشى عن رغبتها فى الحصول على الجيودينغ، وعاد ملك جو سيرته الأولى مع القلق والهموم، ومعه فى ذلك رجال البلاط جميعاً، فقال له الوزير يانشواى: " على رسلك يا مولاى، دعنى أيضاً هذه المرة أذهب إلى دولة تشى؛ علنى أجد مخرجاً من هذا المأزق، وذهب إلى تشى، وقال لجلالة الملك تشى شيوان: " إننا فى دوله جو الشرقية، من جلالة الملك إلى الوزراء ورجال البلاط وكل رجل وامرأة ووالد ومولود، نعتمد على مآثركم الطيبة، وجميل صنيعكم معنا، فبذلك وحده تقر عيوننا أمناً وسلاماً يا مولاى، أما بخصوص الجيودينغ لجلالتكم، فلا ندرى ما هى أكثر الطرق ملاءمة للمرور عبر أراضيكم؛ كى تسلك بها قوافل البعثة الآتية إليكم ؟"، فأجابه الملك تشى شيوان، قائلاً ما نصه: " أرى من الممكن أن نستأذن دولة وى، فى استخدام أحد ممراتها، فرد عليه يانشواى قائلاً :" لكن ملك وى يرغب فى اقتنائها، وقد سبق له السعى فى ذلك حتى أنه حشد رجاله وتدبر الخطط التى توصله إلى الحصول عليها، فلو دخلت الجيودينغ إلى بلاده، فلن تخرج منها بعد ذلك أبداً ؛ فعاد الملك تشى شيوان يقول: "إذن فلنستأذن دولة تشو فى السماح لنا بالمرور عبر أراضيها"، فأجابه يانشواى، وقال :"مستحيل يا مولاى، لأن ملك تشو يتطلع هو أيضاً للحصول على الجيودينغ. وقد وضع الكثير من الخطط لتحقيق هذا الغرض، وقد مضى عليه وقت وهو يتحين الفرصة منذ زمان بعيد ، فما إن تعبر الأوانى التسع إلى بلاده حتى تتوارى عن الأنظار وتختفى إلى الأبد "، وهنا قال له الملك تشى شيوان:"فمن أى طريق إذن نستطيع أن نسلك بها إلى مملكتنا؟"؛ فأجابه يانشواى:"لا أخفى على جلالتك أننا فى دولة جو، نشعر بمدى القلق والحيرة التى تحيط بكم إزاء هذه المسألة، فالجيودينغ ليس مجرد قنينة خل ولا علبة مخللات أو أى شىء يمكن إخفاؤه فى طيات الملابس لدى السفر إلى بلادكم، ولاهو حتى كالطيور المحلقة بأجنحتها أو الداجن حبيس الأقفاص أوالخيل الراكضة، مما يمكن إطلاقه فى رحب

الفضاء أوفى منبسط الخلاء، فينفذ إليكم بغير عوائق، لقد كانت الأوانى المقدسة أعظم شىء غنمته مملكتنا فى الزمان،عندما خرج ملوك جو الشرقية فى حملات لتأديب العصاة فى دولة "يين"، فوقعت الأوانى التسع فى أيدينا، وكانت أثمن ما فزنا به من غنائم الحروب جميعًا، وكان منظرًا مهيبًا يوم أن رأيناها محمولة على الأعناق، يتهادى بها الجنود فى حشود بلغ عدد الرجال السائرين فيها بالآنية الواحدة تسعين ألفًا، فإذا عددنا المعاونين، بلغ الإجمالى ثمانمائة ألف فرد، ثم إننا نحتاج إلى عدد مماثل من الجنود والعمال والخدم لصنع الآلات وإعداد الملابس والأدوات اللازمة للنقل ولاشك أن جلالتك تملكون كل الأدوات الضرورية ولديكم الأعداد المطلوبة من الرجال وزيادة، لكن المشكلة فى آخر الأمر تكمن فى كيفية السير بكل هذا العدد وهذه العدة عبر طريق متاح ومأمون؟، لاأخفى على جلالتك يامولاى، أنى أشارككم مزيد القلق والحيرة والظنون "، وهنا قال له الملك تشى شيوان:" لكن وبرغم كل تلك المحاولات من جانبك فلا أرى أنك تريد حقًّا تسليم الجيودينغ إلينا، فأجابه يانشواى: "أبدًا يامولاى بل أصدقك القول فى كل ما حدثتك به، فقط عين لنا الطريق الملائم للمرور وستجدنا جميعًا فى دولة جو رهن إشارتك، ولن نتخلف عن نقلها إليك، ثم إن الملك تشى شيوان توقف فى نهاية الأمر، عن اتخاذ أية تدابير للمطالبة بالجيودينغ وطرح الفكرة كلها جانبًا".

لما أغارت قوات تشين

لما أغارت قوات دولة تشين على بلدة إيانغ التابعة لدولة هان استدعى الملك جشونان (ملك دولة جو) مستشاره "جاولى" ، وسأله "كيف ترى عاقبة الأمور؟" فأجابه "ستتدمر المدينة على يد قوات تشين " ، فقال الملك:"صحيح أن المساحة الكلية للمدينة لاتتجاوز ثمانية أميال مربعة، لكن عدد العسكريين المدربين الأكفاء المقيمين بها يتجاوز العشرة آلاف مقاتل، كلهم فى غاية الجسارة والبطولة ، بالإضافة إلى مؤونة كافية من الحبوب تستطيع أن تعيش عليها المدينة لسنوات طويلة قادمة، ثم إن

هناك قوات نظامية تابعة لدولة هان تحت قيادة كونجون، تعدادها عشرون ألف مقاتل، وبجانب هذا، فهناك القوات التابعة لدولة تشو تحت قيادة "جين سوى" وقد تحصنت بمحاذاة السفح الجبلى، فى حالة تأهب قصوى، فمن ذلك كله أرى استحالة وجود أية فرصة نجاح أمام قوات تشين"، فأجابه جاولى قائلاً : "تعرف جلالتكم أن دولة تشين تتصرف مع قائد جيوشها جانمو بوصفه مستشاراً عسكرياً تحت الطلب ، فهو مجرد ضيف مقيم يعمل عندهم بغير أجر، فإذا أتيح له أن يحرز نجاحاً فى الهجوم على "إيانغ" فسيترقى ليصبح واحداً من أعظم النبلاء فى مملكة تشى بأسرها ، أما إذا أخفق فسيفقد كل فرص الترقى، حتى الوظيفة الاستثنائية التى يشغلها حالياً سيفقدها أيضاً ويعيش مشرداً، هذا بالإضافة إلى أن ملك دولة تشين نفسه قد قام بالهجوم على إيانغ، متحدياً فى ذلك آراء من حوله من رجال البلاط والحاشية ، ولذلك فإن عجزه عن مهاجمة المدينة واحتلالها سيضعه فى موقف مهين للغاية، فمن ثم أميل إلى الرأى القائل بأن المدينة مقضى عليها، لا مفر، تحت ذلك الهجوم"، وبناء على هذا التقدير، قال له الملك جشونان : "ضع لى إذن ، خطة للتصرف على ضوء تلك الظروف" "فأجابه جاولى: "أرى يامولاى أن تقول "لجين سوى "إن مكانته الاجتماعية ارتقت إلى أرفع المراتب، فهو الآن يحمل رتبة أعظم النبلاء ، وإن وظيفته الرسمية الآن أرقى المناصب، فإذا أبلى بلاءً حسناً وانتصر، فلن يترقى اجتماعياً أو وظيفياً إلى ما هوأرفع من ذلك مادام قد بلغ أسمى منزلة، أما فى حالة عدم فوزه بالنصر، فسيلقى حكماً بالإعدام، فمن الأفضل له أن يؤجل المواجهة مع دولة تشين الآن، ويلتفت إلى دعم الموقف الدفاعى فى إيانغ على أن تبقى قواته جاهزة للتحرك ، فإذا صدر لها الأمر بالاشتباك فسوف يعنى ذلك أنها تتحرك ؛ لتشغل حالة الضعف والإنهاك فى قوات تشين، مما سيوقع الرعب والارتباك بين صفوفها، وستحاول دولة تشين وقتئذ أن ترسل إليك أثمن الهدايا (هكذا)، وسيزيد قدرك فى عين القائد كونجون، ويتيه بك إعجاباً وفخراً لأنك عرفت كيف تستغل نقطة الضعف فى خصمك فانتصرت ورفعت الحصار عن إيانغ، وربما بالغ فى إكرامك وأرسل إليك بأثمن الهدايا ".

ثم إن قوات دولة تشين أغارت على مدينة إيانغ، فتصدت لها كتائب الدفاع التى يقودها جين سوى، فدخلت الرهبة فى نفوس قادة تشين، وبلغ بهم الخوف مداه، وراحوا يفكرون فى طريقة يسترضون بها جين سوى، حتى اهتدوا إلى أن أعطوه مساحات شاسعة من مزارع النخيل، كما أن دولة هان راحت تمطره بأثمن العطايا والهبات تقديراً وعرفاناً، وهكذا اجتمع له النفع من جهتين فقد حاز أرضًا تتاخم حدود دولة تشين، ونال جزيل العطاء من حلفائه بدولة هان، وفوق ذلك كله، فقد لقى مزيد الامتنان من قبل البلاط الحاكم لدولة جو الشرقية.

لما قامت الحرب بين جو الشرقية وجو الغربية

لما قامت الحرب بين جو الشرقية وجو الغربية، أخذت دولة هان تعد العدة لإرسال قوات عسكرية معاونة لدولة جو الغربية دعمًا لدفاعاتها، فأرسل ملك جو الشرقية رسولاً إلى حاكم دولة هان الملك هان تشى يانغ، يقول له : "إن جو الغربية كانت فيما مضى إمبراطورية مترامية الأطراف فاجتمع لها ما يجتمع للممالك السماوية من الكنوز والثروات مما يعز على الوصف ولئن قامت دولتكم بتجميد تحركات قواتها وأوقفت إرسال أية معونة عسكرية إلى الأطراف الأخرى؛ فسيكون ذلك من أسباب تقدير دولة جو الشرقية لتصرفكم والنظر إلى الأمر بعين الامتنان، وفى الوقت نفسه، فسيصبح بإمكان دولتكم الحصول على جميع الثروات والكنوز والنفائس الموجودة بدولة جو الغربية وضمها لملكيتها العامة" .

لما قام النزاع بين دولتى جو الشرقية والغربية

لما قام النزاع بين دولتى جو الشرقية والغربية أرادت جو الغربية عقد التحالف والوحدة مع دولتى تشو، وهان؛ ثم إن الوزير "تشى منغ" قال لملك جو الشرقية :"إن أكثر ما نخشاه يامولاى، هو أن تقوم جو الغربية باستمالة دولتى تشو ، وهان إلى

جانبها وذلك بتقديم شتى الإغراءات، وربما أوعزت إليهما بأن يقوما بدلاً منهما بالاستيلاء على أراضٍ تقع تحت سيادة مملكتنا، ولا أرى إلا أن نوفد لهما رسلنا إلى كل من هان وتشو فنبلغهما أن وعود جو الغربية لهما بإقطاعهما أراضٍ أو بمنحهما هبات أو ثروات لايعدو مجرد كونه احتمالاً يتأرجح بين كفتي الشك واليقين، والتردد فيه يغلب الرجحان، افترضا، مثلاً ، أن قوات جو الشرقية قررت فجأة سحب قواتها والتراجع عن التهديد بغزو أراضي جو الغربية، حينئذ لن تمنحكم ديناراً ولا درهمًا وتخرجان من الصفقة ، دون أن تعمر لكما خزانة، أما إذا أردتما حقًا الحصول على ما تغريكما به من كنوز وثروات، على نحو ملموس، فينبغي أن تدفعانا دفعًا لغزو أراضي جو الغربية، ووقتئذ تغمركما بأثمن ما تملك ويصير لنا الفضل فيما تنعمان به من وافر الرخاء فبقدر ما يزيد لكما النفع تنقص مقدرات جو الغربية وتتدهور أحوالها بمرور الوقت".

لما حان موسم زراعة الأرز

لما حان موسم زراعة محصول الأرز في دولة جو الشرقية، قامت جو الغربية بقطع مجارى الأنهار عنها، فاغتم الناس لذلك وأصبحوا في هم وقلق، فذهب الوزير سوتزى إلى ملك جو الشرقية، وقال له:"هلا سمحت لي جلالتك، بالذهاب إلى جو الغربية؛ علنى أقنعهم بفتح قنوات الترع والأنهار؟"

فلما ذهب وقابل ملك جو الغربية، وتكلم معه قائلاً:" تلك يامولاي خطة غير ناجحة وتصرف يجانبه الصواب! ولعلك لاتدرى أن قرارك بإغلاق مجارى الأنهار وحبس المياه عن جو الشرقية كان سببًا رئيسيًا في فتح ينابيع الخير كله على الناس هناك، أما دريت أنهم الآن قد تركوا بيوتهم وبقوا في المزارع يواصلون الليل بالنهار في زرع القمح، فهم الآن لا يزرعون شيئًا سواه فلئن أردت يامولاي أن تضاعف لهم المحنة وتعسر عليهم الأرزاق فما كان أجد ربك أن تفتح كل قنوات الري ، فتغمر أرضهم

بالماء فيغرق القمح فى الحقول، وبهذه الزيادة الهائلة فى منسوب الرى ستضطر دولة جو إلى العدول عن زراعة القمح وغرس شتلات الأرز، فإذا ما صارت زراعة الأرز هى عماد المحاصيل المزروعة فى البلاد، استطعت أن تتمتع بقدر من النفوذ والغلبة على هذا النحو، فسيشعر أهالى جو الشرقية أن أقدارهم معلقة بأيديكم ويصبح أمرك مطاعًا وحكمك فيهم ماضيًا، فعندئذ، تأمل الملك تلك الفكرة، فراقت له وتحمس لها، ثم أصدر أمره بفتح المياه عن آخرها، وحصل الوزير سوتزى على أثمن الهدايا من كلتا الدولتين.

لما حضر مستشار دولة تشو إلى يانغ تشاى

لما حضر مستشار دولة تشو (الوزير جاو شان) إلى مدينة يانغ تشاى، فكر ملك جو الشرقية فى إن يرسل مستشاره الشخصى ليكون فى استقبال ذلك الضيف،إلا إن مستشار الملك كان مترددًا، لايرغب فى أداء تلك المهمة، ثم إن سولى تفهم ذلك الموقف وراح يقول لجلالة الملك:"فى الماضى القريب، عندما التقى ملك دولة تشو مع ملك دولة وى قامت الدولة المضيفة بإرسال الوزير "تشن فنغ " إلى دولة تشو ليكون فى صحبة الملك حتى قبل أن تبدأ الزيارة الرسمية، وعندما تقابل ملك تشو مع ملك دولة هان، قامت الدولة المضيفة بإرسال الوزير شوكون إلى دولة تشو ؛ ليرافق الملك خطوة بخطوة طوال مدة زيارته، وبالتناظر تم إرسال الوزير شيان كونغ إلى دولة هان ليصحب الملك قبيل بدء الزيارة، أما الآن وقد علمت أن جاوشيان هذا ليس هو الملك الحاكم للدولة المضيفة فإن جلالتك تصر على إرسال مستشارك الشخصى ليصحبه فى أول مراسم الزيارة، فمن سترسل إذن يامولاى، إذا قدم عليك ملك دولة تشو بنفسه ؟"، وفكر ملك جو الشرقية برهة، و فهم القصد الذى وراء الكلمات، وقال:"نعم، والحق معك " ، وقام على الفور بإلغاء قراره السابق.

لما تقدمت دولة تشين بطلب رسمى

لما تقدمت دولة تشين بطلب رسمى إلى جو تعبر فيه عن رغبتها فى تأجير أحد الطرق المارة بأرض المملكة؛ لاستخدامه فى نقل قوات الحملة العسكرية التى تعتزم إرسالها لشن هجمات تأديبية على دولة هان، ترددت تشين فى الموافقة خشية أن يتسبب ذلك فى إفساد العلاقات مع هان، لكنها أيضًا رأت أن رفض الطلب يمكن أن يغضب دولة تشين ويمس هيبتها، ثم إن "شيان " أحد كبار رجال البلاط بدولة هان ذهب إلى جو الشرقية، وقابل جلالة الملك، وقال له :" ما الذى يمنعك يامولاى من أن ترسل رسولاً إلى رئيس وزراء دولة هان (السيد كونشو) ، تقول له:" لئن كانت مملكة تشين تقدم على خطة لنقل قوات الحملة التأديبية عبر أراضى دولتنا (جو)، فإنما يدل ذلك على أنها تولينا قدرًا من الارتياح والثقة، ولاأدرى ما الذى يمنعكم من أن تمنحونا مساحات خالية من الأرض مثلاً ، وما الذى يمنعكم أيضًا من إرسال وفود دبلوماسية إلى دولة تشو على أن يترأس تلك الوفود كبار رجال القصر ؟"، إن الإحجام عن مثل تلك المجاملات كفيل بإثارة الشك والريبة لدى دولة تشين مما يدفعها للتوجس منا، وبالتالى تتفادى دولة هان أخطار الهجوم الوشيك، وتتوقف حملات التأديب المزمعة ضدها، وعقب ذلك مباشرة، تقوم جلالتكم بإيفاد رسول إلى دولة تشين ليقول: " لقد عرضت دولة هان علينا عروضًا بالغة السخاء تتمثل فى التنازل عن مساحات من أراضيها، والسبب فى ذلك واضح بأنهم يريدون إثارة شكوك دولتكم فى موقفنا وهو الأمر الذى يرفضه ملكنا جملة وتفصيلاً ، مثلما يترفع عن قبول تلك الإغراءات، وبالطبع فإن مملكة تشين سترى أنه من غير المناسب، بل غير المنطقى أن تطلب دولتكم التخلى عن قبول ضم مساحات إضافية إليها، وبالتالى فستكسب جو الجولتين مرة واحدة، فمن ناحية ستضم أرضًا جديدة من أراضى دولة هان، ومن ناحية أخرى تلبى طلب دولة تشين بكل ود واحترام ".

لما حاصرت قوات تشو مدينة يونغ

لما حاصرت دولة تشو، مدينة يونغ التابعة لدولة هان، قامت دولة جو الشرقية بإمداد كل من الدولتين بالمواد الغذائية وهو الأمر الذى أثار غضب واستياء حاكم تشو، وأصبحت الأجواء مثقلة بالقلق والتوتر فى أروقة البلاط الحاكم فى تشو، وجو الشرقية، وذهب رسول من هذه الأخيرة إلى حاكم دولة تشو، وقال له:" إن الغضب الذى تجيش به صدوركم يامولاى يثير مزيداً من القلق والتوجس لدى جو الشرقية والنتيجة الضرورية المترتبة على هذا الأمر، هو أن تتحالف جو مع الدول التى تتلقى منها الدعم الغذائى، وهو ما سينجم عنه زيادة صلابة الجبهة المناوئة لكم، فمن ثم ، يصبح التصرف الأنسب فى مثل هذه الظروف هو أن تبادر جلالتكم وبأقصى سرعة إلى إزالة أسباب القلق لدى دولة جو، ولئن كانت قد اتخذت اجراءات تضربمصالح جلالتكم، فلا بد أنها فى قادم الأيام، وبعد أن تلمس منكم الصبر والفهم وتقدير الظروف، ستضاعف من حجم خدماتها ورعايتها لمصالحكم ".

لما التقى جو تسوى بالوزير الهارب ليو لى

لما التقى جو تسوى (ولد أحد وزراء دولة جو) بالوزير ليو لى [أحد مواطنى دولة تشى، وكان أحد وزراء دولة " إيجو " يدبر لاغتياله، ففر هارباً ونزل ضيفاً فى طريقه، على دولة جو] ، وتحدث معه وكان من جملة حديثه أنه قال له:" لماذا لا تحث دولة تشن على غزو دولة تشى، ثم تحاول أن تجعل هذا الإجراء خادماً لغايتك ؟، أو على الأقل ائذن لى أن أتحدث مع جلالة الملك بدولة تشى ؛ علنى أستطيع إقناعه بتعيينك وزيراً فى مملكته، وبالتالى يمكنك أن تقدم خدمات عديدة لدولة تشين من خلال هذا الموقع الرسمى، وأنا واثق تمام الثقة من أنك لن تتعرض لأية متاعب مستقبلية، ثم إنك تستطيع إذا ما تقلدت تلك الوظيفة أن تكلفنى بمهام وظيفية عليا فى دولة وى، بحيث أقوم بالتنسيق لخدمة مصالح تشين، وبهذه الطريقة يصير كل النبلاء

ورجال البلاط فى قبضة يدك؛ ففى الشرق تدين لك دولة تشين فتسمو منزلتك، ويلمع نجمك وتبلغ ما لم يبلغه أحد قبلك من الرفعة والعزة فإذا ما اتحدت الدولتان "تشين"، و"تشى" أصبح الكل يلهج باسمك امتنانًا وعرفانًا على طول المدى ".

لما قدم مستشار الدولة ضيفه الكريم

لما قام مستشار دولة جو الشرقية (السيد لوسانغ) بتقديم أحد ضيوفه إلى البلاط الحاكم، كان المستشار السابق كون شيجى يشعر ببالغ القلق خشية أن يصدر عن هذا الضيف فى حضرة البلاط افتراءات أو وشايات كاذبة تسىء إلى سمعته وتضر بشخصه وكرامته أمام الناس، فأرسل مبعوثًا ليبلغ القصر بما مفاده "إن هذا الضيف فصيح اللسان، قوى الحجة والبيان، خطيب مفوه لامثيل له بين الناس، إلا أنه - برغم هذا - ليس محل ثقة، ولا أهلاً لصون العهود وحفظ المواثيق، بما عرف عنه من الميل إلى الدس والوشاية والسعى إلى بذر الكراهية والبغضاء بين الناس ".

لما قام البلاط الحاكم بسحب الثقة

لما صدر عن البلاط الحاكم بدولة جو الشرقية فرمان بسحب الثقة من مستشار الدولة (كون تشيجى) وإقالته من منصبه وتعيين المستشار (لو سانغ) بدلاً منه سادت مشاعر الاستياء فى أروقة الحكم بين رجال البلاط، بل إن جلالة الحاكم نفسه لازمه شعور جارف بالحيرة والقلق.

ثم إن الضيف الذى قدمه لو سانغ إلى البلاط، ذهب لمقابلة جلالة الحاكم وكان من جملة ما قاله لجلالته: "إن أمور الحكم لاتخلو من أن تشتمل على النافع والضار جميعًا والمسئول المخلص هو الذى ينسب جوانب التقصير إلى نفسه ويعزو النجاح والحكمة لجلالة الملك، ومن المأثور فى ذلك أن حاكم دولة سونغ لما أجبر عماله على

الاشتغال ببناء القصور الملكية وكانوا من المزارعين الذين تركوا وراءهم أرضًا عطشى وحقولاً تكاد تبور، استهجنت الناس تصرفه وتناولته الألسن بالنقد والتجريح، وما كان ذلك ممكنًا إلا لعدم وجود الوزير المخلص الذى يأتى فى الوقت المناسب ليحمل عن جلالته أوزاره فيلتئم به الصدع، وتتوارى به سوأة الأخطاء، فإنه لما حدث أن الوزير الأعظم فى دولة سونغ (السيد تسيهان) أقيل من منصبه وخفضت درجته الوظيفية حتى عين مشرفًا على الحرفيين والعمال، صارت الناس تنحى باللائمة على تسيهان نفسه، وتستقبح مسلكه الذى أوصله إلى تلك الحال، بينما كانت فى الوقت ذاته تمتدح هيبة وحكمة وحزم جلالة الإمبراطور وقيل إن الملك "تشيهوان كو"، كان يبالغ فى الاحتفاء بأبهة العرش وفخامة الجاه الإمبراطورى، فزينت له نفسه أن يبتنى القاعات الفسيحة داخل المقر الملكى الكبير حتى بلغ عددها سبع قاعات لامثيل لها على وجه الأرض.

ثم إنه شيد صالات الملاهى وبيوت الرقص والبغاء فبلغت جملتها سبعمائة صالة، لكن سرعان ماعم السخط بين الأهالى وضجت الناس بالشكوى، حتى لم يبقَ فى الدولة فرد واحد غير ساخط على تصرفات البلاط الحاكم. وهنالك بادر المستشار الأكبر "كوان شونغ" إلى تشييد ثلاثة قصور شامخة فوق ثلاث إقطاعيات هائلة، كان أهداه إياها جلالة الملك وصار يبالغ فى فخامة البناء وزخرف التشييد حتى تناقلت الناس أخباره وصار مضرب المثل فى البذخ والإسراف، وكان قصده من وراء ذلك كله أن ينشغل الناس بسيرته هو، وتلهو عن نقائص البيت الحاكم.

إن من يطالع السجلات التاريخية لفترة "الربيع والخريف" يجد صفحات مطولة تتحدث عن مؤامرات لاحصر لها قام بها الوزراء لاغتيال الملوك والأباطرة، وإذا تقصيت الأسباب وجدت أن معظم هؤلاء الوزراء هم من الذين نالوا عظيم المدح والثناء من مواطنيهم لذلك يقال بأن ما يعود على الوزراء ورجال الدولة من جميل الثناء يجلب على البلاد أهوالاً وكوارث. وبناءً على ذلك، لم يقدم البلاط الحاكم على تنحية لوسانغ عن منصبه.

لما ذهب رجل من بلدة ون

لما ذهب رجل من بلدة "ون" بمملكة "وى" قاصداً دويلة جو الشرقية، ووقف عند البوابة طالباً الإذن بالدخول فوجئ باعتراض أحد الموظفين على طلبه فأنبأه بأنه من مواطنى دولة جو، وهنا سأله الموظف عن محل إقامته غير أن الرجل لم يحر جواباً، فألقى القبض عليه وأودع الحبس فبعث إليه حاكم دولة جو بمن راح يسأله عن سر ادعائه بأنه من مواطنى الدولة دون الإقرار بحقيقة أنه وافد غريب عن البلاد، فأجاب الرجل بقوله: "كنت قد قرأت فى مقتبل عمرى كتاب الشعر القديم ، وكان مما ورد فى هذا السفر الجليل ما مفاده أن كل ما تحت السماء من الممالك إنما هى إرث لوارث العزة والجلال سيدى فخامة الحاكم الأعظم ملك الملوك، وكل من سعى على قدمين فوق تلك الممالك فهو - بالتبعية - أحد رعايا جلالته، وما دام حاكم جو هو المشار إليه بوصفه سلطان الممالك وعظيم الملوك، فلابد أن هاهنا واحداً من رعاياه الذين يستظلون بجلال عزته وسطوة ملكوته، فلماذا ينظر إلى بوصفى ضيفًا على البلاد؟ ، مع أنى، كما قلت آنفًا، واحد من بين الرعايا المخلصين "، وعند ذلك أصدر جلالة الحاكم أمره إلى موظفى الحدود بإطلاق سراح الرجل والسماح له بدخول البلاد من أوسع الأبواب.

لما ذهب رسول من جوتسوى إلى رئيس الوزراء

لما ذهب رسول من جوتسوى يحمل رسالة من جلالة الملك إلى رئيس وزراء دولة جاو يقول فيها : "إن مملكة تشين قد قررت إيفاد جوتسوى إلى دولة "تشى" بهدف إشاعة الذعر فى قلوب ملوك وأمراء باقى الممالك كلها، مما قد ينجم عن اتحاد المملكتين المشار إليهما، ثم إن مملكة تشين كانت تعلم علم اليقين استحالة قيام الحرب بين كل من دولة جاو ومملكة تشين، وذلك لخشية جاو من أن تبادر كل من دولتى تشى وهان إلى الاتحاد مع مملكة تشين وإلى تطبيع العلاقات بينهما، فإذا ما

قامت الوحدة بين تشين وتشى، تحولت مملكتكم (مملكة جاو) إلى أنقاض وخرائب، فالأفضل لكم أن تهبوا لنصرة دولة تشى، وأن تتحالفوا مع مملكة تشين و تدعموها بالمشاركة معها فى إرسال قوات تأديبية إلى كل من دولتى هان و وى، ومن ثم يمكن لدولة جاو أن تضم إلى أراضيها جزءاً لابأس به من أرض دولتى هان. وهكذا ، تحصل بلادكم من جهة الشرق على هدايا ونفائس مملكة تشى، ومن جهة الجنوب تضم أراضى متاخمة لها من دولة هان، مما يضع دولة وى فى مأزق صعب، هذا ولايخفى على جنابكم الكريم أن مملكتكم سيتوجب عليها مسالمة دولة تشى، إذا ما بدا لكم توسيع حدودكم جهة الشرق".

•

لما تحدث جوتسوى إلى رئيس وزراء دولة جاو

تحدث جوتسوى إلى رئيس وزراء دولة جاو، فقال له:" إن سندكم الأساسى فى حربكم مع دولة جاو الكبرى التى يعرف الجميع مقدار قوتها يتمثل فى تحالفكم مع مملكة تشين، فإذا ما تم لكم النصر، فلسوف تمد مملكة تشين سلطانها إلى أجزاء من أراضى دولة جاو، وبخاصة المناطق المحاصرة فيها، وهكذا فسترغم دولة جاو على التنازل عن تلك المناطق إلى أطراف أخرى، وهو الأمر الذى سينجم عنه وقوع الأمراء والحكام فى الممالك والدويلات المختلفة فى مناوشات وحروب متبادلة، أما إن لم يكن النصر حليفكم، فستكون عاقبة ذلك تدهور أحوالكم وذهاب قوتكم وهيبتكم. ومعنى ذلك أنكم سترضخون آخر الأمر لسطوة مملكة تشين وتمتثلون لما تمليه عليكم، ثم إنها تخطط لاحتلال مناطق ذات أهمية سياسية فى كل من دولتى هان و جاو، مما سيجعل من مملكة تشين إمبراطورية ذات سيادة على نصف الأرض التى تحت الشمس، ويبسط لها مديد السطوة فوق الدويلات الآتية: تشى - جو- هان- وى، ثم إنها ستصبح فى موقع يسمح لها بتهديد الأوضاع القائمة فى دولة جاو وعندئذ ستجدون أنفسكم عاجزين عن توفير أسباب الاستقرار فى بلدكم وهو وضع لايفى بمتطلبات التخطيط السديد".

لما تكلم شيشين مع أحد قادة مملكة تشين

التقى شيشين مع أحد كبار القادة العسكريين فى مملكة تشين ، وقال له ما نصه:" إن كنت تسعى حقًّا لبلوغ مرتبة أمير الجيوش ؛ فأنصحك بالتلطف والكياسة فى معاملة الاستراتيجيين والنابهين فى دولتى جاو الشرقية والغربية"؛ ثم إن شيشين استطرد قائلاً: "والأفضل من ذلك أن تطلب إلى أولئك المخططين السياسيين والنابهين أن يسعوا لتدبير وظيفة مرموقة لك فى مملكة تشين ".

لما التقى الناس بالسيد شوكون

التقى رجل بالسيد شوكون تيان ون، وقال له:" برغم كل المآثر الكريمة والأيادى البيضاء التى كانت لـ (جو تسوى) على تشى مين وانغ (حاكم دولة تشى) فإنه أقصى عن البلاد وذلك بجريرة أنه أخذ بنصيحة جوفو، وقام بتعيين ليولى رئيساً للوزراء آملاً بذلك أن يحظى بنصره وتأييد مملكة تشين، متصوراً أنه لو قامت الوحدة بين دولتى "تشين" و"تشى" فسينظر بعين الاعتبار لكل من ليو لى وجوفو، ولو حدث أن حظى ليو لى بدعم وتأييد كل من الدولتين جو وتشى، فسوف تسقط هيبتك من عين دولة تشين، ولاأرى لك سوى أن تزحف بجيشك ناحية الشمال، مما سينجم عنه تقارب كل من دولة وى وتحالف تشين وجاو ثم تقوم بتعيين جوتسوى مساعداً لك ليشتد به أزرك، وبهذه الطريقة وحدها، تسترد هيبتك وسمعتك وتضع حداً لتبدل الأوضاع السياسية السائدة، واعلم أنه إذا فقدت دولة تشى مساندة تشين لها، فسوف تتجه كل رؤوس الحراب ناحية دولة تشى، وهو ما سيدعو جوفو للفرار ناجياً بنفسه، وبذلك يخسر حاكم تشى أكفأ رجل يمكن أن يضبط أحوال بلاده".

لما سمع تشى مين وانغ كلام جوفو

لما سمع تشى مين وانغ كلام جوفو واقتنع بمنطقه وقام بإقصاء جوتسوى عن منصبه، جاء إليه من قال له: "الآن وبعد أن أقصيت جوتسوى عن منصبه، وقد وجدت كلمات جوفو لديك آذانًا صاغية، عينت ليولى رئيسًا للوزراء وتبين أن غرضك من هذا استمالة دولة تشين لضمان مساندتها لك، وبعد أن خاطبت ود دولة تشين وتقربت إليها – على هذا النحو – فسوف يزيد وزن وأهمية تلك الأخيرة ويعلو قدرها بين الممالك، مما يمكن أن يمس مكانة بلادكم ويضر بمصالحها، أضف إلى ذلك أنه لو قامت الوحدة بين بلادكم ودولة تشين، فسوف يثير ذلك فزع دولة جاو وخشيتها من أن تصبح عرضة للغزو من قبل تشين، وهو ما سوف يدعوها لتعبئة قواتها وشن هجوم مباغت على أراضيكم كتحذير ضمنى لدولة تشين. ولئن كانت هذه الأخيرة تحاول أن تستغل دولة جاو لضرب تشى، بينما تقوم باستفزاز الثانية ضد الأولى، فإنما هى تهدف من وراء ذلك كله إلى غرض واحد هو زعزعة استقرار دولة تشى، لذلك رأيت أن تعيين جوفو فى هذا المنصب ينسجم مع المنطق السائد بين الممالك الذى يولى اعتبارًا ظاهرًا لمكانة ونفوذ دولة تشين.

لما تحدث سولى إلى سوتشين

تحدث سو لى إلى سو تشين بشأن جوتسوى، فقال له:" أرى أن تأخذ بنصيحتى وتقنع حاكم دولة تشى بأن يصغى جيدًا لما يراه جوتسوى، وذلك بأن يتنازل عن قطعة من أرض بلاده لدولة وى، إذا كان ذلك هو ثمن إقامة الوحدة معها، وهو ما سيدفع دولة جاو إلى الخوف من أن تجد نفسها معزولة، ومن ثم تطلب هى الأخرى الانضمام إلى صف الوحدة مع تشى، وهكذا تسعى هذه الدويلات الموحدة إلى التحالف مع دولة تشو مما سيعود بالخير على مواطنى الدول الثلاث وأبنائهم جيلاً بعد جيل فينهض

الحرث ويتزايد النسل فى الدول الثلاث من الجد إلى الحفيد، وإذا بدا لجنابكم الكريم أن تأخذوا برأى جوتسوى فلكم أن تعلنوا بأن اقتراح إقامة الوحدة والتحالف بين الدول الثلاث صادر عن سيادتكم، ثم إن اقتراح التنازل عن الأراضى لصالح الدولة المجاورة صادر عن جوتسوى نفسه.

لما جاء رجل إلى جوتسوى

جاء رجل إلى جوتسوى، وقال له : " إن السبب وراء قبول تشو هى لمنصب رئيس الوزراء هو عزمه على مراقبة الكيفية التى تنوى بها دولة تشين تلبية دعوة كل من دولتى "جاو " و"تسونغ " لدحر التحالف الثلاثى القائم بين تشين، وى، هان. فإذا صمدت هذه الدول الثلاث ولم تنجح معها محاولات فك أواصر الوحدة القائمة بينهما فسوف يحاول – أى تشوهى أن يدفع كل من دولتى جاو وسونغ للتحالف مع الدول الثلاث: تشى، وى، هان، المتاخمة لها من جهة الشرق، وذلك لعزل دولة تشين وحدها، ثم يقوم بعد ذلك بالإشراف على العلاقات بين كل من هان، و وى، فإذا لم تثبت أواصر الود بينهما، فسوف يعمل على استثارة دولة تشين للتحالف مع سونغ لضرب الدول الثلاث : تشى، وى، هان، ثم يتآمر على جاو وسونغ، ويكشف خططهما للدول الثلاث، فلماذا لا ترسل رسولاً إلى حكام كل من هان ووى ليبلغهما بأنه: "إذا كنتما تدبران للوقيعة بين تشين وجاو بحيث تغدر كل منهما بالأخرى فإنى أقترح عليكما قبول تعيينى مساعداً لرئيس وزرائكما، حتى يتأكد الجميع من مبلغ الود ومتانة العلاقات بين دولتى وى وهان، وهكذا فسوف تنفصم عرى الثقة بين تشين وجاو ولا تلبث أن تتخلى كل منهما عن الأخرى، وتلجآن إلى التحالف مع جلالة الملك المعظم ".

لما ذهب رجل إلى الملك ويشانغ وتحدث إليه

ذهب رجل إلى جلالة الملك ويشانغ وتحدث إليه بشأن دولة جاو التى تخشى من اندلاع الحرب بينهما، وهو ما سيعنى ضرورة قيام تشين فى السر بدعم ومساندة جاو، وبما أن جاو تدرك من الأصل عجزها عن الاشتباك فى حرب قتالية، وتخشى كذلك من تقاعس تشين عن مساندتها فهى لابد ستلجأ أولاً إلى الوحدة مع تشى، وهنا سيتبدى واضحاً ما تحاوله كل من تشين وجاو للتقرب من تشى ومخاطبة ودها، فإذا ما أقدم جلالة الملك على عزل جوتسوى عن منصبه، فلن يبقى هناك من يسعى بجد واهتمام؛ لإقامة الوحدة مع تشى، وهو ما أراه بعيداً عن الصواب، وما لم يسرع جلالة الملك بإيفاد جوتسوى لكسب تشى إلى جانبه؛ فسيأتيه بغتة خبر قيام تشين، بالإغارة على تشى وساعتئذ يخسر الملك أهم سند له وتفوت الفرصة، ولات ساعة مندم.

لما ذهب رجل إلى جوتسوى وقال

ذهب رجل إلى جوتسوى، وقال له: "إن جلالة الملك ويجاو ينهى إلى سيادتكم تزكيته لكم بإدارة الشئون العليا للبلاد فى وقت يريد فيه مساعدتكم له على إقامة تحالف مع دولة تشين تمهيداً لإرسال حملة تأديبية إلى دولة تشى، ثم إن الوالى "تيان ون" أمير إقليم شيون غدر بمليكه (ملك تشى) بعد أن هانت عليه كل الاعتبارات بما فى ذلك الولاء والشرف والمكانة وحتى الإقطاعات التى كان يملكها وقبل ذلك كله تاريخه وتاريخ أجداده الأقدمين، وهاأنت ذا - برغم ذلك - تركب رأسك وتتقاعس عن التحالف مع دولة تشى والاشتراك معها فى حملة هجومية ضد تشى غافلاً عما سيسطره التاريخ لك من مآثر لو قمت وما يمليه عليك الواجب والنبل والعرفان للقادة والأمراء والأماجد الأقدمين من بنى قومك، ثم إن تقاعسك عن الخروج مع تشين فى حملتها ضد تشى، سيثير عليك غضب المملكة العظمى وهو أمر أنت فى غنى عنه،

فاحذر الغى وارجع إلى صوابك، ولتقم من فورك وتذهب إلى ملك وى والوالى شوكون وقل لهما ما يلى:" ألتمس موافقتكما لى بالذهاب إلى تشى نيابة عن جلالة الملك، وهو ما سيجنب تشى الكثير من المتاعب التى يمكن أن تتعرض لها على يد أمراء الممالك، فإذا ما نجم عن الأمر أية أحداث طارئة فائذن لى جلالتك بالدفاع عن تشى بوصفى مندوبًا عن جلالة ملك وى، أما إذا بقيت الأحوال على ماهى عليه، فلننتظر حتى تحكم العزلة سوارها حول دولة تشين، وعندئذ تسنح الفرصة لشن حملة هجومية كاسحة عليها، ثم إنى وبرغم كونى توليت منصب رئيس وزراء دولة تشى فيما مضى فإنى لا أقبل لنفسى أن أكون عقبة فى طريق الخطة التى انتهجها جلالة الملك الإمبراطورللتصالح مع الممالك جميعًا وهو أقل ما أستطيع أن أفعله تعبيراً عن امتنانى لأفضاله الكثيرة على ؛ وهكذا فإن ذهابى إلى تشى يزيح عن كاهل جلالته كثيراً من القلق الذى ينتابه إزاء ماتمثله تشى من عقبة كؤود فى طريقه ."

لما استولت دولة جاو على الساحة المقدسة

لما استولت دولة جاو على الساحة المقدسة تكدر خاطر حاكم دولة جو وراح يبث شكوكه وهمومه لرئيس وزرائه (السيد جنشاو) الذى أنصت إليه جيداً، ثم قال له: " لاعليك ياسيدى، لاتدع هذا الأمر يشغل بالك، فأنا أستطيع أن أرد إليك الساحة المقدسة إذا أعطيتنى من الخزانة العامة خمسة عشر كيلو جرامًا من الذهب – النحاس فى حقيقة الأمر – فأجابه الحاكم إلى طلبه، فتوجه رئيس الوزراء بالذهب وتسلل خفية طلبًا للقاء كبير العرافين لدولة جاو، وتحدث إليه بشأن ساحة القرابين، ثم حدث أن أصيب ملك جاو بمرض عضال، وطلب إلى العراف الأكبر أن يطالع له أسرار البروج بشأن ما أصابه من مرض مبرح، فعاد إليه العراف وراح يلومه ويحذره من مغبة استيلائه على الساحة المقدسة، قائلاً له:" ما كان يصح الإبقاء على الساحة المقدسة التى تم ضمها والخاصة بدولة جو، ذلك لأن شيطانًا رجيمًا يتلبسها

ويبعث فساداً في الأجواء ولعله هو الذي مس جسد جلالة الملك بأذى خطير". فما كان من الملك إلا أن أصدر أوامره بالانسحاب من الساحة المقدسة وإعادتها إلى دولة جو.

لما أوصى دوها بتعيين جين تسوى

لما فكر دوها في أن يطلب إلى دولة تونجو أن تقوم بتعيين جين تسوى في وظيفة مرموقة، فقد ذهب إلى حاكم تونجو ، وقال له:" إن بلادكم يا جلالة الملك ليست فسيحة الأرجاء واسعة الامتداد، فليس مرغوباً والأمر كذلك أن تهب للأمراء والحاشية ما منحته البلاد إياك من أثمن الحلى والجواهر دون أن تتساهل في توزيع ما منحته إياك من حلى وجواهر وأحجار كريمة على الأ فراد والحاشية، بل ينبغي التروى والتدبر، ولأضرب لك مثلاً من عالم القنص وصيد الطيور؛ الذى ينصب شباكه بعيداً عن أسراب الطير سيعود في انقضاء اليوم خالي الوفاض، وحتى إذا نصب الشرك على مرأى من جماعات الطير المحتشدة، فستحلق عالياً في السماء دون أن تسلم إليه رقابها فينبغي إذن على الصياد الماهر أن يضع أشراكه في الموضعين معًا، عساه يعود بصيد وفير.

أما وإن جلالتك تريد أن تتكرم بالعطايا على كبار رجال الحاشية فربما استصغروا قيمتها إزاء ما يملكون من مغانم وثروات، ثم إنك إذا أهديتها إلى العامة والبسطاء فلن ينفعوك بشيء وقت الحاجة، أليس في ذلك إهدار للكنوز الثمينة في غير طائل؟ فمن ثم أرى أن ماينبغي على الحاكم أن يفعله هو أن يهب عطاياه لمن هلكت حظوظهم بسبب الفقر والفاقة، أولئك الذين ينتظرهم مع سوء حظهم مستقبل باهر يرفعهم فوق الناس درجات، ويتحقق بهم الأمل المنشود ."

لما توفى ولى العهد لحاكم دولة جو

لما توفى ولى العهد "كونغ" ابن حاكم دولة جو (جلالة الملك أوكونغ) وكان هو الوحيد من بين أبناء الحاكم الذى وضعته له إحدى الأميرات ذات النسب الملكى الأصيل، أما أبناؤه الخمسة الآخرون فكانوا من أبناء المحظيات وخليلات العرش، وبرغم أن الأمير كان يحبهم جميعًا ولا يفاضل بينهم فى شيء ، فإنه لم يتوصل إلى قرار نهائى بشأن ترشيح أحدهم؛ ليصبح ولى العهد الجديد، ثم إن رئيس الوزراء صاجيان ذهب إلى حاكم دولة تشو ، وقال له:" لماذا لاتسارع يامولاى بمنح ولدك كونزى إقطاعات وعطايا ملكية عامرة، ثم تتكرم عليه بالترشيح لمنصب ولى العهد خلفًا للفقيد فى دولة جو، وعندئذ، تدخل الوزير الأعظم تزوشينغ، رئيس وزراء دولة تشو؛ ليقول لرئيس الوزراء:" فماذا إذن لورفض جلالة الملك مثل هذا الترشيح ؟، ألاتحبط خطتك عندئذ وتجد نفسك فى موقف مشين، ألا يمكن أن تكون نتيجة مثل هذا الرأى أن تتوترالعلاقات بين دولتى تشو و جو الشرقية ؟، خذ برأيى واسمع نصيحتى واذهب إلى جلالة الملك الأعظم حاكم جو واسأله عمن يفضل أن يرشح لمنصب ولى العهد، على أن يهمس بذلك سرًا فى أذنيك ثم تنقل إلى رغبة جلالته كى أبلغها إلى حاكم تشو، أما إذا بلغك أن حاكم جو ، يرغب فى تعيين الأمير كونزرو وليًا للعهد، فماعليك إلا أن ترسل رسولاً بهذا الخبر لرجال بلاط تشو ؛ ليقول لهم : "إن حاكم تشو يبدو وكأنه يفضل من جانبه أن يكون ولى العهد الجديد هو كونزرو غير أنه من المؤسف أن هذا الأمير بالذات هو أكثرالأمراء عنادًا وجموحًا، ولعله إذا مابلغ سدة الحكم واعتلى العرش الملكى أن يضر بالعلاقات بين البلدين ". ثم إن حاكم تشو تمكن بهذه الطريقة، من أن يحول دون تنصيب كونزرو وليًا للعهد.

لما أغلقت الدول الثلاث الطريق

قامت الدول الثلاث : هان – جاو – وى بإغلاق الطريق العام بينها وبين دولة تشين، وكان حاكم جو ينوى إرسال رئيس وزرائه فى مهمة رسمية إلى تشين، ثم إنه خشى ألا تلقى هذه الزيارة الرسمية الحماس اللائق من جانب تشين، مما يعد إهانة واستصغارًا لشأنه، فأصدر قراره بإلغائها.

وجاء لرئيس الوزراء من قال له:" من الصعب يا سيدى التكهن بما إذا كانت دولة تشين ستلقى زيارتكم بالتوقير أو بالتحقير، وعلى أية حال فالأمر الشائك والمهم بالنسبة لـ "تشين" فى هذه الأيام هو معرفة الصورة الحقيقية للأوضاع فى الدول الثلاث، وهكذا فإذا أسرعت من فورك للقاء حاكم تشين وألمحت إليه أن بإمكانك مراقبة أحوال غرمائه واستطلاع دخائلهم لتفتح عينيه على ما خفى عنه من خباياهم فلابد أنه سيولى زيارتك كل تقدير، وهوماسيجد صداه من اهتمام بالغ بدولة جو الشرقية، مما يفتح لها الطريق لأن تكسب تشين فى صفها. وأنت تعرف أن دولة تشى تولى جو الشرقية كل احترام وتقدير وهو مايعطى تشى حجمًا هائلاً من الثقة بين الدول وهو الأمر الذى يجعل جو الشرقية قادرة باستمرار على الحفاظ على علاقات متينة مع الدول الكبرى ".

لما هرب تشانغ تو من دولة جو الغربية

لما هرب " تشانغ تو " من دولة جو الغربية إلى جو الشرقية وقام بإبلاغ الشرقيين بدقائق وتفاصيل الأحوال والأسرار فى جو الغربية اغتبط كثيرًا حاكم الدولة الشرقية، بينما وقعت الهموم والأحزان فى نفس الحاكم الغربى، ثم إن الوزير الأعظم فنغ تشى (وزير دولة جو الغربية) ذهب إلى جلالة الحاكم، وقال له:" أستطيع يامولاى أن أخلصك من تشانغ تو بتصفيته جسديًا فوافق الحاكم وأعطاه ثلاثين أوقية من الذهب الخالص (النحاس فى ذلك الوقت)، وكانت حيلة الوزير تتمثل فى بذر الشقاق بين تشانغ تو وحلفائه الجدد ومن ثم فقد أرسل رسولاً يحمل فى طى الخفاء خطابًا قصيرًا مرفقًا بالثلاثين أوقية المشار إليها آنفًا، وذلك لإرسالها لـ "تشانغ تو" وكان الخطاب يحوى هذه السطور:" حضرة المحترم / تشانغ تو، تحياتنا المخلصة، نود إبلاغكم بأن مهمتكم فى سبيلها إلى التنفيذ حسب الخطة المرسومة بدقة ، فقط نريد منكم الالتزام الحرفى بأدق التفاصيل، فإذا وجدتم الظروف غير مواتية ، فالرجاء الإفلات سريعًا والهرب بكل وسيلة ممكنة، وإلا حدث مالا تحمد عقباه وأصبحتم

عـرضــة للـخطر الداهـم والمحــقق ". ثم إنه أرسل من توجــه ســريعًــا إلى رجــال الاستخبارات بدولة جو الشرقية ؛ ليبلغهم القول بأنه قد عبر إلى حدودكم اليوم أحد أخطر العمـلاء على الإطلاق وهو مـايعنى سـرعة القبض على تشانغ تو والتـحفظ عليـه لحين الحكم بإعدامه.

لما ساءت العلاقات بين دولة جو والوزير

حدث أن سـاءت العلاقات بين دولة جوالشرقية وبين الوزير جاوجيان من دولة تشـو، فـذهب رجل وقـال لـ "جـاوجـيـان" : "أريد أن أضـع لك خطة سـرية" ، فـسـأله جاوجيـان : "بخـصـوص أية مـوضـوع تضع تلك الخطـة ؟، "فأجابه الرجل :" قد بلغت الكراهية مبلغها بين دولتى جو الشرقية والغربية، وهكذا فقد دأبت الدولة الغربية على زرع بذورالشقاق بين الدولة الشرقية و دولة تشـو لإيقا ع الفتنة بينهما، ولابد أن الدولة الغربية سترسل من يقوم باغتيالك غدرًا وغيلة، وذلك للنيل من سمـعة جو الشرقية، ثم يشتعل لهـيب الفتـنة بين الدولة الشـرقية وحاكم تشو"، وهنا رد عليه جاوجيان بقوله : " نعم، إنى أخشى حقًّا أن تطولنى يد الغدر من جو الشرقية ".

لما قام يانجون بالتحريض على الاغتيال

حـدث أن قام يانجـون بتـحـريض هوتشـين على اغـتـيال رئيس وزراء دولة هان، وكان من بين المشـاركين يانغ شـو (نائب هوتشـين)، فلمـا كان الرجلان مـارين بدولة جـو الشرقية قـام الحـاكم بالتـحـفظ عليـهما لمدة أربعـة عشـر يومـًا، وبعد انقـضـاء هذه المدة، أطلق سراحـهما وأركبـهما عربة تقودها أربعة خيـول، وأرسلت دولة هـان إلى جو الشرقية احـتـجـاجـًا رسـميًـا على هذا التـصـرف، ممـا أثار شـعورًا بالقلق لدى البـلاط الحـاكم، وعندئذ تقدَّم أحـد ضـيوف الدولة الرسـميين إلى حـاكم جـو الشرقية باقتراحـه قـائلاً :" أرى ياسولاى أن تذهب مباشـرة للقاء رسـول دولة هان، وتقـول له بنفسك : إن

جلالتك تعلم علم اليقين أمر خطة الاغتيال التى أعدها يانجون بالاشتراك مع يانغ شو، وهو مادفعك إلى إصدار الأوامر بالتحفظ عليهما طوال الأربعة عشر يومًا انتظاراً لما يفد إلينا من جانبكم بشأن التصرف معهما،أما وأننا دولة ضئيلة المساحة ضعيفة الشأن بين الممالك، فلم نكن نملك أن نبقى طرفنا قتلة مأجورين فأنتم تعرفون جيداً مدى مايمكن أن يصل إليه ذلك من عواقب وخيمة ، أضف إلى ذلك أن بلادكم تلكأت كثيراً فى إرسال مبعوث فى هذا الشأن، فما كان منا،إلا أن قمنا بترحيلهم خارج البلاد ."

سجل جو الغربية

لما قام شوكون بقيادة قوات دولة تشى

قام شوكون بقيادة قوات دولة تشى فى غزو دولة تشو ذلك دفاعًا عن دولتى هان و وى ، ثم إنه قام فيما بعد بعقد ميثاق الوحدة مع كلتا الدولتين وشن هجومًا كاسحًا على دولة تشين الكبرى، فلما تم له ذلك توجه إلى دولة جو الغربية وطلب منها مددًا من القوات والمؤن والحبوب وذهب إليه "هان تشين " أحد وزراء دولة جو الغربية، ليقول له باسم البلاط الحاكم :" ها أنت ذا قد استخدمت قوات دولة تشى فى غزو تشو دفاعًا عن كل من دولتى وى وهان وبلغنى أنك قضيت تسع سنوات كاملة فى محاولة ضم الأراضى الواقعة شمال مدينتى وان و يه مما كان من أثره ازدهار قوة وى وهان، وهذا بالإضافة إلى أنك ستضاعف من حجم قوتهما عندما تكسر لهما عدوتهما اللدود تشين، وهكذا ستصبح كل من وى وهان غدًا وقد صفا لهما الجو فى الجنوب، وإذ قد تخلصا من الخطر الداهم الذى كانت تمثله دولة تشو واستراحا من الكارثة المحدقة بهما فى الغرب والتى كانت تتمثل فى دولة تشين، وخلاصة ذلك كله أنهما ستغدوان وقد امتدت حدودهما إلى آفاق بعيدة، وتضخمت هيبتهما بين الممالك، مما سيعود على تشى بالوبال، إذ تفقد ما كان لها من سطوة معهودة أما علمت أن لكل أمر بدءًا ومنتهى، وازدهارًا وانحسارًا، وأن الأدوار بينهما متعاقبة ، وأن لكل نجم سطوعًا وأفولاً، ولكل منهما أوان معلوم، وأشعر فى قرارة نفسى بالقلق لأجلك، ولاأرى لك إلا أن تعقد الوحدة بينك وبين تشين وتتخلى عن فكرة مهاجمتها ولا داعٍ أن تذيع على الملأ حاجتك إلى المؤن والحبوب، فيعرف الناس نقطة ضعفك، ويكفيك أن تنزل بجنودك على مضيق "هانيو " دون اقتحام حدود الدولة، واترك لنا مهمة الذهاب

إلى حاكم تشين بالإنابة عنك، لنقول له ما يلى نصًا: " إن شوكون يملك القدرة على سحق تشين، وأنه يستطيع أن يجعل عاليها سافلها إظهارًا للمقدرة الفائقة التى تحوزها كل من هان و وى وليس له غرض من ذلك كله سوى أن يطلب من جلالتك التنازل لدولة تشى عن قطعة أرض تقع شرق البلاد. ولابد أن جلالته، سيفرج عن ملك تشو المعتقل لديه فى الحبس ويكلمه بشأن تسوية هذا الموضوع. فقط أرجو منك أن تدعنا نتصرف على هذا النحو كى نحفظ لـ "تشين" كرامتها، بحيث تبادر هى إلى تسوية مسألة الأراضى الشرقية مع دولة تشو تفاديًا للوقوع فى أهوال لاحصر لها، فإذا أطلق سراح حاكم تشو فلا بد أنه سيشعر ببالغ الامتنان نحو دولة تشى. أما هذه الأخيرة فإنها عندما تحصل على الأراضى الشرقية فستهدأ كل الاضطرابات ولسنوات طويلة قادمة. وبالطبع فإن دولة تشين ليست بالبلد الضعيف ولا يمكن الاستهانة بقدراتها، فهى تقع إلى الغرب من الدول الثلاث : جاو، وى، هان ، وهم جميعًا حريصون على إبداء كل احترام وتقدير نحو دولة تشى." وهنا أجاب شوكون قائلاً فى عبارة قصيرة واضحة: " إذن، فليكن الأمر على هذا النحو "، ثم إنه أصدر أمرًا إلى قوات الدول الثلاث : جاو، وى، هان بالامتناع عن مهاجمة دولة تشين والتوقف الفورى عن مناشدة دولة جوالغربية تقديم أية معونة سواء بالجند أو بالإمداد أو التموين.

لما قهرت دولة تشين جيش القائد

بعد أن تغلبت قوات تشين على جيش القائد شيوو قائد قوات دولة وى فى موقعة "إيجيو " تقدمت فى طريقها للهجوم على دولة جو الغربية، وفى تلك الأثناء ذهب رجل من طرف حاكم جو لمقابلة ليشوى (دولة جاو) ، وقال له : " أرى أن الأفضل لكم أن تحولوا بين تشين وهجومها على جو الغربية، ذلك أن الخطة المرسومة بدقة فى دولة جاو تقوم على فكرة واضحة ، ألا وهى دفع كل من تشين ووى للاشتباك فى حروب متصلة بينهما، فإذا قامت تشين الآن بالهجوم على جو الغربية فسيكلفها ذلك

التضحية بجنودها الذين سيسقطون بالمئات بين جريح وقتيل وحتى إذا تم لها النصر، فلن تتمكن من معاودة المناوشات مع وى مرة أخرى، أما إذا لم تظفر بالانتصار فستجد أمامها طريقًا واعدًا بالفوز على وى، بينما تقبع خلفها دروب موحلة بالخزى والعار على إثر الهزيمة فى جو الغربية، ولكثرة ما غاصت أقدامها فى حمأة الهوان، فلن تجد الطاقة على مواصلة الهجوم على وى، فإذا حاولت الآن أن تحول دون قيام تشين بالهجوم على جو الغربية فإن التوقيت يساعدك كثيرًا، خاصة أنه لم تجرِ أية مفاوضات للمصالحة بين وى وتشين،أما إذا قامت دولة جاو بإقناع تشين بالتراجع عن مهاجمة جو الغربية فلن تملك إلا أن تستجيب لها، وهكذا تقوم تشين بسحب قواتها ويهدأ الاضطراب فى أرجاء جو، وعندئذ فلابد أن قوات تشين المنسحبة ستتجه فورًا لضرب وى، التى لن تملك وقتها القوة الكافية لدرء العدوان، ومن ثم ستلجأ إليك أنت لإجراء مفاوضات الصلح وهكذا تتأكد أهمية دورك ويسطع نجمك لامعًا فى الأجواء، أما إذا لم تركن وى للصلح، وآثرت المقاومة بكل طاقتها، فلا بأس إذن، لأنك ستكون قد جنبت جو الغربية الخطر الداهم، وبذرت الطمأنينة فى أرجائها،بما أشعلت من فتيل للحرب بين وى وتشين، وهو ما يعنى أن دولة جاو ستحوز فى قبضتها كل مقاليد السطوة والسيادة بين الممالك."

لما أوفدت دولة تشين الأمير شوليجى

أوفدت دولة تشين الأمير شوليجى لقيادة موكب رسمى يتكون من مائة عربة عسكرية فى زيارة إلى جو الغربية، فخرج إليه حاكم "جو" على رأس مائة جندى لاستقباله بترحاب واحترام وتقدير. وما إن وصلت هذه الأنباء إلى الملك "هواى وانغ" حاكم تشو حتى تملكه الغضب الشديد وراح يندد بدولة جوالغربية تحت دعوى المبالغة فى إظهار الحفاوة لضيوفها من دولة تشين، ثم إن الوزير الأعظم بدولة جو الغربية ذهب للقاء حاكم تشو، وقال له: "أتعرف يامولاى أن الملك جيبو حاكم إحدى الممالك القديمة لما أراد أن يجرد حملة تأديبية ضد إحدى مقاطعات الشمال التى تدعى

"شودى" فإنه قام ذات يوم بإرسال عربة حربية كبيرة إليهم ووضع بداخل العربة ناقوسًا نحاسيًّا كبيراً، وأمر بخروج الموكب بصحبة كتيبة الشرف التى اصطف أفرادها جميعًا وساروا فى احتفال مهيب خلف العربة، وحدث أنه عندما وصلت العربة إلى غاية الطريق انفجرت وتطايرت معها أشلاء قبائل الشمال، وكان السبب فى ذلك قلة الاحتراس والحذر، هذه واحدة. وواحدة أخرى عندما أراد حاكم تشى أن يجرد حملة لتأديب دويلة "تساى" فقد كان السبب المعلن وقتها هو مجرد غارة تأديبية لاغير، ثم اتضح أن الغاية الحقيقية كانت تتمثل فى عملية اجتياح شامل لأراضى تساى. وقد صارت تشين فى وقتنا الحالى تتلمظ كالأفعى، وتفترس كالسبع، تتطلع إلى اليوم الذى تلتهم فيه المجد الإمبراطورى لدولة جو، وهكذا فإن ذهاب موكب المائة عربة، تحت قيادة الأمير شوليجى إلى دولة جو قد أثار فزع الحاكم، وأراد أن يأخذ عبرة من الدرس الماثل فى تجربة تساى وقبائل الشمال، لذلك فقد أرسل من جانبه موكبًا يتقدمه حملة الحراب يتبعه حملة السهام، حيث يبدو الأمر ظاهريًّا كأنه موكب حرس تشريفى يليق بزيارة كريمة، لكنه فى حقيقته إجراء وقائى، يتحسب للخطر ويترقب بعيون الحذر والحيطة كل ما يمكن أن تأتى به المفاجآت، وذلك هو التصرف اللائق برجل يحب بلاده ويخشى على قومه من خطر الغزو والاستلاب، وهو الأمر الذى كان يعمل له ألف حساب ". وكان لهذا الكلام أثر طيب فى نفس ملك تشو.

لما قامت دولة تشو بتطويق يونغ سى

أثناء الحصار الذى ضربته دولة تشو حول مدينة يونغ سى بدولة هان، قامت هذه الأخيرة بتجنيد الأفراد وإرسالهم إلى دولة جو الغربية لسرعة نقل الحبوب المطلوبة ؛ وهنا وقع الاضطراب فى نفس حاكم جو وتحدث بهموم قلبه إلى سوداى الذى قال له:" فيم القلق يامولاى، دع لى الأمر، وأنا أستطيع أن أقنع دولة هان بالإقلاع عن إرسال جنودهم لنقل الحبوب، بل أستطيع أن أحصل لك على مدينة كاودو بدولة هان"، فاغتبط ملك جو بهذا الكلام جداً ، وقال:" أعدك لو استطعت تنفيذ ذلك، أن تكون أمور

الدولة الكبرى تحت إشرافك ". وذهب سوداى للقاء كونجون، رئيس وزراء دولة هان؛ ليقول له:" ألم تسمع بخطة دولة تشو؟، أما عرفت أن جاويين قائد جيوش دولة تشو قد التقى بجلالة الملك ؟ ، وقال له:" إن هان قد أنهكتها الحرب وفرغت من صوامعها الغلال، ولم تعد تستطيع الدفاع عن مدائنها، ونستطيع الآن أن ننتهز فرصة تفشى المجاعات فيها؛ لنستولى على مدينة "يونغ سى "، وإنى لعلى يقين من أنها لن تصمد أكثر من شهر واحد فقط أمام هجومنا، وها قد مضت الآن خمسة أشهر ولم تسقط المدينة، مما يعنى أن دولة تشو قد أصبحت فى موقف صعب للغاية، حتى إن جلالة الملك لم يعد يثق فى خطة كبير قادته، وهكذا فإن تجنيدك للأفراد وذهابك إلى جو الغربية لنقل الغلال، معناه أنك تريد أن تقول لملك تشو أنك نصيره وقت الشدة، فإذا بلغ هذا الخبر إلى مسامع القائد جاويين فلابد أنه سينصح لحاكم تشو بتعزيز قوات الهجوم للاستيلاء على يونغ سى"؛ فأجابه كونجون :" نعم، هذا صحيح ، لكن المشكلة أن الرسول الذى أوفدته إليه قد انطلق مبكرًا، ولابد أنه قد أوشك على المثول بين يديه ". فعاد سوداى يقول له: "ولماذا لاتتنازل عن كاودو لدولة جو الغربية ؟"، وهنا ظهر الغضب على وجه كونجون وهو يجيب :" ألايكفى أن أمتنع عن إرسال جنودى وأن أتراجع عن طلب الغلال، فلماذا ينبغى أن أعطيهم مدينة كاودو؟"، فقال له سوداى : " لأنك إذا أعطيتهم كاودو، فلن يتأخر ملك جو عن إظهار أسمى آيات الولاء لـ"هان"، وإذا وصل هذا الخبر إلى دولة تشين فستقوم الدنيا ولاتقعد، ويستشيط البلاط الحاكم غضبًا ، بل يعمد إلى الاتفاقية الموقعة بينه وبين جو، ويطرد السفراء والرسل، ولن تكون قد فعلت أكثر من التنازل عن مدينة متهالكة مقابل حاضرة مزدهرة بالعمران، فما الذى يمنعك أن تبادر إلى هذا التصرف ؟ "، فأجابه كونجون:" نعم الرأى ما قلت "، ثم إنه تراجع عن فكرة إرسال حملة عسكرية لنقل الغلال من جو الغربية، بل سلم إليها مدينة كاودو، وهكذا لم تستطع قوات دولة تشو آخر الأمر أن تستولى على يونغ سى، فوضعت السلاح وانسحبت عائدة من حيث جاءت.

لما أراد حاكم جو أن يقوم بزيارة

أراد حاكم جو أن يقوم بزيارة إلى دولة تشين، فذهب إلى رئيس وزرائه جوتسوى الذى قال له:" أرى يا سيدى أن الأفضل من الزيارة هو أن تقنع جلالة الملك بأن يرسل إلى حاكم تشين قصيدة يمتدح فيها خصاله الكريمة وعظيم امتنانه ووفائه (حرفيًا : طاعته لوالديه) ثم يقوم بإهداء قطعة أرض واسعة من إقطاع "إيندى" إلى السيدة حرمه، فهذا من شأنه إدخال السرور على قلب الحاكم وزوجه، وهوالأمر الذى يفتح له عقل وقلب حاكم تشين، ويشيع فى نفسه الرضا والعرفان والتقدير، فتتوطد أواصر الصداقة بين البلدين، ولابد أن جلالة الملك سيعزو إليك الفضل فى هذا الشأن، أما إذا ساءت العلاقات، فسيذكر الملك أنك كنت أول من رفض فى أول الأمر قيامه."

لما ذهب سولى إلى حاكم جو

ذهب سولى إلى حاكم جو، وقال له:" كان القائد العسكرى المحنك لدولة تشين، ذلك المدعو "باى تشى " هو الذى دحر كلاً من دولتى هان و وى، وأجهز على قائد قوات هان،واقتحم أسوار دولة جاو واستولى على المدن الثلاث: لين، ليشى، تشى فهو بحق، قائد محنك عركته التجارب وألهمته المقادير،ولئن كان يستعد اليوم للهجوم على وى، فلابد أنه مقتحمها ومحطم أنفها فاذا ماسقطت وى، صارت جوالغربية فى خطر داهم، فليت جلالتكم تقنعه بالعدول عما هو مقبل عليه، فابعثوا إليه بمن يقص عليه الحكاية التى تقول:" كان فى قديم الزمان رجل بدولة تشو يدعى "يانيوجى "، اشتهر بالبراعة فى الرماية، بحيث يصيب وريقة الشجرة وهى على بعد مائة متر أو يزيد، فلم تخطئ له رمية قط، حتى كانت الناس من حوله تتعجب من دقة التصويب والرمى، وذات يوم مر به رجل غريب ابن طريق، فقال له:" أراك ماهرًا فى الرماية حقًا، فلا بأس من أن أعلمك بعض الأشياء المفيدة فى الرماية فتعجب يانيوجى من هذا الكلام،

إذ كيف يراه هذا الرجل مجرد تلميذ ذى مؤهلات طيبة فى الرماية، بينما هو فى الواقع أبرع الرماة جميعًا وتقدم من الرجل وأعطاه القوس والسهم وطلب إليه أن يعلمه شيئًا من فنونه، فرد عليه بقوله أنه لايجد فائدة من تعليمه جذب السهم بالذراع اليمنى والصمود بالذراع اليسرى كالمعتاد فى فنون الرماية ؛ لأن الرامى يتعلم كيف يصوب سهامه نحو الهدف مائة مرة، لكنه لايتعلم مرة واحدة، كيف يتوقف عن الرماية، حتى إذا كلت ذراعاه عن الضرب طاشت كل سهامه هباءً، وضاعت محاولاته سدىً، وهكذا فإن سحق هان، ووى، وذبح القائد شيوو، والزحف نحو الشمال للهجوم على دولة جاو والاستيلاء على المدن الثلاث: لين، ليشى، تشى، كل ذلك كان من مآثرك التى بلغت حداً لامزيد عليه، وهأنت الآن تقود جيش تشين فى حملة هجومية هائلة تخترق فيها حدود كلٍّ من جو الغربية والشرقية؛ كى تتقدم صوب هان،وتشين غارات على داليان، فماذا لو اقتحمت كل تلك الأهوال، دون أن تحقق نصراً واحداً ؟!، أليس ذلك من سوء التصويب والتقدير، لذلك أرى أن تتعلل بالمرض وتعتذر عن قيادة الجيش فى حملة الهجوم على وى."

لما رابطت قوات دولة تشو

رابطت قوات دولة تشو جنوب إيجيو، وفكر القائد العام للقوات "أودا" فى أن يقوم بتصرفات استفزازية بقصد إغاظة حاكم جو. وذهب إلى الحاكم من قال له : "أرى يامولاى أن أفضل إجراء فى هذه الظروف هو أن تصدر قراراً بتكليف أحد الأمراء بالذهاب مع القائد العام إلى منطقة الحدود المتاخمة لجبل إيجيو، وذلك لمقابلة قائد قوات تشو "أودا" كما، أقترح أن تذهب جلالتك بنفسك إلى ضاحية المدينة لملاقاته، كى يرى الناس جميعاً ويشهدوا بعيونهم مدى التقدير الذى قوبل به "أودا" من قبل جلالة الحاكم، وإمعانًا فى إظهار هذا المعنى، أرى أن تصرح جلالتك بما يفيد بأن كل ما ستتكرمون به من عطايا للقائد "أودا" ستكون له قيمة الكنوز الثمينة، ولابد أن حاكم تشو سيفكر فى الحصول على تلك العطايا وسيعمل بكل جهده على تسلمها من

قائد جيوشه، إلا إنه سيفاجأ بأن هذا الأخير لم يحصل على شيء ذى قيمة، وبالتالى فلن يجد معه سوى صناديق خالية، وعندئذ سيصب جام غضبه عليه ويلومه على غفلته وقلة فطنته."

لما تقدمت دولة تشو بطلب رسمى

تقدمت قوات دولة تشو بطلب رسمى إلى كلٍ من جو الغربية والشرقية، ترجو فيه السماح لجيشها بالمرورعبر الطريق الوحيدالذى يتخلل أراضيها، وذلك بغرض التوجه لشن حملة هجومية على كلٍ من وى وهان. وأسقط فى يد حاكم جو واعتصرت قلبه الهموم، بينما هو على تلك الحال، إذ دخل عليه سوتشين، وقال له: " لاشك أن دولتى وى وهان، لن تقبلا منك إعارة الطريق لقوات الغزو، وسيقع فى روع كل من تشى وتشين أن قوات تشو إنما تريد أن تستولى على الكنز الإمبراطورى المقدس والكائن ببلاط أسرة جو الحاكمة، ولابد أنهما ستتحدان لدعم وى وهان فى صد اعتداء قوات تشو عليها. والحقيقة أن قوات تشو لن تستطيع حماية المناطق الجبلية الشمالية، أضف إلى ذلك خطورة أخرى تتمثل فى إقدامها على العبور بقواتها من طريق يتوسط بلدين، وأرى أنه مالم تتآزر الدول الأربع: هان، وى، تشى، تشين، وتتحد أياديها فى قبضة ضاربة تتوجه بكل قوة لتضرب فى قلب تشو، ومالم يحدث ذلك؛ فإن جلالتك مضطر إلى تسليم الكنز الإمبراطورى الأقدس إلى قوات تشو، وإلا جاءتك هى بنفسها لتنتزعه منك انتزاعًا."

لما ذهب رئيس وزراء جو للقاء الملك

ذهب" سيكوانبو " (رئيس وزراء دولة جو) للقاء جلالة الحاكم ليبلغه عن جوتسوى مقالة، نصها :" إن جلالتك قد أبلغت حاكم تشى باعتذار جوتسوى عن تولى منصب" أمير الدولة " ورأيى يا مولاى أن مثل هذا التصرف قد حاد عن جادة

الصواب. وقد قيل إن أحد خبراء المعادن القدماء قد اشترى سيفًا للأمير "تايكون " أمير دولة تشى، إلا أن هذا الأخير لم يقدر هذا السيف حق قدره، وكان ذا جودة فائقة يكاد يندر مثيله فى الممالك؛ فأعاده إلى الرجل واسترد نقوده، وتصادف أن مر بهما أحد عابرى السبيل، فأراد أن يشترى السيف وعرض لذلك ألف عملة ذهبية إلا أن خبير المعادن رفض البيع بحجة أن المبلغ المعروض أقل كثيراً من المطلوب، فلما كانت سنو حياته الأخيرة ودنت منه المنية، أشار الخبير إلى ابنه بالاقتراب منه، ثم مال على أذنه، وقال له:"لاأريد أن أموت دون أن يعرف الناس قيمة هذا السيف". ولئن كنت اليوم يامولاى، تريد أن تنصب جوتسوى أميراً، فلا أحد غيرك يعرف هذا الاتفاق وليس من أى مخلوق آخر على وجه الأرض يمكن أن يصدق مثل هذا القول، وأكثر ما أخشاه أن يظن ملك تشى أن جلالتك لاتبغى حقًّا إلا أن تنصب كونزى أميراً ، وأنكم تلجأون إلى هذا القول فقط لترويع جوتسوى ومن ثم إلى خداع وتضليل دولة تشى. وحتى إذا قيل إن جلالتكم إنما تخططون لأمر ما فى طى الخفاء، أو أن جوتسوى يملك هو الآخر ترتيبات وحسابات غير معلنة فلماذا يا مولاى، لاتدع الناس يرون جانب الحق ووجه الصدق فى الموضوع كله؟ إذ إنه لم يكن أحد غير جوتسوى هو الأكثر رعاية وإخلاصاً لأبيه الملك، فلماذا لاتذيع على الناس الحقيقة بوضوح تام؟".

لما أرسل ملك تشين فى استدعاء الحاكم

أرسل ملك تشين فى استدعاء حاكم جو الغربية فتلكأ هذا وماطله دون أن يلبى دعوته، فذهب إلى حاكم وى من تحدث إليه على لسان حاكم جو الغربية، قائلاً :" إن الغرض من استدعاء ملك تشين لحاكم جو الغربية يتمثل فى محاولة دفع هذا الأخير لمهاجمة منطقة نانيانغ فى وى، فلماذا لاترسل جلالتكم حملة عسكرية إلى هنان ؟، ويقينى أن حاكم جو الغربية ما إن يسمع بخروج حملة من وى إلى هنان حتى يجد العذر المناسب لرفضه الذهاب إلى دولة تشين، وهو الأمر الذى يرد تشين عن عبور المجرى المائى للنهر الأصفر لمهاجمة نانيانغ".

لما انتصر قائد تشين

انتصر "باى تشى " قائد قوات تشين على "شيوو" القائد الأعلى بدولة وى، ثم ما لبث أن اقتحم أسوار جو الغربية، فذهب حاكمها إلى دولة وى يطلب النجدة فتعلل حاكم وى بحساسية الموقف فى مقاطعة شاندانغ، فلما كان حاكم جو فى طريق العودة إلى بلاده شاهد مدينة "ليانغيو" فوقعت فى قلبه موقعًا حسنًا، وهنا قال له الوزير الأعظم "تشيمو هوى": "أراك معجبًا بالمدينة يامولاى، لكن دعنى أقول لك إن مدينة "ونيو" لاتقل روعة عن هذه، ثم إنها أقرب كثيرًا إلى حدودنا وأستطيع أن أضمها إلى أراضينا إذا وافق مولاى. وعاد الوزير الأعظم، وذهب للقاء ملك وى،الذى ابتدره قائلاً : "أنتم قوم تكرهوننى، وملككم يبغضنى كثيرًا ولا أدرى لماذا ؟"، فأجابه الوزير: " هذه مجرد ظنون يامولاى ، والحق أن مليكنا لايحمل لك أية ضغائن، بل العكس فنحن جميعًا نهتم بأمورك وتنشغل أفكار قلوبنا بأحوالك، ومثلاً فإن أمير البلاد وهو واحد من دهاة الحرب كما تعرف، قد بذل كل ما فى وسعه لصد اعتداء وشيك كانت تشين تزمع أن تقوم به ضد بلدكم، هذا بون أن تظهر من ملك جو أية إشارة أو رغبة فى مقاومة العدوان، ولا أرى إلا أنه يريد أن يسلم البلد جميعه إلى دولة تشين، وهكذا فإذا حشدت تشين جنود كتائب الحراسة (حراسة سور الصين) ، وألبت عليك فلولاً من شعب جو ، واقتحموا جميعًا مدينة "نانيانغ " فسينغلق الطريق بين كل من وى وهان".

وهنا سأله ملك وى :" فما العمل إذن ؟"، فأجابه الوزير:" إن الظروف المحيطة بحاكم جو دقيقة للغاية، فهو يجد نفسه فى مأزق لايجد مخرجًا منه إلا أن يصانع دولة تشين، فإذا وافقت يامولاى على إمداده بثلاثين ألف مقاتل لحراسة الحدود وأهديته مدينة "ونيو" فستمنحه أسبابًا كافية لدعم آرائه أمام رجال البلاط والحاشية جميعًا، وستتنزل عليهم فرحة غامرة بحصولهم على "ونيو" ثم إنهم سيتراجعون عن فكرة الاتحاد مع دولة تشين. وكنت سمعت بأن دخل "ونيو" يبلغ فى العام ثمانين وزنة ذهب، فإذا تسلمها منكم حاكم جو فلا بأس من أن يمنح ملك

الممـالك كل عام مـائة وعشرين وزنة مقابل الحصول عليها. وهكذا تزول أسباب الكدر وتحصل يامولاى فى كل عام على أربعين وزنة ذهب". وهنالك أصدر حاكم وى أمرًا لوزيره منغ ماو بتسليم "ونيو" إلى حاكم جو، مع الموافقة على إمداده بقوات للمعاونة فى تأمين الحدود.

لما تشاورت الدولتان وى وهان

تشاورت الدولتان وى وهان بشأن تبادل الأراضى بينهما، واتضح أن مثل هذا التبادل لو تم، فلن يكون فى صالح جو الغربية، وعلى الفور توجه "فانيو" الوزير الأعظم لدولة جو، لمقابلة حاكم تشو، وقال له: "لاأرى فيما يحدث إلا الهلاك المحقق لـ "جو"، ذلك أن تبادل الأراضى بين وى وهان سيسمح للأخيرة بالحصول على مقاطعتين، بينما تخسر وى اثنتين أخريين مقابلهما، أما السر فى موافقتها على مثل هذا التبادل، رغم خسارتها الواضحة لجزء من أراضيها، هو أنها ستتمكن تمامًا بعد التبادل من أن تكون فى موقف يسمح لها بتطويق كلٍّ من جو الشرقية والغربية، وهكذا فإن ما ستحصل عليه وى مستقبلاً يعد أكبر مساحة وأكثر أهمية من المقاطعتين، أضف إلى ذلك أن الإرث الإمبراطورى المقدس سيصبح على مرمى حجر من أراضيها. هذا طبعًا، بجانب ميزة تتوافر لها بامتدادها فى مناطق "نانيانغ "، و"جن دى" و"سانشوان"، وهو مايمكنها تطويق دولتى جو، وعلى هذا تصبح المناطق شمالى مدينة فانغ بدولة تشو فى خطر داهم، ومن ناحية أخرى فإن حصول هان على منطقتى شاندانغ يجعلها فى موقع مطل على دولة جاو، وهو ما يعنى تعرض مناطق الجبل الحصينة بدولة جاو لأشأم النذر والعواقب لذا فإن نجاح الدولتين فى إتمام التبادل سيعود بأسوأ النتائج على كلٍّ من جاو وتشو حيث يفقدان وزنهما وأهميتهما بين الممالك، وهنا أسقط فى يد حاكم تشو، ثم كانت دولة جاو هى التى حسمت الموقف بعرقلة كل الجهود الرامية لإتمام صفقة تبادل الأراضى.

لما أرادت دولة تشين مهاجمة جو الغربية

أرادت دولة تشين مهاجمة جو الغربية، فقد ذهب جوتسوى للقاء الملك شاوانغ حاكم تشين، وقال له :"قد تأملت كثيراً يامولاى فى مسألة الهجوم على جو الغربية، وانتهيت إلى رأى، لو أذن لى جلالة الملك أن أبديه، هو أن مثل هذا الهجوم يبدو مستحيلاً، ذلك أن الاعتداء على بلد صغير مثل جو لن يعود على تشين بكثير نفع، بل الأسوأ من ذلك أنه ربما يمس هيبة بلادكم بين الممالك، ولعله يثير أصداء غير طيبة لدى أمراء الأقاليم وحكام الدويلات المختلفة فيجدون أنفسهم مضطرين إلى إقامة تحالفات مع دولة تشى الواقعة شرقى جو، وهو مما سيعود على تشين بأوخم العواقب، إذ تجد نفسها معزولة تقريبًا عن باقى الممالك وتسقط مكانتها ويصير تاجها الملكى اسمًا على غير مسمى، ولابد أن هناك من الأمراء من يتمنى فى قرارة نفسه أن تنشغل تشين بما ينهك قواها ويوهن صلابتها فيستحثوها على التعجيل بالإغارة على جو الغربية. وهكذا فإن استنزاف قوة بلادكم وأمرائها فى مثل هذه الحملة خليق بأن يدرأ التهلكة عن آلاف ممن يتلمسون الحياة تحت السماء ."

لما ذهب رئيس وزراء جو الغربية

ذهب "كونتو" رئيس وزراء جو الغربية للقاء جلالة الملك، وقال له فى أثناء المقابلة :" كانت دويلة "وان" دويلة تتبع هان فيما مضى تقلل من شأن دويلة "جين" اعتمادًا على صلتها الوثيقة بدولة تشين فلما اجتاحت المجاعة هذه الأخيرة، واشتد القحط بها تداعت أركان دويلة "وان" وزالت فلم يبقَ لها أثر. وحدث الشىء نفسه مع دولة "جنغ" التى لم تكن تقيم وزنًا لدولة هان مستندة فى ذلك على علاقتها بدولة وى، فلما لاقت هذه الأخيرة هزيمة نكراء إبان غزوها لدولة تساى، دب الانحلال والضعف فى دويلة "جنغ". وهكذا يتكرر المثال نفسه فى حالة كل من دولتى "جو" و"وينغ" اللتين لاقتا نفس المصير على يد " تشى " وينطبق كذلك على كل من " تشين "

و"تساى" اللتين اندكت حصونهما تحت غزو دولة تشو لهما، ويتضح هنا الطابع العام لهذه الأحداث الذى يتمثل فى ارتكان دويلات صغيرة على مساندة دول كبرى لها فى التقليل من شأن وأهمية جاراتها، مما كان له أوخم النتائج وأسوأ العواقب. أما وإن جلالتكم تسلكون الآن مسلكًا يقوم على الاستهانة بقدرات دولة تشين اعتمادًا على دعم ومساندة كل من "وى" و"هان" لبلادنا فإنى أرى فى ذلك عين الهلاك وذروة الخطر، ولاسبيل إلى تلافى ذلك إلا بأن تقوم جلالتكم بإيفاد جوتسوى، سرًا إلى دولة جاو للتحالف معها، كى يتسنى لنا مجابهة تشين، إذا لزم الأمر، ونحمى بلادنا شر التشرذم والضياع".

لما جاء رجل إلى الملك تشى

قدم رجل على ملك تشى ، وقال له:" إنى لأعجب كيف يتغاضى جلالة الملك عن التكرم بالعطايا والهبات الملكية على جوتسوى، ترقية له ودعمًا لترشيحه لمنصب أمير عرش أسرة جو الملكية؛ فما كان من الملك إلا أن أصدر قرارًا بإيفاد الوزير الأعظم "سيماهان"، إلى دولة جو الغربية حاملاً عرضًا بالتكرم على جوتسوى بالهبات والإقطاعات الملكية، تزكية لترشيحه أميرًا لـ آل "جو" فالتقى "سيماهان" بمن يدعى "زوشانغ"، وهوأحد وزراء دولى تشى، وكان أن قال له الوزير: "أتدرى أنك لو فشلت فى إقناع حاكم جو الغربية بقبول العرض الكريم من جانب بلادكم، فلن يقتصر الأمر على إحباط مسعاك وذهاب حنكتك سدى، بل سينفصم الاتحاد القائم بين الدولتين، ولا أرى لك إلا أن تبادر إلى سؤال حاكم جو، عند لقائك إياه، بما يلى " أرجو من جلالتكم إبلاغى، ولو عن طريق وسيط بيننا غير مسمى، عمن تودون ترشيحه أميرًا للعرش، كما أستأذن جنابكم الكريم فى أن أفاتح ملك تشى بشأن التكرم بالعطايا والهبات على الأمير المنتظر " ، ولما كان هذا الرأى دليلا على براعة وفطنة الوزير"زوشانغ" فقد تمت ترقيته إلى أرفع المناصب.

لما قامت حرب دول الاتحاد الثلاثى ضد تشين

لما انتهت معركة دول الاتحاد الثلاثي: هانكو، وى، تشى، ضد تشين، تحركت قوات الجيش عائدة إلى بلادها، فاستولى الخوف على جو الغربية، عندما بلغها نبأ مرور القوات المنتصرة عبر أراضيها، وهنا ذهب حلفاؤها للقاء ملك وى، وقالوا له:" إن دولتى تشو، وسونغ تنظران إلى ما قامت به تشين من تنازل عن أجزاء من أراضيها الوطنية لدول التحالف الثلاثى سعيًا لتسويات سلمية، بوصفه تصرفًا غير ذى نفع، ذلك لأن دول التحالف تريد فى الواقع أن تستولى على الدعم المقدم لهذه الأراضى لمساعدة دولة تشين". فأسقط فى يد حاكم وى، وأصدر أوامره إلى قواته العسكرية بسرعة العودة إلى البلاد بعد المبيت ليلة واحدة فقط خارج الحدود.

لما هزم القائد شيو فى معركة إيجيو

لما هزم القائد شيو فى معركة إيجيو، قررت دولة جو الغربية إيفاد رئيس وزرائها "جوتزو" فى مهمة رسمية إلى دولة تشين وقدم إلى جوتزو من نصحه بأن يبلغ الملك بصراحة ووضوح ما نصه:" إن إيفادى فى بعثة رسمية إلى تشين، يمكن أن يضر بالعلاقات الدبلوماسية بين البلدين ذلك أن من بين وزرائك يامولاى من يضع مصالح تشين نصب عينيه بأكثر حتى مما يراعى مصالح وطنه، بل يتطلع كذلك إلى أن يتولى منصب الوزير الأعظم، وأشعر بأن ذلك الشخص سوف يعمل على إيذائى بكل وسيلة ممكنة أمام حاكم تشين، لذلك لا أرى من المناسب إيفادى إلى تشين، بل أرجو أن تتفضل بإعفائى من أية زيارات رسمية إلى تشين فى ظل منصبى كرئيس للوزراء، ثم إنكم يامولاى تستطيع أن تقوم بتعيين ذلك الشخص المشار إليه فى وظيفة الوزير الأعظم، فتلك هى الطريقة المثلى التى تحول بينه وبين الإساءة إلى بلاده جوالغربية. هذا، ومن المعروف أن حاكم جو يهتم كثيرًا بعلاقاته الدبلوماسية مع تشين ، بحيث إنه يحرص على إيفاد رئيس وزرائه نفسه فى الزيارات المتبادلة بينهما، وبالتالى فلن

يستقيم أن يقوم بإعفاء رئيس وزرائه من منصبه قبيل الزيارة مباشرة، وإلا عد ذلك إهانة موجهة لدولة تشين؛ لذلك، فمن المؤكد أنه لن يعفيك من منصبك بأى حال، ثم عندما تذهب إلى تشين بعد مقالتك هذه مع الملك، فمن الممكن أن تتوثق العلاقات الودية مع تشين بأكثر من ذى قبل، بل ويصبح فى مقدورك أن تحقق المزيد من تطلعاتك وتضيف الكثير إلى نقاطك الإيجابية، أما إذا فاتك أن تنتبه إلى هذه المسألة فلربما ساءت العلاقات بين البلدين ، وساعتئذ، فقد تأتيك رياح بما لاتشتهى سفنك، ومن يدرى، فربما وصلت الأمور إلى حد النيل منك شخصيًا، فتطير رقبتك وتذهب روحك هباءً."

سجل تشين الأول

لما هرب وزير دولة وى

هرب الوزير الأعظم لدولة وى إلى تشين فتكرم عليه الحاكم بتعيينه رئيسًا للوزراء، وأقطعه أراضٍ ومتاجر، فحصل من ذلك رزقًا وفيرًا، ونصب شيخًا للتجار، فكان مثالاً للتاجر الأمين ورجل الدولة الذكى، ففرض سلطة القانون وجعل النزاهة والشرف والاستقامة طريقًا لايحيد عنه إلى نفع ذاتى أو مغنم خاص. وجعل الناس سواسية أمام أحكام القوانين دون محاباة لسليل عز أو صاحب جاه أونفوذ أوسلطان، وكافأ كل ذى فضل ومأثرة فلم يحاب - صديقًا أو ذا صلة من رحم أو مصاهرة وجعل سلطة التشريع نافذة حتى فوق ذى الرياسة والنفوذ، ولم يستنكف أن يضرب على يد مؤدب الأمير دون هوادة، فما أن مر عليه الحول فى منصبه، حتى عم الانضباط والاستقامة كل أنحاء تشين وصار الناس يتحاكون بأن المفقودات الثمينة كانت تظل ملقاة على قارعة الطريق حتى يعود إليها أصحابها يلتقطونها بأيديهم، ولو بعد أيام من فقدها، دون أن تمتد إليها يد أو تطمع فيها نفس، بالغة ما بلغت من القيمة.

وكان من جملة المآثر الجليلة أيضًا أن الجيش صار قوة ضارية، ارتعدت من هولها الممالك. غير أن الجدية والصرامة التى اتسمت بها سياسات شيخ التجار الوزير الأعظم كانت تتوسل فى تنفيذ خططها بأشد الأساليب قهرًا وتجبرًا، لم يملك الناس معها إلا الانصياع والرضوخ، فلما انقضت ثمانية أعوام لشيخ التجار الوزير الأعظم فى هذا المنصب الذى رقاه إليه جلالة الحاكم، صارت الأمور مستقرة فى كل

أنحاء تشين وفكر حاكم البلاد أن يوصى بتعيين الشيخ الوزير الأعظم خلفًا له على العرش الملكى، إلا أن الرجل استعفى واعتذر شاكرًا للملك حسن الظن به إلى هذا الحد، ثم إن الأيام مرت، ومات الحاكم، وجاء من بعده ابنه "هوى" ملكًا للبلاد، وهنا خشى الشيخ الوزير أن يلقى على يد القادم الجديد التنكيل والهوان، وفكر فى العودة إلى وى.

وذهب رجل إلى الملك "هوى" ، وقال له:" إن نفوذ الشيخ الوزير يامولاى، قد بلغ حداً لايمكن إغفاله مما يمكن أن يعرض البلاد لخطر لايعلم أحد مداه، ثم إنه أصبح محاطًا بشخصيات بارزة متنفذة، وكلهم من أشياعه المخلصين، ربما كان لهم من التأثير ما يمكن أن ينال من الشخصية، أما تجد الإعجاب بما استنه من قوانين وتشريعات مضرب الأمثال بين الجميع، بل إنك لواجد مثل هذا الإعجاب بين أفراد الحاشية أنفسهم. هذا فى الوقت الذى لايتحدث فيه الناس بمآثركم الجليلة، وكأن الأمور انقلبت رأسًا على عقب، وصار الوزير يلمع بضوء الملوك، بينما يخفت تاج العرش وينحدر إلى ما هو أقل من منصب وزارى عادى، ثم لاينبغى أن ننسى يا مولاى، أن هذا الرجل فى الأساس، لا يزيد عن كونه مجرد عدو لبلادنا وإنى لأرجو أن يتخذ جلالة الملك بشأنه التصرف اللائق على ضوء هذه الاعتبارات ".

وحدث أن فشلت محاولة تسلل الشيخ الوزير إلى وى، وأجبر على العودة إلى تشين، حيث أمر الملك بإعدامه.

لما عمل سوتشين بنصيحة قائد القطاع الغربى

لما رأى سوتشين من دولة جو الغربية أن يعمل بنصيحة " ليان هن " قائد القطاع الغربى من دولة تشين التى تتمثل فى التحريض على اتخاذ سياسات معينة، فقد ذهب بنفسه إلى جلالة الملك "هوى " حاكم دولة تشين، وقال له:" إن المرء ليطالع فى كل ركن من بلادكم أعظم المزايا وأبهى الصفات، ففى الغرب تترامى مساحات

شاسعة من الأراضى الخصبة فى الدويلات الثلاث التابعة لكم: يان، شو، هان وفى الشمال تتوافر أفضل أنواع الجلود وأرقى سلالات الخيول، أما فى الجنوب فترتفع سلاسل جبال "أوشان " بموقعها الجغرافى الدفاعى المنيع، مثلما يوجد فى الشرق أيضًا وادى "هانجو" و تلال "شياو" التى تقف كحاجز صلب ضد أية محاولات للتسلل الهجومى إلى الداخل، هذا بالإضافة إلى وفرة المحاصيل وكثرة الأيدى العاملة وتوافر القوات.المدربة والمعدات الحربية، ومصادر الثروة والتطور والعمران، وطبيعة الأرض بحسب صلاحيتها للظروف الدفاعية والهجومية، الأمر الذى يمنح البلاد ميزة سياسية هائلة. ومن ثم فإن جلالتكم تملكون فرصًا مواتية لضم أراضى الممالك المجاورة خصوصًا أن تحكم شعبًا مطيعًا وقادة نجباء، وبقلوبكم أوعية الحكمة وبواطن الفطنة والكياسة، مما يرفع تاجكم فوق الأمم جميعًا سيدًا للممالك. ولتأذن لى جلالتكم فى تحليل مزايا الموقع الجغرافى وأحوال الاستعداد القتالى لجيشكم ". وهنا قاطعه الملك ، قائلاً :" لكنى أنا الذى أستأذنك فى أن أخبرك بما سمعته ذات مرة من حكمة سائرة تقول بأنه لايطير الطير إلا بأجنحة مشرعة، وأنه لاعدل مع قانون جائر، ولاطاعة لحاكم فى بلد ذهبت عنه الأخلاق الكريمة ، وأنه لاتنصيب بغير تهذيب، لامجال للتكليف بمسئولية عامة دون إعداد وتدريب. والآن، وبما أنك تطرح موضوعًا غير ذى مناسبة، فلنؤجل الحديث فيه إلى وقت لاحق ".

الجزء الثانى من الفصل نفسه

ثم واصل سوتشين كلامه، قائلاً :" كنت أشك كثيرًا منذ البداية أن تقبل جلالتكم نصيحتى وأن تأخذوا باقتراحى، مع أن مطالعة التاريخ تظهر لنا أمثلة بارزة تثبت وجهة نظرى الأصلية، فالتاريخ حروب متصلة على طول الزمان، منذ حروب الملك "شنونغ" ضد دويلة "بو" القديمة، وحرب الإمبراطور "هوانداى " ضد قبائل "تشيو"، ومعارك "تانياو" ضد "هوانجو"، وحرب "جو وانغ" – مؤسس دولة جو – ضد الملك شانجو – أحد الحكام الطغاة بأسرة "يين شانغ "–، وكذلك المعارك التى شنها

"تشى هوانكون" ضد المالك حتى اشتهر بأنه أحد جبابرة التاريخ القديم، فهل كانت هناك وسيلة أخرى لضم الممالك والدويلات سوى الحرب! صحيح أن هناك فترات من الزمن كانت فيها الطرق بين الممالك تعج بالرسل والوفود والمكاتبات المتبادلة بين العروش والتيجان، وجرت الأقلام فوق الصحف بمعاهدات وتسويات سال مدادها ببليغ الكلام ومعسول الصياغات، وقامت ذات يوم الوحدة الكبرى والتأم شمل إمبراطورية مترامية تحت السماء، ثم لم يمضِ وقت طويل حتى امتدت بالطول والعرض خطوط متقاطعة بين الجميع تعمقت بحدة الصراعات واتضح أن وراء رايات الوئام أسلحة مازالت مشرعة النصال، ثم اعتلى خطباء السلام منابر الجدل واحتدم الشقاق وافترقت اتجاهات الطرق تحت أقدام الرسل، وأطلت رؤوس التناقضات وترددت أصداء الفتن، فاضطربت كل الأجواء، وتزعزع الاستقرار. وبرغم القوانين واللوائح التى صيغت لدرء الفوضى، فقد كانت الظنون تطيح بكل مصداقية، وتبودلت بين الأمراء الضغائن، والمشاحنات، فسقطوا فى عين رعاياهم، وبرغم بلاغة الفصحاء فقد تدهورت الأحوال، بل كلما تألق سجع الألفاظ، ازدادت نيران الحرب اشتعالاً، وفيما انطلقت ألسنة الرسل والوسطاء بمعسول الألفاظ، توهج أوار الغضب، واتسعت دوائر القلاقل والاضطرابات. وكم تفاصحت الأفواه وامتلأت الآذان بما لم يجد نفعًا، بل راحت صفوف المحاربين تتدفق إلى الميادين، فى صلابة وقوة وبأس أشد من متانة دروعها، فحاربت وقاتلت وانتصرت. أما المكث فى أروقة الأمانى الجميلة ، انتظاراً لشروق شمس المجد والاستقرار، فهو التصور الذى لم يكن له على مر التاريخ أية نتائج إيجابية، بل حتى الأباطرة الأقدمين، والملوك الثلاثة والجبابرة الخمسة، ما كانوا يستطيعون، فى ظل هذا التصور أن يسجلوا مآثرهم فى صفحة التاريخ فلا معدى عن ارتداء درع الحرب ونزع قميص الحكمة والكياسة، فتلك هى الطريقة التى يبنى بها الملوك صروح أمجادهم.

إن شرف الجندى لا يتحقق إلا فى ساحات القتال صونًا لحدود الأوطان، وشرف الملك فى إقامة العدل أمنًا وأمانًا للممالك والبلدان أما الشعب الناطق بمائة لسان -

ذى القوميات والقبائل والعشائر المختلفة - فإنه يجتمع على كلمة واحدة تحت التاج، طـاعـةً وولاءً ، ولئن كـان مـبـتـغـى خططـكم الآن هو ضـم أراضـى الدويـلات والإمـارات وإخـضـاع القـوات المعـادية تمـهـيـداً للسـيطرة على زمـام الأمـور، وإقـرار سياسات عادلة ورحيمة نحو أهل الممالك المترامية تحت السمـاء، فإن كل ذلك لا يمكن تحقيقه دون قوة السلاح، وإن كثيراً من أمراء العروش الحاكمة يغضون الطرف عن هذه المسـألة المهمـة، بعد أن أضلتـهم المواعظ الأخـلاقيـة، وخلبت ألبـابهم الكلمـات المعسولة، حتى أوغلوا فى ساحة اللجاج حول تصورات واهمة، وهكذا، يبدو لى أن ما أطرحه على جلالتكم يا مولاى، لن يلقى الاقتناع والقبول، فضلاً عن التطبيق."

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وقـد حـاول "سوتشين" كثيـراً أن يذهب إلى القـصـر الملكى ويسـجل فى دفـتـر التشريفات طلبه للقاء الملك، أملاً فى إقناعه بخطته، إلا أن محـاولاته فى هذا الشأن لم يكتب لها النجاح ، وتردت أحواله كثيراً، حتى نفد منه المال، وتهرأت منه الثياب. وكان قبل ذلك منعـمًا مترفًا ينفـق عن سعـة، فمـا كان منه إلا أن غـادر دولة تشين عـائداً إلى مـسقط رأسـه، وكان منظره على طريق الرحيل مثيـراً للشـفقة، إذ بليت جبـتـه، وتعـرت لتكشـف عن سـاقين ملفوفتين بأعشـاب جافة، وعلى ظهره جوال مملوء كتبًا ذابلة الأوراق. لم يكن رجل فى الدنيا كلها تبدو فى وجهه علامات اليـأس مثلما كانت تبدو على محيا "سوتشين "،إذ غارت عيناه وعلت الصفرة جبهته، ثم إنه وصل بلدته ودخل بيتـه، فلم تكترث بعودته زوجته، ولا أقبلت عليه امرأة أخيه الأصغر بابتسامتها المعهودة، بل عبست وانزوت فى ركن، دون أن تعد له الطعام، وتباعد عنه أبوه. فحزن وقال فى نفسـه إن مكانتـه وسـط أهله كزوج، وأخ، وابن، قد تـأثرت كثيراً بفشله فى مهمته بشأن إقناع الملك بالسياسـات المقترحة، وراح يدرس ويتأمل ويفكر، وانكب على كتب الخطط السياسية الكبرى يطالعها فى نهم بالغ ويحلل تفاصيلها بعمق، والطريف أنه كان يضـع إلى جانب الكتب على الطاولة إبرة طويلة مدببة، حتى إذا غالبه النعاس

تناولها وغرسها فى فخذه كى يفيق ويواصل القراءة، ويقال بأن الدماء كانت تسيل خيوطًا طويلة وتسقط تحت قدميه لكثرة ماانغرست الإبر فى لحمه، وكان يلوم نفسه قائلاً: " أمعقول أن تذهب إلى البلاط الحاكم بدولة تشين دون أن تعود محملاً بأصناف من الهدايا الثمينة والعطايا الملكية الفاخرة، ولا حتى الألقاب الفخرية ؟"، ولم يكد يمر عام حتى كان قد أتم دراسته فى فنون الحرب وقرر أن يعاود محاولته فى الترويج للفلسفات الفكرية الحربية مع القادة والحكام الجدد، واتجه على الفور إلى دولة "يان" والبلاط الحاكم لدولتى "جى" و"جاو" حيث التقى برجال القصر فى كلتا الدولتين، فلما التقى بحاكم "جاو"، فى قصره المهيب، وتحدث إليه بقلب مفتوح، وكان اللقاء بينهما تسوده روح الود، واغتبط ملك جاو كثيرًا بالحديث إليه، حتى إنه تكرم عليه بمنحه لقب أمير مقاطعة "ووآن"، وأهداه مائة عربة عسكرية وألف قطعة من المشغولات الذهبية ومائة زوج من اليشب وعشرة آلاف جرامًا من الذهب الخالص، وصار يتنقل بين الدول، وهدايا الملك بين يديه، ثم إنه عمل جاهدًا فيما بين الممالك لنسف أية خطط يمكن أن تربط دولة تشين بباقى الدول، وذلك بهدف احتواء القوة المتعاظمة لتلك الدولة الجبارة.

وكان سعيه الحثيث لتحقيق هذه الغاية هو الذى أوصله إلى أن يحتل منصبه كرئيس وزراء لدولة "جاو" واستطاع من خلال موقعه أن يقطع الصلات بين تشين وباقى الممالك، وهكذا فقد امتنعت ست دول مثلاً من السماح لـ "تشين" بالمرور بالقرب من حصونها السياسية.

ويمكن القول بأن الفضل فى حشد هذا العدد من الممالك بما اكتمل لها من نفوذ وما تميزت به من رقعة جغرافية واسعة وعدد هائل من السكان والقصور الحاكمة والأمراء والقادة، وكل ذلك يرجع إلى حنكة ودهاء سوتشين وما وضعه من خطط طموحة وذكية كان من شأنها أن تجمع شمل الأمراء والحكام والقادة وتوحد كلمتهم، دون إراقة نقطة دم واحدة أو حتى صرف [جراية] زائدة لجندى يتأهب لقتال، بل لم ينادِ منادٍ للحرب، ولا خرجت فى الساحات صفوف مقاتلين، ولاشرعت رماح أو

انتصبت فى الأقواس سهام، ذلك لما صار الحكم لذوى الحكمة والفهم فقد عمت الثقة وانتشر الاستقرار فى كل الأرجاء، فلذلك قيل : " إن الإدارة الناجحة داخل القصر تجب أنشط التحركات عند حدود الإمبراطورية ".

وهكذا فلما تأكدت براعة سوتشين، وتألق مجده، أنعم عليه جلالة الملك بخمسة آلاف كيلو جرامًا من الذهب الخالص، فصار من أكثرالناس ثروة وعزة وبأسًا، فكانت ترمح خيوله وتدور عجلات دورانه فى فلك الحظ السعيد، والكل يخضع تحت بهاء نفوذه، حتى الدويلات الواقعة شرقى جبل "هواشان"، كانت بأمرائها وفرسانها وشعوبها تتجاوب مع أصداء توجيهاته مثلما تميل أعناق النبات حسب دوران الريح، وهو الأمر الذى استفادت منه دولة "جاو"، وإذ برزت هيبتها ومكانتها للجميع.

ولم يكن سوتشين، فى مبتدأ الأمر سوى طالب علم فقير ينكب على كتبه فى فناء بيت متهالك، ثم إذا به الآن يركب أفخر العربات، تقودها الجياد المطهمة، وهو ينتقل مسافرًا بين قصور الحكم يعرض أفكاره ووجهات نظره على رجال البلاط، فهو إذ يتكلم تصمت كل الأفواه، ولايوجد من بين الناس من يستطيع أن يفوقه أو يجاريه، وبينما كان سوتشين فى طريقه ذات مرة ذاهبًا للقاء ملك تشو ، مر ببلدته ومسقط رأسه "لويانغ"، ووصل الخبر إلى أهله، فتهيأوا لاستقباله، وأقاموا الزينة فوق الجدران، وأحضروا المعازف لتصدح بالموسيقى والغناء، وبسطوا الفرش والولائم، وركبوا طريقًا يبعد مسافة ثلاثين ميلاً لاستقباله وصاروا عند لقائه يتأملونه بعيون ملؤها الإعجاب، وسجدت له زوجة أخيه على قارعة الطريق، تحية إكبار وإجلال، فأخذ بيدها وسألها متعجبًا عما دعاها إلى هذا الصنيع، وقد كانت فيما مضى تزور عنه نفورًا وضيقًا، فأجابته بقولها : " إنها إنما تصرفت على هذا النحو، لأنه أصبح الآن فى مكانة جديرة بالتقدير والاحترام ، ثم ابتسمت وأضافت أنه صار الآن أيضًا واحدًا من أكثر الناس ثراءً ، وهذا أيضًا كفيل بإثارة الاستحسان والإكبار فى النفوس". وعندئذ أجابها سوتشين ، قائلاً : "عندما كنت فقيرًا كان أهلى ينكروننى،

...

أما وقد أثريت فقد أكبرونى، وبالغوا فى تقديرى، فكيف يمكن للمرء أن يتجاهل قيمة الثروة والنفوذ والهيبة والمكانة ؟".

لما التقى ملك تشين مع رئيس الديوان

التقى الملك هوى حاكم تشين برئيس الديوان الملكى، وقال له:" لاأرى إلا أن سوتشين يخدعنى، ويؤلب على حكام الدول الست الواقعة شرقى جبل "هواشان " بما هداه ذكاؤه وفطنته البارعة إلى عقد تحالف بين تلك الدول هدفه الإيقاع بـ"تشين" ولابد أن دولة "جاو"، بما تملكه من ثروات هائلة، وعدة وعتاد سوف تسارع إلى استمالة الدويلات والإمارات الأخرى لمهاجمتنا، وسيكون رسولها المقتدر فى تنفيذ هذه المهمة، هو "سوتشين "، ولو أنى أعرف أنه من المستحيل إلغاء الفروق الدقيقة فى التوجهات والأفكار فيما بين الدويلات بعضها بعضًا، ويصعب بالتالى الانتهاء إلى فكرة واحدة تتجمع حولها كل الآراء، مثلما يتعذر ربط كل الدجاجات بخيط واحد دون أن يتسبب ذلك فى فوضى هائلة. وإنى ما بغضت أحدًا فى حياتى قط قدر بغضى لـ "سوتشين" وكم طال كمدى بسببه، لذلك أفكر فى إيفاد القائد العظيم "باتشى " إلى شرقى "هواشان " لتوضيح الأمور وتصحيح المفاهيم لدى الأمراء ورجال البلاط"، فقال له: "هانشيوان " أحد وزرائه ما نصه:" لا أحبذ التصرف على هذا النحو يامولاى، ولا أرى لك أن توفد قائد جيوشك فى هذه المهمة،إذا كنت قد نويت القتال، أما إذا كنت تبغى توضيح الأمور، وتسوية الخلافات وضبط النفس مع كل الأطراف فابعث إليهم برئيس وزرائك الفيلسوف الداهية "شانغى" (حيث هو الذى ساعد على تنصيبك ملكًا، وهو أيضًا فيلسوف ومفكر، ويستطيع استمالة الدول والممالك فى صفك) ووافقه الملك، قائلاً:"نعم الرأى إذن، وسآخذ بما اقترحت على".

لما التقى الوزير لينغ بحاكم تشين

التقى الوزير "لينغ" بجلالة الملك "شاوشيانغ " حاكم تشين ، وقال له:" إن خطتى يامولاى تنحصر فى أن أعمل على أن تأتى كل تصرفات وسلوكيات دولة "تشى" على النحو الذى يخدم أغراض جلالتك، ذلك أنى باتجاه الهجوم على دولة "سونغ" التى سوف تعانى هزيمة نكراء، وحينئذ وبعد سقوط "سونغ"، دولة "جين" فى خطر شديد يتهددها،مما سيجعل بعض المدن التابعة لـ"وى" والغربية من حدودنا تسقط فى أيدينا بمنتهى السهولة وبالطبع فإن كلاً من دولتى "يان"و"جاو" سوف تتأثران بما تريانه من إنجازات للاتحاد القائم بيننا وبين "تشى"، وبالتالى فلن تترددا فى أن تتنازل عن أجزاء من أراضيها لجلالتك، ولما كانت حليفتنا "تشى" تخشى بأس مولاى، فلابد أنها ستضاعف مظاهر الاحترام لجلالتك، ولابد أن شعورها بنفوذكم وإذعانها لمشيئتكم سيزداد بعد الهجوم على دولة "سونغ "، فلماذا تتردد جلالتكم فى القبول بوجهة نظرى القائلة بوجوب شن الهجوم فوراً على "سونغ" ؟! ، وفى الحق يامولاى، فإنه ما من سبب دعانى للإفاضة فى شرح اقتراحى هذا على نحو مفصل، إلا أنى ظننت أن الأمر واضح لجلالتكم على النحو الذى أبديته آنفًا."

لما ذهب شانغى لمناظرة ملك تشين

أقدم شانغى على الملك "هوى " حاكم تشين، وقال له:" كنت قد سمعت أحدهم يقول يامولاى بأنه ليس من الفطنة أن يتكلم المرء بما لايفهم. كما أنه ليس من الوفاء والإخلاص أن يدع المرء التكلم بما يفقه من الأمور، أما إنه لا خير فى وزير خائن لسيده ملك الملوك، ولاحياة لمن كتم عن مليكه خبايا الحقائق، وعلة هذا الأساس، فسوف أفضى لجلالتك بكل ماوعيت؛ قد بلغنى يامولاى أن كل ما يقع بين البحور الأربعة سواء من الشمال أو من الجنوب؛ أى من دولة "يان " إلى دولة "وى" بما فى ذلك دولتى "تشو" و"تشى" يقومون بتكتيل عناصر من قوى متفرقة فى دولة "هانكو" لتوليف حشد يتحرك إلى الغرب لتهديد تشين.

والحق يامولاى، أنى عندما علمت بهذه الأنباء ضحكت فى نفسى من غفلة أولئك الحمقى الذين لايقدرون حقائق قوتهم على نحو صحيح.

ومن المقرر أنه لا مفر لأية دولة فى العالم كله من التفكك والانهيار فى ثلاثة أحوال معلومة بدقة، والمؤسف أن الدول والممالك التى ترتب للهجوم على تشين، قد وقعت جميعها فى تلك الأخطاء الثلاثة القاتلة، ولعلى لا أبالغ إذا قلت إن تلك قد صارت طبيعة قرارات الدول فى زماننا. وقد بلغنى يامولاى ، أنه إذا هاجمت قوات غير منظمة تنظيمًا عاليًا قوات دولة أخرى شديدة الانضباط، حسنة القيادة، فإنها تخاطر مخاطرة جسيمة، وإذا أقدمت قوات ذات نوايا عدوانية على الاشتباك بقوات تتحلى بأهداف خلقية وصادقة ومشروعة، فهى تعرض نفسها للفناء وحين لايكون فى عتاد القوات المهاجمة سوى الظلم والبطش والعدوان بمواجهة جيش سلاحه الإيمان بقضية وطنه، فالمعتدى عندئذ هالك لامحالة. والآن فإنى أنظر إلى الإمارات والدول التى تتحداكم بالقتال فأجد أنها تعانى نقصًا فى الادخارات المالية واختلالاً رهيبًا فى مخزونها من الحبوب والغلال، وهكذا فإن أى محاولة سواء كانت لإعداد قوات هجومية وفيرة العدد، أو لتعبئة الجماهير، ستجد أمامها عددًا قد انتضى رماحه، ثم إذا بها لاتملك فى أيديها إلا الفؤوس والمعاول، وهو مايعنى أنها على موعد مع الفرار والتشتت عند أول شرارة للحرب. وساعتئذ لن يملك أحد أن يلوم الشعب على التقاعس عن القتال، مادام القادة أنفسهم قد عجزوا عن المبادأة الناجحة للقتال.إن أحدًا من الناس لن يرضى بأن تزهق روحه عبثًا، وهو يرى بعينيه عجز القيادات عن الاحتفاظ حتى بسلطة الثواب والعقاب، فلا هى كافأت المجتهد ولا عاقبت المقصر، وعندما تصدر دولة تشين إعلانًا عن رصد مكافآت سخية للمتطوعين فيجب أن تراجع جدارة الاستحقاق بدقة، ويمكن القول - بعامة - إن الإنسان العادى الذى لم يشارك فى أى قتال منذ نعومة أظفاره لن يتردد أمام نداء يطلب منه الدفاع عن أهله وقتال أعدائه إلا أن يلبى نداء الزحف بغير تردد، وقد تبلغ به الجرأة حد الاستهانة برماح العدو المشرعة فيقتحمها بكفين مجردتين، أو يقفز فوق براكين اللهب بقدمين عاريتين.

والنماذج التى تثبت قولى أكثر من أن تحصى، أما مدى إصرار المقاتل على الموت أو على الحياة، فتلك مسألة تتباين من فرد لآخر، وإن كنت أعرف أن أهل تشين مجبولون على الجرأة أمام المخاطر، وهذا واحد من الأسباب التى تدعو الناس ها هنا على الاعتداد بالاندفاع الجرىء واعتباره من الخصال النبيلة، وهكذا فإن جنديًا واحدًا يستطيع أن يهزم عشرة جنود من أعدائه، وعشرة مقاتلين يقدرون على أن يهزموا مائة، ومائة يدحرون ألفًا، وألف يقدرون على عشرة آلاف، وعشرة آلاف يملكون المقدرة على إنزال الهزيمة بعدة جيوش مجتمعة. والآن إذا نظرنا إلى الظروف الطبيعية لدولة تشين نجد أن أرضها تتميز بالتوازن بين المرتفعات والمنخفضات، وأن مساحتها كبيرة، لابأس بها، وجيشها من أفضل الجيوش عدة وعتادًا، وأضف إلى كل ذلك ما أصدرته الدولة من إعلان عن المكافآت الكريمة لمن أحسن البلاء فى القتال. والخاصية المنيعة لجغرافيتها، فإن كل ذلك يرد العدو عن التفكير فى الهجوم، فإذا وضعنا تلك النتيجة بالموازنة مع تطلعات باقى الدول للهيمنة، نجد أن مقدرة تشين على ضم وابتلاع أراضٍ كثيرة للغير، هى التى تمنح فرصًا هائلة لجيش تشين بالهجوم وإنزال الهزيمة الفادحة بالآخرين، وهو ما يعنى فى وجهة نظر ما، إمكانية السيطرة على مساحات هائلة من الأراضى واستصلاحها بما يحقق فوائد جمة، ويدخل ضمن دائرة الإنجازات التاريخية فى سجل دولة تشين. أما إذا أصيبت القوات بالإعياء والتفكك وعسرت أمور الحياة على الشعب، ونضب الادخار وتصحرت الأراضى وأوشك مخزون الغلال على النفاد وتعنتت الدول المجاورة من الجهات الأربع ، وذبلت أصداء المهابة والجاه، فلن يكون هناك سوى سبب واحد وراء كل ذلك، ألا وهو تقاعس المخطط السياسى عن الوفاء التام لقضية بلاده".

الجزء الثانى من الفصل نفسه

وواصل "شانغى" كلامه ، قائلاً : "دعنى أقص عليك يامولاى، شيئًا من الحوادث الغابرة، ذلك أن التاريخ يحدثنا عما أحدثته دولة تشى من تخريب هائل للدول الواقعة

على حدودها الجنوبية والشرقية والغربية والشمالية، وهى على التوالى: تشو، وسونغ، وتشين، ويان وبينما كانت تقوم بشن الغارات على هذه الدول، فقد كانت من جانب آخر تقوم بتحريض حكام كلٍّ من وى وهان، بإرسال حملات تأديبية إلى تشو وتشين، فلما اتسعت مساحتها وزادت قوتها العسكرية، استطاعت أن تحرز سلسلة من الانتصارات والغزوات الناجحة، وذلك بما أصدرته من أوامر قيادية عليا تطالب الدويلات التابعة لها بالاشتراك فى المجهود القتالى. وكان ذلك ضروريًا لتجاوز عقبات جغرافية وعوائق طبيعية كان يمكن لها أن تقف فى طريق الزحف العسكرى لو أنها كانت تحارب بمفردها. وهكذا دخلت دولة تشى خمس معارك كبرى وانتصرت فيها جميعًا، وفى الحق، فقد كان ذلك هو السبب فى احتفاظها بهيبتها ونفوذها بين الدول، لأنه كان يكفيها بأن تصاب بالهزيمة مرة واحدة فقط حتى تتفكك وتنهار، فمن ثم، أرى يامولاى، أن الحرب تتصل اتصالاً وثيقًا ببقاء ووجود بلد كبير وقوى مثل بلدكم، ثم إنى قد سمعت أيضًا قولاً أعجبنى مفاده أن من أراد أن يتجنب الكوارث العاتية، فينبغى عليه اجتثاث المصائب من منبت جذورها، وقد سجل لنا التاريخ ما قامت به دولة تشين من غزو لدولة تشو فى سالف الزمن، وبلغ من بأس قوات تشين أنها تقدمت حتى استولت على "إينغ دو" عاصمة تشو، ثم احتلت مناطق ذات أهمية سياسية أخرى حتى أرغمت حاكم البلاد على الفرار ناحية الحدود الشرقية والاختفاء فى مجاهل مدينة "تشندى" وكانت الظروف القائمة فى ذلك الوقت تشير إلى أن استمرار توغل القوات فى أراضى تشو كان يعنى سقوط الدولة بالكامل تحت سيطرة قوات الاحتلال، باكتمال السيطرة على أرضها يتوفر مورد مهم من موارد الدولة لتلبية حاجات الناس، وبذلك أن مجموع المحاصيل الزراعية التى تنتجها يمكن أن يكفى أكثر المطالب الشعبية إلحاحًا، هذا بالإضافة طبعًا إلى أن تشين فى ظل هذا الوضع كانت تستطيع أن تعمل على استنزاف طاقة دولتى "تشى" و"يان" إضافة إلى إضعاف النفوذ الأدبى للدول الثلاث: هان، جاو، وى، فإذا ماتمت هذه الخطوة تحققت لدولة تشين الزعامة فوق الممالك، واتجهت إليها الوفود الرسمية لجاراتها من الجهات الأربع، تحمل صكوك الولاء والطاعة، إلا أن شيوخ السياسة والتخطيط عندنا

لايضعون هذه التصورات فى حساباتهم ، وبالتالى لايتصرفون على النحو الذى ذكرته لجلالتكم، بل على العكس تمامًا، يخططون لسحب القوات وعقد تسويات سلمية مع "تشو" وهو ما يعطى الفرصة لهذه الأخيرة، كى تلتقط أنفاسها، وتعيد ترتيب أوضاعها الداخلية التى أشرفت على الانهيار، فتستعيد إليها الشاردين والهاربين وراء الحدود، وتستعين بالجميع فى تشييد مؤسسات الوطن (الدولة) والسماء (المعابد)، ومن ثم تقوم - من جديد - بإخضاع الممالك المجاورة تحت نفوذها، وهو ما يعطيها فرصة ذهبية تتمكن بها من تهديد تشين التى ستجد نفسها، قد صحت فجأة من نوم عميق، وقد ضاعت منها مقاليد الزعامة.

ولابد من الإشارة إلى الميول الواضحة التى تبديها الممالك المختلفة للتحالف فيما بينها والتى تمخضت عن توطين جيش مشترك فى منطقة "هوايانغ" ، ومع ذلك فإن جلالتكم تستطيع أن تقوم بالقضاء على هذا الجيش المتمركز هناك باستخدام الحيلة والدهاء، وهو ما يتطلب منكم دفع قوات باتجاه مدينة "واليان" لمحاصرتها عدة أيام، وبعدها تسقط فى أيديكم ثمرة يانعة، فإذا حدث ذلك، لابد أن تسقط دولتا وى و جاو، بما يترتب على ذلك من آثار وخيمة، أهمها وأبرزها وقوع دولة جاو تحت مخاطر هائلة تتهددها، وعندما يتسلط الخطر على عنق جاو تتوارى دولة تشين وراء حجاب من عزلة، وتفقد كل سند، والنتيجة الحتمية لذلك هى إمكانية الوثوب على الجبهة الشمالية والاستيلاء على الدويلتين "تشى" و"يان"، ثم التحرك بعد ذلك إلى المنطقة الوسطى لإعاقة فرص تطور وازدهار الدول الثلاث: هان، جاو، وى)، وتلك هى الخطوة التى لو تحققت لأصبح فى يدكم النفوذ والسلطان والقوة فوق الممالك جميعًا، ومن ثم تأتيكم الوفود من كل صوب لتقديم أسمى آيات الولاء والتبجيل، لكن المشكلة تكمن فى أن رجال التخطيط لم يأخذوا بهذه الاعتبارات، بل قاموا بسحب القوات وعقدوا الصلح مع دولة وى التى استطاعت أن تستغل الفرصة لتنهض ثانية من كبوتها فتشيد معابدها ومؤسساتها بعد أن كانت على وشك الانهيار التام، وهكذا ضاعت - للمرة الثانية - فرصة الترقى إلى ذرا المجد والوثوب إلى مكانة الدولة العظمى. وحتى عندما

تولى "رانغ هو" رئاسة الوزراء منذ وقت غير بعيد، وأراد القيام بإصلاحات شاملة، فقد نجم عن ذلك أنه تورط فى خطأ بالغ الخطورة وهو أنه استخدم قوات جيش واحد لخدمة أغراض بلدين مختلفين (دولة تشين، ودويلة تابعة)، فكانت النتيجة إنهاك القوات تحت ظروف مناخية بالغة الصعوبة خارج الحدود واستهلاك طاقة الجماهير فى الداخل بغير جدوى وهكذا أيضا، ضاعت = للمرة الثالثة - الفرصة فى تحقيق مكانة سيادية متميزة لدولة تشين .

الجزء الثالث من الفصل نفسه

لما كانت دولة جاو تقع وسط دول ثلاث هى: تشى، هان، وى، على مساحة من الأرض يشغلهاعدد وافر من السكان غيرالمتجانسين،إذ إنهم أخلاط من شعوب وقبائل شتى، فقد تميزت الحياة الاجتماعية للأهالى هناك بنوع من البساطة والتلقائية وشىء من نزق الطباع الذى يستعصى على الانقياد لسلطة حاكمة، هذا بالإضافة إلى كثرة تبديل وتغيير اللوائح القانونية، وفقدان الثقة والمصداقية فى عدالة الثواب والعقاب. ومن ناحية أخرى، فقد كانت الظروف الجغرافية تحول دون قيام نظام دفاعى قوى. أما الطبقة الحاكمة فقد عجزت عن أن تعبىء طاقات الشعب بكامله، فلا هى استطاعت أن تجنب البلاد ويلات الانهيار ، ولا هى حثت الناس على توقى الخطر، بل قامت باستدعاء أعداد هائلة من الجنود وحشدتهم فى مدينة " تشانغ بين"، وذلك تمهيداً للاستيلاء على قطاع "شانغ وان " - التابع لدولة هان - وهنا يستطيع جلالة الملك أن يستعمل الحيلة والدهاء فى تدمير هذا القطاع وإزالته من الوجود تماماً، بحيث يتمكن من الوثوب إلى مدينة "ووآن" والاستيلاء عليها. وعندئذ، يتبدل ما كان بين حاكم جاو ورجاله من وئام، ويدب النزاع بين الأهالى والجنود والإدارة الحكومية. وهو ما سيجعل أهم مدينة عندهم (هان وان) فى مهب الريح، دون دفاع متماسك، فإذا ما اقتحمتها جيوش تشين، وقامت بعد ذلك بإعادة تجميع وتعبئة قواتها ثم واصلت الزحف إلى الغرب متجاوزة بذلك الحصون المنيعة فى "يانغ شانغ "،

فسيمكنها أن تخضع مقاطعتى "داى " و"شانغ داى" وتتكون داى من ستة وثلاثين إقليمًا، أما شانغ داى فيتبعها سبعة عشر إقليمًا، وهو ما يعنى أن تشين ستحصل على غنيمة ثمينة، دون أن يرفع جندى سلاحه أو أن يشمر مدنى عن ساعده. وهكذا تسقط كلتا المقاطعتين فى يد تشين بغير قتال، وتقع كل من مقاطعتى "دونيانغ" – من أرض جاو – و"خوى" فى حوزة دولة تشى وكذلك تؤول المناطق الواقعة شمال بحيرة "شونهو" لملكية دولة "يان"، وحسبما هو حاصل فإنه إذا تم الهجوم على جاو، فسوف تتعرض دولة هان للمخاطر، ونتيجة لذلك تصبح كلٌ من وى ، وتشو فى وضع يعرض استقلالهما للمخاطر، وهكذا فإن خطوة واحدة يقوم بها الملك ستؤدى إلى القضاء على هان وإيذاء وى وإخضاع وإضعاف هيبة ونفوذ تشو، وشى، ويان، فإذا أمكن تدمير خزان"بايما" فإن فيضانًا هائلاً سينطلق من عقاله ويغرق دولة وى عن أسرها، بل يمكن لمثل تلك الخطة أن تسحق الممالك الثلاث وتحالف قوى الدول الست، وليس على مولاى بعد ذلك سوى أن يجنى قطوف المجد، فيعظم سلطانه فوق الممالك، لكن العقبة تكمن فى عجز خبراء التخطيط عن تصور تلك الترتيبات، بل كما أشرت آنفًا، سارعوا إلى سحب القوات وعقد الصلح مع دولة جاو، مما ضيع على الجميع فرصة تحقيق المجد والمكانة العظمى لدولة تشين وملكها بين الدول، حتى اهتزت صورة بلادكم فى عين الجميع وصارت دولة على وشك التفكك والانهيار مثل دولة جاو توقع بكم فى أحابيلها ودهاليز مكرها وخداعها، فما كان ممكنًا لكل ذلك أن يتم لولا غفلة المخططين وجهلهم، هذا من جهة، أما من جهة أخرى، فقد تجلت الآن حقيقة على مرأى من الجميع ألا وهى أن دولة جاو التى كان ينبغى لها أن تسقط وتندحر،قدر لها أن تبقى وتنهض من كبوتها، ودولة تشين التى كان من المأمول لها أن تعتلى ذرا المجد والسطوة، تراجعت وتقهقرت كثيرًا عما كان ينبغى لها أن تبلغه، فالحاصل أن الجميع أصبح يدرك مستوى التخطيط المتدنى فى تشين، هذه واحدة. ثم إنه لما حدث استنفار للحشود العسكرية للهجوم على مدينة "هان وان"، اتضح عجز القوات عن تحقيق هذا الهدف، ففشل الهجوم، ودبت الفوضى وسط الجنود، حتى أن بعضهم نزع دروعه وألقى سلاحه، وفر هاربًا من الميدان تحت سمع وبصر الجميع، مما أعطى انطباعًا

سيئًا عن مدى الإعداد القتالى لقوات تشين تلك هى المسألة الثانية، أما المسألة الثالثة فتتمثل فى أنه بعد أن تقرر أن تتمركز القوات المنسحبة بالقرب من مدينة "لى تشنغ" أصدر جلالة الملك أمره بحشد القوات ثانية للقتال وهو ما لم يكن ممكنًا معه تحقيق أية مكاسب أو انتصارات على أى نحو من الأنحاء، ولما كان الجيشان المتعاركان قد بلغ بهما الإنهاك مداه، فقد آثر كلاهما الانسحاب. وهكذا برزت أمام الجميع حقائق موقف تعكس الحالة المزرية التى بلغتها قوة دولة فى حجم تشين. وإذن ففى الداخل، أدرك الناس جهل الخبراء السياسيين، مثلما لمسوا فى الخارج ضعف المستوى القتالى للجيش فمن ثم أرى أنه ليس بالإمكان مواجهة قوات متحالفة تضم عدداً كبيراً من الممالك، وذلك طبعًا يرجع إلى ما أصاب القوات من ضعف وإنهاك بالإضافة إلى شظف العيش الذى يحيط بالأهالى من كل صوب، وندرة الادخار، وجفاف الحقول ونضوب المحاصيل الغذائية. أما على المستوى الخارجى، فقد بلغت عزيمة قوات التحالف حداً لامثيل له من الثبات والصلابة. وهو الأمر الذى يتطلب من جلالة الحاكم إدامة النظر وإمعان الفكر والروية، ثم إنى قد سمعت يامولاى، بأن توخى الحذر مدعاة لحسن التصرف، فإذا قرنت الحذر والانضباط دانت لك الممالك، وخضعت تحت سلطانك. ولئن كنت فى شك مما أقول فإنى أسوق لك شيئًا من وقائع التاريخ القديم، ذلك أنه لما كان الملك "دوجوانغ" (حاكم دولة شانغ) وكان طاغية مستبداً مازال بعد أميراً حدثًا فى السن، لم تعركه الحوادث، فقد خرج قائداً لجيش جرار قوامه ألف ألف مقاتل، وحدث أن قوات الميسرة ذهبت لتسقى الجياد عند وادى تشى، أما قوات الميمنة فقد قصدت صوب هوان لتروى ظمأها بعد أن أجهدها المسير إلا أن المؤسف فى ذلك كله أن بئر الوادى قد جفت، وانقطع مجرى النهر فلما أقبلت ساعة القتال والتحم الجيشان: جيش الأمير، وقوات الملك "أوو" التى لم يتجاوز عددها الثلاثة آلاف مقاتل يرتدون حللاً عسكرية بيضاء حداداً على وفاة أحد رجال الدولة ،ثم إن القوات صمدت فى المعركة التى دامت يومًا واحداً فقط، واستطاعت أن تقهر جيش الأمير "جوانغ"، بل دخلت أرضه واحتلت عاصمة البلاد وألقت القبض عليه شخصيًا بعد أن احتلت بلده واستعبدت شعبه، فكانت حالته مثيرة للرثاء والشفقة بحق ، وحدث أيضًا أن

"جيبو" (أحد كبار قادة دولة جين) قاد جيوش ثلاث دويلات مجتمعة ذاهبًا لقتال "جاو شيانزي" (أحد القادة الهاربين من دولة جين) وقام جيبو بهدم جزء من جدار سد النهر، يريد إغراق طريدة، فلما انقضت ثلاث سنوات كاملة، وأصبحت المدينة على وشك السقوط تحت ضربات الهجوم العنيف، وذهب "جاو شيانزي" إلى العرافين والكهان وكان له اعتقاد شديد بحسابات الحظ ومعادلات الأبراج الفلكية، ثم إذا به يتخير أكثر الأيام والساعات حظًا في اتخاذ قراراته، وأوفد مستشاره الشخصي في مهمة سرية خارج أسوار المدينة، فقام هذا الأخير بمهمته على خير وجه، إذ تسلل خفية دون أن يشعر به أحد، ولجأ إلى أسلوب الخداع الشهير بـ " فانجيان"؛ أي زرع الأوهام والشكوك في قلوب الأعداء، وذلك لتخريب الاتحاد القائم بين هان و وي من ناحية و"جيبو" من ناحية أخرى واستمال إلى صفه أهالي تلك الدولتين، ليستخدمهم في صد قوات جيبو، بل القبض على جيبو شخصيًا واعتقاله، مظهرًا بذلك أعظم آيات الولاء والعرفان لـ "جاو شيانزي ". وإذا تأملنا حال تشين اليوم، ألفينا التوازن الرائع في توزيع مساحتها، هذا مع الاتساع الهائل الضارب في آفاق الأرض ووفرة الجنود والمقاتلين، ومزايا موقعها الجغرافي التي تتمتع بها دون سواها من الممالك والدول، بالإضافة إلى سيادة القانون وعدالة الأحكام والشرائع، فإذا قام التنافس بين تشين وغيرها من الدول سعيًا للمكانة العظمى والهيبة والهيمنة لصارت اليد العليا لـ "تشين"، ومدت سلطانها فوق باقي الدول والأقاليم والممالك، أما وإني قد غامرت بحياتي ووضعت رقبتي تحت حد السيف لا لشيء إلا رغبة في لقاء وجهك يامولاي؛ كي أعرض عليك كيفية نص التحالف القائم بين الممالك، وضرب دولة جاو، وتدمير هان، وحث كل من وي وتشو على التسليم والاعتراف بمكانتكم، وأخيرًا، كي أعمل على التقريب بين "تشي " و"يان " لإتمام آخر بند في مشروع إقامة مملكة تشين الكبرى، التي يخضع لنفوذها كل جيرانها من الدول والممالك. وإني لأرجو أن يتفضل مولاي بأن يتخذ مما قلته آنفًا منهاجًا وخطة للعمل، وإني على استعداد، إذا ما فشلت هذه الخطة في أن تؤتي ثمارها على النحو الذي أوضحته، بأن يقطع رأسي

عقابًا رادعًا لجهلى وقلة فطنتى ، وما قد أجلبه من متاعب لجلالتكم بسبب الرعونة والطيش وسوء التدبير."

لما فكر تشانغى أن يطلب إمدادات عسكرية

لما فكر تشانغى أن يطلب قوات عسكرية من دولة تشين، وذلك للدفاع عن وى، فقد ذهب "زوشنغ" إلى كانماو (أحد القادة العسكريين بدولة تشين) ، وقال له:" خذ بنصيحتى، وابذل له العدد الوافر من القوات، فإذا ما حدثت إصابات أو خسائر جسيمة فى الأرواح، فستبدو دولة وى بهيئة الذى فرط فى أمانة من أغلى الأمانات، وعندئذ، فلن تستطيع أن تعيد حتى القوة السالمة المتبقية من الجنود إلى تشين وبالطبع فلن يجسر "تشانغى" أن يعود بصحبة أكفان الموتى، ولن يتحمل شعوره بأنه السبب فى تعاسة أهالى الضحايا، وربما تعرض لأشد العقوبات قسوة وشراسة. أما إذا كان النصر حليفه، فستعود القوات بكامل أفرادها إلى أوطانها، بينما سيظل تشانغى هناك، وقد تملكه الزهو والفخر، وسكر رأسه من نشوة الانتصار، ولربما شعر مع ذلك بالقلق من أن تظن دولة تشين به الظنون، حيث يقال بأنه أكثر إخلاصًا وتفانيًا لـ "وى"، على حساب أية اعتبارات أخرى، وبالتالى يتردد فى العودة إلى تشين ولابد أن تتذكر جيداً بأنه إذا بقى ها هنا، فسوف يترقى بفضل مواهبه إلى مكانة أرفع بكثير مما تظن، على الأقل، فسيتفوق عليك فى نواحٍ شتى ويعلو علواً كبيراً."

لما تجادل تشانغى مع الجنرال صماتسو

اشتعل أوار الجدل بين "تشانغى " و"صما" (أحد كبار القادة العسكريين) أمام الملك "هوى " حاكم تشين وكان "صما" يريد مهاجمة دولة "شو"، وكان أن قال له "تشانغى" : "أما كان يجدر بك أن تفكر أولاً فى مهاجمة دولة هان"، وهنا أشار إليه

الملك بقوله : " فليطرح كل منكما حجته وهأنذا أنصت وأتأمل ؛ فبادر "تشانغى" إلى القول : " أرى أن نتقرب إلى دولة وى أولاً، ونعمق صلاتنا الودية بدولة تشو، ثم نقوم بتجريد حملة عسكرية إلى منطقة سانشوان، ثم ندفع بقواتنا لسد مضيق جبل "هوانيوان" و"كوشى "، وإغلاق الطريق الرئيسى المار بمنطقة "شونليو"، ولندع وى تقوم بعزل إقليم " نانيانغ "، وكذلك نسمح لدولة تشو، بالاقتراب من "نانجين"، وهنا تتقدم قواتنا (جيش تشين) لمهاجمة "شين شنغ" و"إيانغ"، ونتوغل حتى نبلغ أطراف دولة جوالشرقية، ونتوقف ريثما نقوم بحرب نفسية تهدف إلى فضح مساوئ البيت الحاكم فى جو، ثم نواصل الزحف لاحتلال أراضى كل من يوى وتشو، فإذا ما أدرك حاكم جو أنه هالك لامحالة، فسوف يفكر جدياً فى التنازل عن الإرث الإمبراطورى المقدس، وبحصولنا على هذه القطعة المقدسة المأثورة عن أسلافنا الأباطرة العظام، نستطيع أن نضبط النظم القانونية والتشريعات التى يعمل بموجبها أمراء الأقاليم، وأن نضع إحصاءات دقيقة للسكان والخرائط المسحية التى تمهد السبيل لإجراء ذلك الضبط، فنمد سلطانها فوق كل الممالك، ويسجل التاريخ لنا أعظم مأثرة يمكن أن نحققها للبلاد جميعًا ألا وهى الوحدة الكبرى. أما بخصوص دولة تشو، فالأمر لايستحق أدنى اهتمام نظراً لأن هذا البلد يقع فى أقصى الغرب من الممالك جميعاً، بل هو موطن البرابرة والقبائل الهمجية، ولن يجدينا نفعًا شن الغارة عليها، بل نكون قد حملنا الجيش والشعب والناس جميعًا ما لايطيقون دون فائدة سواء غنمنا أرض تشو أو حالت دوننا وتلك الغاية أية عقبات، وقد قيل قديمًا يامولاى: " إن طريق المجد يبدأ من بوابات قصور الحكم، أما طريق الربح فيمر من بين أسواق التجارة ".

ولا ينطبق هذا القول على شيء قدر انطباقه على "سانشوان" ودولة جو، ذلك أنهما يمثلان رمز المجد وسوق التجارة معًا، وكان من الأجدى بجلالتكم الانتباه بقدر كافٍ لما يمثلانه من أهمية، بدلاً من استنفار كل قوتكم لأجل قبائل نائية عن العمران والتحضر، يقوض من أركان الطموح الإمبراطورى العظيم بما يباعد من فرص تحقيق المجد المأمول . "

الجزء الثانى من الفصل نفسه

ثم تحدث "صماتسو" قائلاً : " الأمر على غير هذا النحو يا مولاى، واسمح لى بأن أذكر لجلالتكم، فى هذا الصدد مقولة سمعتها منذ زمن مفادها أن عماد ثروة الوطن، سعة مساحته وانفساح حدود أرضه، أما مكمن قوته الضاربة فيتمثل فى سد حاجات الشعب، ولايبلغ البلد ذرا المجد والسؤدد إلا بإنفاذ السياسات العادلة، فإذا ما توافرت تلك الشروط الثلاثة، تحققت للأوطان عزتها، وامتد سلطانها فوق الممالك، أما وإن بلادك ضئيلة المساحة يامولاى، وشعبك فقير، فلا أرى لكم إلا أن تبادر إلى بلد يسهل التعامل معه، وأقترح أن يكون هذا البلد هو "تشو"، تلك الدويلة الواقعة فى أقصى غرب الأرض، والتى تمثل القبيلة الجامعة للبرابرة والهمج الساكنين فى الأحراش، وهذا بالإضافة إلى ما حل بها من تخريب على يد الطاغيتين "جيه" (آخر ملوك أسرة شيا) و"تجو" (آخر حكام أسرة شانغ) فإن جلالتك إنما تسير إليها جيشًا يصرعها ويطرح رأسها تحت أقدامه كما يطرح الذئب الشاة، فتستولى على أرضها وتضمها إلى أملاك دولة تشين الكبرى، وتوسع حدودك إلى الآفاق البعيدة وتغنم منها ثرواتها، ثم تفيء على شعبك بالخير العميم، ولن يكلفك الأمر سوى حسن التنظيم والإعداد القتالى الكفء، دون أن تحمل الناس ما لا يطيقون، ثم إنك باقتحامك دويلة ضئيلة بحجم تشو، ستخرج بطلاً مظفرًا فى وقت قصير نسبيًا، دون اللجوء إلى أساليب وحشية، تسيء إلى سمعتك، وبرغم ما يمكن أن يقع فى يدك من مغانم مهولة، فلن يراك الملوك ناهبًا ثروات الغير، فتلك فرصة نادرة للحصول على نفع مادى ومعنوى دون واسطة التحرك القتالى ؛ بل ربما تجنى من وراء ذلك أيضًا صيتًا وشهرة، يطيبان ذكرك وسط الممالك، بمقولة أنك البطل الفاتح الذى لايتهاون مع الطغاة والجبارين، ولايسكت عن الاضطراب والفوضى. لكنك يامولاى، إذا ذهبت اليوم لقتال هان وجرت عليها سيوفك وأسرت المزيد من رجالها وأمرائها، فلن يعود عليك ذلك إلا بالهوان والخسران وسط الممالك ، هذا بالإضافة إلى أن القاعدة العامة فى القتال تقرر بأن الهجوم على بلد ليس محلاً للتنازع ؛ مسألة خطيرة جدًا، ولكى أوضح لك

هذه النقطة الأخيرة، فلابد أن أذكرك بأن البيت الحاكم فى جو يعد بيت ملوك وأباطرة منذ الأزل، وهناك علاقات صداقة بينهم، وبين كلٍّ من دولتى تشى وهان، فإذا ما أدرك حاكم جو بأنه خاسر الإرث الإمبراطورى الأقدس، وكذلك شعرت دولة هان بأن نهر "سانشوان" مسلوب منها لامحالة، فسيتعاون البلدان معًا ويتحالفان مع دولتى تشى وجاو، ثم يطلبان العون والدعم من وى وتشو، فإذا ما قررت جو أن تتنازل عن الإرث الإمبراطورى المقدس لدولة تشو ، أو أرادت هان أن تهدى النهر إلى يو، فلن يملك مولاى أن يفعل شيئًا إزاء هذا الأمر، فذلك هو ما أراه عين الخطر، نظرًا لأن مهاجمة دويلة مثل شو يختلف عن مهاجمة "هان" . عندئذ أجابه ملك تشين بقوله: نعم الرأى إذن، ذلك هو ما سآخذ به ".

ثم إن دولة تشين جردت حملة عسكرية إلى تشو، فاحتلت أراضيها جميعًا فى بضعة أيام، وما لبثت أن قامت بترتيب الأوضاع وفق هواها، وأجرت التعديلات الملائمة، فغيرت لقب "ملك تشو " إلى "أمير الإقطاع"، ثم عينت "شين جوان" فى منصب رئيس الوزراء، وهكذا صارت تشو إمارة تابعة لدولة تشين الكبرى التى لمع نجم بهائها وقويت وعلت فى الأرض علوًا كبيرًا، حتى خافت بأسها كل الممالك.

لما راح تشانغى يكيد للوزير شوليجى

بلغ كيد تشانغى للوزير "شوليجى" أنه تظاهر بالتبجيل والاحترام البالغ لمكانة الوزير، حتى أنه قام بترشيحه للذهاب إلى دولة تشو لمهمة رسمية، بل سعى بكل جهده لدى حاكم تشو كى يتقدم بطلب رسمى لحاكم تشين للسماح له بتعيين شوليجى فى منصب رئيس الوزراء، وكان من جملة ما قال تشانغى لملك تشين:" إن الغرض من إيفاد "شوليجى" مبعوثًا رسميًا لدولة تشو ؛ توطيد دعائم الصداقة بين البلدين، فما بال جلالتك، وقد استقر به المقام هناك وحاز رضا حاكم تشو الذى طلب تعيينه رئيسًا للوزراء، بل بلغنى أنه قال للحاكم هناك ما نصه:" إن كنت تفكر جلالتك فى الإيقاع

بـ"تشانغى" فى ورطة ، أو أن تسىء إليه أمام البلاط الحاكم فى تشين، فدعنى أقدم لجلالتكم يد العون فى هذا السبيل فلما تأكد ملك تشو من صدق مقالته، سعى لدى جلالتكم للموافقة على تعيين شوليجى رئيساً لوزرائكم فى بلاط تشين، فإذا استجبتم لهذا الطلب، فسوف تسمحون له بالتجسس لصالح تشو، ثم إن ملك تشين اقتنع بهذا القول، وراح يعد للتنكيل بـ" شوليجى " إلا أن الأخير، فر هارباً من تشين.

لما فكر تشانغى فى التنازل عن هانجون

لما فكر تشانغى فى التنازل عن هانجون لدولة تشو،فقد توجه من فوره إلى الملك "هوى " حاكم تشين ، وقال له:" لاأرى يامولاى ، إلا أن منطقة هانجون هذه هى مصدر كل المتاعب وأس البلاء فكأنها شجرة خبيثة غرست فى أرض طيبة، فلا الشجرة اقتلعت ولا المصائب أدبرت، أو كأنها ثروة يتنازعها أشقياء؛ الكل يريدها لنفسه. ولئن تأملنا الوضع الآن، وجدنا أن القطاع الجنوبى من منطقة هانجون يقع ملاصقًا لدولة تشو، وهى تعد هذا الجزء حيويًا ومهمًا بالنسبة لها، وهو الأمر الذى يسبب بالغ القلق لدولة "تشين " وهنا تدخل "كانماو" ؛ ليقول لجلالة الملك ما نصه:" إن حجم القلق يتناسب دائمًا مع مساحة الأرض محل النزاع. وإنى أرى يامولاى ، أنه إذا ما تسببت هذه الأرض فى مشاحنات أو أدت إلى اضطرابات فى العلاقات بين الممالك، فلا بأس من التنازل عنها لصالح اتفاقيات الصلح المتبادلة ، وإقامة علاقات طيبة بين الدول بعضها ببعض ومع ذلك فلا أشك لحظة فى أن تشو لن تلتزم بمبادئ الود والصداقة وأنها سرعان ما ستنقض الصلح وتعود سيرتها الأولى. ولئن كان فى مقدور جلالتكم اليوم التنازل عن أرض بهدف إقامة علاقات ودية مع تشو، فماذا لو تفاقم التنازع والشقاق بين الممالك؟! هل ستجدون عندئذ ما تقدمونه عربونًا للصداقة مع تشو؟!".

لما قامت دولة تشو بالهجوم على وى

لما أعدت دولة تشو العدة لمهاجمة وى، ذهب تشانغى إلى دولة تشين، وقال ما نصه:" أرى يامولاى ، أن أفضل موقف يمكن أن تتخذه جلالتك فى هذه الأثناء هو أن تقوم بمساعدة "وى" بكل طريقة ممكنة، حتى تبلغ غاية القوة، وتتمكن من إحراز النصر على عدوتها ، فتظل تتذكر سابغ فضلك، وتنزل دائمًا على رأيك وتعمل بنصيحتك، ثم إنك تستطيع أيضًا أن تحصل منها على مدينة "شيها" الواقعة بالقرب من حدودك، أما إذا خانتها المقادير ووقعت فى إسار الهزيمة، فسيكون استعدادها القتالى، عندئذ، فى أسوأ أوضاعه، وهو أيضًا ما يمكنكم من الحصول على المدينة بأيسر محاولة. وبالفعل فقد أخذ جلالة الملك "هوى" حاكم تشين بنصيحة تشانغى، وقام بتجهيز جيش من أفضل جنوده، بلغ عدد أفراده عشرة آلاف مقاتل، وجهزهم بمعدات القتال، بالإضافة إلى مائة عربة عسكرية، وذلك لمساعدة دولة وى، وتقدمت القوات تحت قيادة "شيشو" (رئيس وزراء وى الأسبق) وأحرزت النصر على قوات تشو، لكن جيش وى كان قد بذل جهدًا خارقًا أثناء القتال مما استنفد طاقته الضاربة، فاستولى عليه الإنهاك ودبت بين صفوفه الفوضى، وهنالك أدركت وى حساسية الموقف الذى وجدت نفسها فيه خاصة أمام قوة وتعاظم ونفوذ تشين الكبرى، فأقدمت على التنازل عن مدينة "شيها" لدولة تشين.

لما ذهب تيان شين بديلاً عن الخطيب المفوه

ذهب "تيان شين " بديلاً عن الخطيب المفوه ورجل الدعاية "تشين جين " وذلك فى محاولة منع لإقناع ملك تشين بإحدى السياسات المقترحة، وكان أن قال للملك ما نصه:" أخشى أن يقع الملك فى المحظور الذى وقع فيه قائد قبيلة "قو" ذلك أنه لما أراد أمير دولة "جين" مهاجمة أرض "قو"، فقد أعد العدة لكل شىء، ولم يمنعه عن تنفيذ خطته إلا وجود طبيب القبيلة "جو جيشاو"، ومن المأثور فى كتاب (أخبار جو) عبارة ذات مغزى كبير، نصها كالتالى "إن امرأة بارعة الجمال تملك من النفوذ ما لايملكه

وزير ذو دهاء وحنكة ودراية، ومن ثم فقد استعان الأمير بواحدة من جنس النساء ذات حسن ورقة وأنوثة لامزيد عليها، فتمكن بواسطتها من إيقاع الفتنة والاضطراب بالخطط السياسية لأعدائه . وكان طبيب القبيلة "جو جيشاو" قد أخلص النصح لرئيسه، إلا أن أحداً لم يعبأ بما قال، فما كان منه إلا أن خرج من البلاد هائمًا على وجهه، فما لبث بعدها أن هجم أمير "جين" بقواته على القبيلة فأوسعها تنكيلاً وبطشًا فاستسلمت له سريعًا. ثم إن الأمير راح يفكر في غزو دولة "ويو" لكنه كان يخشى أيضًا من وجود رجل داهية يقطن بين جنبيها ؛ ألا وهو الطبيب الرسمي الخاص بالبلاط الحاكم "كون جيشي" وكان الطبيب الرسمي الشهير "شونسي" الذي عمل قديمًا ببلاط دولة "جين" يكرر دائمًا مقولة وردت في كتاب (أخبار جو) مفادها :" أن فتى صغير السن قد يغلب شيخًا محنكًا بدهائه وفطنته "، وهكذا فقد قرر الأمير إيفاد أحد الفتيان من موظفي القصر للإيقاع بـ "كون جيشي" (الطبيب الرسمي للبلاط الحاكم بدولة يو)، ولم يختلف مصير هذا الأخير عما لاقاه "جوجيشاو"، حيث وجد نفسه معزولاً عن البلاط الذي أصم أذنيه عن نصائحه، فرحل عن البلاد يهيم في الطرقات البعيدة، ولم يلبث الأمير أن وجد الفرصة سانحة لشن غاراته على دولة يو، فلم يتوانَ عن ذلك حتى بلغ غايته، ودك الحصون واستولى على البلاد بكاملها. أما وقد أصدرت جلالتكم فرمانًا، يعلن للدنيا تنصيبكم إمبراطورًا لدولة تشين الكبرى، فإن دولة تشو ستقف لكم بالمرصاد، وتبذل كل جهد للنيل من جلالتكم، ثم إنهم في تشو يعرفون الكثير عن أهم رجالكم، فهم يدركون مدى الجرأة والذكاء والنبوغ الذي يتحلى به "هوانمجون" أهم وأكفأ قادتكم العسكريين ويدركون أيضًا ما يتسم به "تشين جين " من سعة الحيلة والدهاء، ومن ثم فقد قاموا بتكليف "تشانغي" بالسفر إلى كل من الدول الآتية: وي، وهان، وجاو، ويان، وتشي، ومن المؤكد تمامًا أن مجيء "تشانغي" إلى تشين لم يكن الهدف منه سوى النيل من سمعة وكفاءة (هوانمجون وتشين جين) ، لذلك، أرجو من جلالة الإمبراطور عدم الإفراط في الثقة بذلك الرجل " وبالفعل، فلم تكد تمضي عدة أيام حتى قدم "تشانغي" إلى جلالة الملك "هوي" حاكم تشين الإمبراطور كتابًا يتضمن هجومًا على "تشين جين " وتسفيهًا لخصاله، وهو

الأمر الذى أثار غضب جلالة الملك، وأوقع فى نفسه الشك فى نوايا "تشانغى".

لما قدم تشانغى إلى جلالة الملك هوى

لما قدم " تشانغى" إلى جلالة الملك "هوى" حاكم تشين، راح يعدد المثالب التى وقع فيها "تشين جين "، قائلاً ما نصه:" أما ترى جلالتك أن "تشين جين" يروح ويجيء بين بلادكم ودولة تشو، فهو دائم التنقل بين اللذين لم يفلحا حتى الآن فى توطيد علاقات الصداقة بينهما، هذا بينما يحافظ هو نفسه على عهود الود بينه وبين تشو، أليس فى ذلك تضييع للمصلحة العامة سعيًا لمطمع أنانى!، ثم ما بالك لو علمت أنه ينوى الرحيل من بلادكم قاصداً الإقامة الكاملة فى تشو!! تلك أمور يامولاى تستحق من جلالتكم مزيد التقصى والمراقبة لأحواله". وهنا توجه جلالة الملك بالكلام إلى "تشين جين" ؛ ليقول له ما نصه:" أصحيح ما سمعته من ذهابك إلى تشو؟" فأجابه " تشين جين" بقوله:" لا أنكر أن هذا صحيح تمامًا يامولاى؛" فقال له الملك ما نصه: "إذن فقد صدقنا "تشانغى " القول فى هذا الشأن "فرد عليه تشين قائلاً: "الحق يامولاى ، أن كل الناس تعرف بأمر ذهابى إلى تشو، حتى عابرى السبيل فى الطرقات يعرفون ذلك، ولا يقتصر الأمر على تشانغى وحده" .

ثم واصل ليقول:" كانت الناس فيما مضى تتخذ من سيرة الأمير "شياوجى" مضرب المثل فى البر بالوالدين، حتى كانت كل الآباء والأمهات يتمنون أن يتخذوه ولدًا لهم وكذلك قيل فى "أوزدان" ما لا يزيد عليه من معانى الإخلاص والتفانى للوطن، حتى كانت كل القصور الحاكمة تحلم باستقدامه وتعيينه فى أرفع المناصب. إن العبد الذى يبيعه مولاه وهو راضٍ عنه، لهو أعز العبيد شأنًا، وإن الجارية التى إذا تنازل عنها سيدها اشتراها جارها لهى أحسن من كل الجوارى، وكذلك فإن المرأة التى ما هجرها زوجها، وجدت من يطلب ودها، من بين أهل نفس الدار المقيمة بها، لهى أكرم الزوجات جميعًا، ولا يخفى عنكم يامولاى ، أنى أنوى الذهاب إلى تشو، لكن ما ظنكم

برجل يخون سيده، أيمكن أن يطمئن إليه وإلى إخلاصه ووفائه السادة الآخرون، أما وقد شاع أن جلالتكم تريدون إبعادى عن القصر، فترى أين يمكن لى أن أذهب يامولاى، وليس أمامى سوى دولة تشو، وهى أقرب الجيران ؟". وهنا تفكر الملك قليلاً، ثم قال:" تريث وابقَ معنا، فأنت آمن تحت سلطاننا " ، وأصدر جلالته فرمانًا بإبطال كل الإجراءات المتعلقة بإبعاد "تشين جين" عن القصر.

لما غادر تشين جين دولة تشو إلى تشين

وحدث أن غادر "تشين جين" دولة تشو عائدًا إلى تشين، وهنالك، تحدث تشانغى إلى الملك "هوى " حاكم تشين، قائلاً ما نصه:" لاأدرى يامولاى ، كيف يصح أن يكون "تشين جين " هو وزيرك وموضع ثقة جلالتك ثم إذا به يخون هذه الثقة وينقل أدق أسرار بلاطك الحاكم إلى تشو اسمح لى يامولاى ، أن أقول لجلالتك بأنى لاأستطيع التعامل مع هذا الرجل بأى صفة وتحت أى وضع، بل أتقدم لجلالتكم راجيًا طرده من القصر، وإذا بدا لجلالتك أنه يزمع الرحيل إلى تشو، فلا معدى عن أن تأمروا بالتخلص منه "، فأجابه الملك بقوله:" وكيف يجسر تشين جين على الفرار إلى تشو؟ "، وقام الملك باستدعاء "تشين جين " فمثل بين يديه، فكلمه الملك ، قال :" اصدقنى القول، تفكر حقًا فى الرحيل إلى تشو؟، وكيف تحجب عنى قرارك هذا وأنا مليكك، أما كان يجدر بنا أن نزودك بمؤونة السفر، ونبذل لك ما تريد، ونجهز موكبًا يليق بمقامك عندنا!"؛ فأجابه "تشين جين"، بقوله:" الحق أنى أفكر فى الذهاب فعلاً إلى تشو"، فقال له الملك: "هكذا كان تشانغى يقدر أنك على وشك الرحيل، فهذا أمر لم يغب عن حدسنا على أية حال، وذلك أنى أعرف تمامًا أنك لن تذهب إلى أى بلد آخر". عندئذ رد عليه "تشين جين "، قائلاً: "الحق يامولاى ، أنى إذا خرجت من هذا البلد، فسأقصد عامدًا إلى تشو، لا لشىء، إلا لكى يصدق على حدس جلالتك، وظنون "تشانغى" بى فأنا فى قرارة نفسى لا أنوى الذهاب إلى هناك أصلا، لكنى سأمر بذاك البلد، كيلا أكذب

تصورك، احترامًا وتقديرًا لحدس أفكارك . لكن دعنى أقص على جلالتك حكاية رجل كان يعيش فى دولة تشو منذ زمان بعيد، وكان لهذا الرجل زوجتان، فذهب من وراء ظهره من راود زوجته الكبرى عن نفسها، فزجرته المرأة وطردته شر طردة، فلما قصد ذلك الصاحب الخائن إلى الزوجة الصغرى، وجدها طوع بنانه، وحدث أن توفى الزوج وانتقل إلى رحاب السماء، فذهب رجل طيب ونصح للذى راود الزوجتين، أن يتزوج بأيهما يريد لنفسه، فأجابه بأنه يريد أن يتقدم للزوجة الكبرى، فاستغرب الرجل الطيب وقال له:" كيف تطلب امرأة أهانتك وزجرتك عندما تقربت منها بينما ترفض الأخرى التى أحبتك ووافقت أغراضك ". فأجابه المراود:" بالطبع كنت أرجو أن أجد القبول لديها عندما راودتها، لكنى الآن وبعد أن أقترن بها، فلابد أنى سأجد عندها الإخلاص نفسه الذى تتدرع به لصد الغوايات الخبيثة."، ثم إنك تعلم يامولاى ، مدى الذكاء الذى يتمتع به حاكم تشو ، بالإضافة إلى ماتميز به رئيس وزرائه"جاويان" هو الآخر من فطنة ونجابة، ولابد أنهما سيرفضان بكل شدة أن يبقيانى بأرضهما أو يقربانى من مجلسهما، إذا ما علما بأنى أذيع أسرار الممالك التى عملت بها، وأفشى خبايا القصور، بحكم ما توفر لى من معلومات إبان وظيفتى بالبلاط الحاكم، أفتظن جلالتكم أنى أستطيع بعد كل هذا أن أذهب حقًا إلى تشو؟!".

فلما ذهب "تشين جين " إلى حال سبيله، وجاء "تشانغى " إلى الملك وسأله بما نصه :" مازلنا لم نتحقق بعد من احتمال ذهاب "تشين جين " إلى تشو من عدمه" فأجابه الملك بقوله :" الحق أنى ما وجدت بين الناس جميعًا من هو أكثر دهاءً من هذا الـ "تشين جين " ذلك أنى باغته بالسؤال عن موضوع ذهابه إلى تشو، حتى نظر إلى وتأملنى برهة وأجاب بما مفاده أنه لابد ذاهب إلى هناك، فلم أدرِ بم أجيبه لكنى قلت له على الفور بأنه مادام الأمر كذلك، فقد كان تشانغى على حق فيما رواه بهذا الآن، فرد علىَّ قائلاً بأن كل الناس تعرف أنه مسافر إلى تشو، وليس تشانغى فقط هو الذى تفتق ذهنه عن كشف المستور، ثم ذكر لى شيئًا من أمثلة شهيرة حول الوفاء الذى أظهره الأمير "أوزدان" نحو ملك دولة "أو"، ومدى تعلق الأمراء به وحب الناس له،

وإشادة الملوك بخصاله الجليلة، ورغبتهم فى تقريبه إلى بلاطهم، وكذلك ضرب لى مثلاً حول وفاء " شياوجى" وبره بوالديه، بالدرجة التى جعلت الآباء جميعًا يرجون أن يكون لديهم ولد مثله، وذكر شيئًا معناه أن الجارية التى يشتريها جارها من سيدها الذى باعها بالأمس، لهى أفضل الجوارى جميعًا، وأن المرأة التى طلقها زوجها، فوجدت من يطلب يدها فى الحال، تعد من أحسن النساء، وأضاف أنه ما لم يكن وفيًا مخلصًا لى، فكيف يمكن لحاكم تشو أن يقربه منه ويجتبيه وهكذا فقد أعجب جلالة الملك "هوى" حاكم تشين بما قاله "تشين جين " واستحسن منطقه، فأقال عثرته، وتلطف معه، وعامله بالحسنى.

سجل تشين الثانى

لما ساندت دولة تشى دولة تشو

ساندت تشى دولة تشو فى الهجوم على تشين، واستطاعت كلتا الدولتين انتزاع إقليم "تشيوو" من الدولة المهزومة، ثم إن تشين راحت تعد العدة لشن حملة تأديبية على "تشى" للثأر من الهزيمة التى منيت بها ولخسارتها بفقد الإقليم المشار إليه، إلا أن حاكم تشين - الملك هواى - راح يتأمل الأمور وقد استولى على قلبه القلق، وذلك لما بين تشى وتشو من علاقات ودية، ولم يلبث أن استدعى تشانغى ليفضى إليه بأفكار قلبه، وقال له ما نصه:" هأنذا أفكر جدياً فى معاودة القتال مع تشى، ولكن أكثر ما يقلقنى هو ما بينها وبين تشو من تحالف وعلاقات ودية فانظر كيف يمكن أن أجد خطة جيدة للتعامل مع هذا الموقف ؟ "، فأجابه تشانغى، قائلاً : "فائذن لى يا جلالة الملك بالحصول على عدد وافر من العربات الحربية والجياد والهدايا، ودعنى أذهب أستطلع دخائل الأمور بنفسى."، وحدث أن ذهب تشانغى إلى الحدود الجنوبية، فعبرها وطلب لقاء حاكم تشو - الملك هواى - وكلمه قائلاً : " أريد أن أؤكد لجلالتكم يامولاى ، مدى الحب والود والإعجاب الذى يكنه مليكنا لشخصكم الكريم، هذا بالإضافة إلى أنى، بالأصالة عن نفسى، ما أحببت فى حياتى قط أن أعمل مستشاراً لدى أى حاكم آخر سوى جلالتكم، لكنى أود أيضاً أن أذكر لفخامتكم أن مليكنا الكريم لم يبغض فى حياته قط أحداً من الملوك قدر بغضه للملك "وى" حاكم تشى ، وأضيف لذلك أننى أيضاً أشارك ملكنا نفس المواقف والمشاعر، والآن فنحن نرى أن أحداً فى الدنيا لم يرتكب جريمة فى حق بلادنا مثل ملك تشى، وهكذا فقد قررنا معاودة القتال معه، لكننا، للأسف لانملك فى الواقع أن نشاوركم فى هذا الأمر، نظراً

لما يربطكم بـ"تشى" من علاقات ودية، ولا أنا أيضًا أستطيع أن أكون مستشاركم فى هذا الشأن، لكنى أؤكد لجلالتكم أنكم إذا أغلقتم نقاط الحدود الرئيسية بينكم وبين دولة تشى فيمكننى أن أطلب من ملك تشين أن يتنازل لكم عن إقليم "شانغيو"، وهو الوضع الذى يبلغ محيطه ستمائة كيلو متر، فإذا ما وقع فى حوزتكم هذا الإقليم تبدلت عناصر الأهمية الجغرافية، وبالتالى تعرضت دولة تشى لخطر بالغ وفقدت المزايا الدفاعية الفريدة التى كانت تتحلى بها، وعندئذ، ستجد نفسها رهن مشيئتك؛ أى إن الوضع سيصبح كالتالى: فى الحدود الشمالية، تفقد تشى الكثير من قوتها، وهو ما يضمنه لك ملكنا المفدى، وفى الحدود الغربية، تستطيع جلالتكم أن تحصلوا على إقليم شانغيو من دولة تشين، إذا ما أبديتم قدرًا من النوايا الطيبة. وهكذا تستطيعون أن تحصلوا على ثلاث مزايا وفق الخطة التى أعرضها على جلالتكم."

الجزء الثانى من الفصل نفسه

فما إن سمع الملك "هواى" – حاكم تشو – هذا الرأى حتى طابت نفسه وتهلل فرحًا، فأصدر فى الحال فرمانًا يقول فيه ما نصه:" نعلن للدولة خبر حصولنا، نحن ملك تشو على إقليم شانغيو، ذى المساحة الهائلة المشهورة، وهو من أهم الأقاليم التى ستؤول إلى ملكيتنا، وتقع تحت نفوذنا "، وعندئذ، قدم جميع الوزراء على الملك لتهنئته بهذا الخبر، وكان آخر ما تقدم إلى الملك الوزير "تشين جين" وفوجئ كل الحاضرين بأنه الوحيد الذى لم يعرب عن سعادته وتهنئته، فاستغرب الملك، وقال له ما نصه : " أما ترى أنى أحصل على إقليم بهذا الاتساع وعلى قدر من الأهمية الجغرافية، دون أن أدفع لذلك ثمنًا أو أن أريق دم جندى واحد فى معركة، أليس ذلك تصرفًا ذكيًا وفطنة أريبة، فكيف بك تتقاعس دون الجميع عن تهنئتى بهذا الفوز ؟"، فأجابه بما نصه:" حسب ما يبدو لى يامولاى، لاأرى أن بإمكاننا الحصول حقًا على هذا الإقليم، وبالتالى، فالخطر يظل كامنًا ومعلقًا فوق الرؤوس، وهكذا لاأجد مبررًا يدعونى

للمشاركة فى حفل التهانى "، فدهش الملك وسأله أن يوضح الأسباب على نحو أكثر تفصيلاً، فأجابه "تشين جين" بقوله:" لاشك فى أن السبب وراء اهتمام ملك تشين بموقف جلالتك إنما يرجع إلى ما يربطكم بدولة تشى من علاقات طيبة، والآن فإن جلالتك على وشك أن تقطع هذه العلاقات دون أن تحصل على الإقليم المشار إليه، وهو ما سيضعنا فى موقف العزلة وبالتالى تضيع منا الميزة التى تجعل لنا وزنًا عند تشين، ذلك أن هذه الأخيرة لن تهتم بدولة معزولة مثلنا، أما إذا طلبنا من تشين تسليم الأرض قبل أن نبدأ فى إجراءات قطع العلاقات مع تشى، فلا أظن أنهم سيجيبوننا إلى ذلك حسب ما يتضح من خطتهم، ومن ناحية أخرى فإذا بادرنا إلى قطع العلاقات مع تشى، ثم ذهبنا إلى تشين نطلب منها الأرض التى وعدتنا إياها، فلا بد أننا سنتعرض لخديعة يتفتق عنها ذهن الداهية تشانغى، فنعود خاسرين نعض بنان الندم، ولكن الأسوأ من هذا كله هو ما سينجم بعد ذلك من خطر حقيقى يتهددنا على الحدود الغربية من قبل تشين، وخطر آخر أسوأ منه يواجهنا على الحدود الشمالية، بعد أن نكون قد قطعنا علاقتنا بدولة تشى، وهو ما يعنى أننا سنجد أنفسنا مواجهين بزحف جيشين ضدنا من جانب تشين وتشى."، وهنا عبس الملك بوجهه وأصم أذنيه عن سماع المزيد من كلام محدثه، وقال:" دعك من هذه الأباطيل والأوهام وأطبق فمك على لسانك ولاتنبس بكلمة أخرى، فقد رأيت الرأى الصحيح وستعرف فيما بعد أنى كنت أبعد بصرًا وأنفذ بصيرة، وسأتصرف على النحو الذى ارتأيته، ولن أضيع الفرصة."، وبالفعل، فقد سارع الملك بإرسال مبعوث عاجل للتباحث بشأن تجميد العلاقات مع تشى، وقبل عودة المبعوث، كان قد بادر إلى إرسال وفد لإتمام إجراءات قطع العلاقات تمامًا ونهائيًا. وفى تلك الأثناء كان تشانغى قد عاد إلى تشين، وفى غضون أيام توجه وفد رسمى إلى تشى، وذلك للعمل على إقامة علاقات رسمية طبيعية بين البلدين، على أن يتم ذلك فى أجواء محاطة بالتعتيم، ورغم ذلك فقد كانت دولة تشو تثق فى وعود تشانغى لها، فأوفدت قائد قواتها المسلحة لتسلم الإقليم الذى قيل إنه سيهدى إليها، إلا أن تشانغى اعتذر عن عدم مقابلة القائد العسكرى الكبير متعللاً بإصابته بوعكة صحية. ووقع فى ظن الملك هواى – حاكم تشو – أن

تشين متشككة فى مقدرته على قطع العلاقات مع تشى، فأرسل جماعات من عتاة المجرمين إلى الحدود بينه وبين تشى ليسبوا ملكها بأقطع السباب، ويثيروا الفوضى والقلاقل، فلما تيقن تشانغى من قطع العلاقات بين تشى وتشو، تحامل وذهب متثاقلاً إلى مبعوث تشو، وقال له:" تعالَ نقيس قطعة من الأرض، ستة أميال بالطول، ومثلها بالعرض، وأنا أقطعك إياها عن طيب خاطر من جانبنا "، فأجابه المبعوث الكبير، بأن الأرض المتفق على تسلمها يبلغ محيطها ستمائة ميل وليس ستة أميال طولاً فى عرض، فأجابه تشانغى بقوله:" لكننا فى الواقع لانملك سعة من الأرض تسمح لنا بالتنازل عن رقعة كبيرة بهذا الحجم."، وهنالك عاد المبعوث إلى تشو وأبلغ البلاط الحاكم بما سمعه، فاستشاط الملك غضبًا، وفكر فى شن حملة تأديبية على تشين، فتقدم "تشين جين" من الملك واستأذنه فى أن يتحدث إليه، فسمح له الملك، فتكلم قائلاً : "ليس من الصواب مهاجمة تشين، والأفضل من ذلك أن تنتهز جلالتكم هذه الفرصة لتقوم بعرض سخي إلى تشين، وذلك بأن تتنازل عن قطعة كبيرة من الأرض، مقابل أن تتعاون معها فى إعلان الحرب على تشى، وعلى أية حال، فإن الأرض التى سنعطيها لـ " تشين " سوف نقطعها من تشى، وبذلك (تتوازن الكفتان) يكتمل لنا ما نقص منا. أما وقد قمتم جلالتكم بقطع العلاقات مع تشى وفوجئت بخديعة تشين، واستنكرت فعلتها المشينة، فلن تملك إلا أن تستيقظ غدًا لتجد تشين قد اتحدت مع تشى، ونكون نحن الخاسرين فى كل الأحوال."، ولم يأتِ هذا القول بما يشتهى أن يسمع الملك، فجهز الجيش وأعد العدة لمهاجمة تشين، وحدث فى تلك الأثناء أن اتحدت فعلاً تشين مع تشى، ثم لحقت بهم هان، أما تشو فقد تكبدت قواتها خسائر فادحة، فى إقليم "دولينغ" حتى كادت قوات الجيش والمدنيين يهلكون عن آخرهم، وكان ذلك كله راجعًا لسببين: أولهما: تجاهل الخطة الذكية التى تصورها "تشين جين" ، وثانيهما: الثقة الزائدة فيما تفوه به تشانغى من وعود معسولة وأمانٍ جميلة.

لما قطعت العلاقات بين تشى وتشين وتشو

لما قطعت العلاقات بين تشو و تشى، وقامت قوات الدول المتحدة بشن غاراتها على تشو، وعندئذ ذهب "تشين جين" إلى الملك هواى - حاكم تشو - وقال له: "الرأى يامولاى ، أن تبادر إلى التنازل عن قطعة أرض عند الحدود الشرقية لدولة تشى على سبيل التصالح معها وإعادة العلاقات الودية، ثم تسعى لإقامة علاقات سلمية مع دولة تشين عند الحدود الغربية ". وقام الملك بإيفاد" تشين جين " إلى دولة تشين، حيث استقبله الملك هواى، وقال له:" قد عرفنا أنك أصلاً من مواطنى دولتنا "تشين العظمى " هذا بالإضافة إلى ما بينى وبينك من ود قديم وصداقة وطيدة، وأنت تعرف مقدار طيبة قلبى، وتعرف كذلك أنى لاأملك من الذكاء وتوقد القريحة، ما يجعلنى قائداً فذًا، لذلك فقد آثرت أنت أن تبتعد وتذهب إلى بلاط دولة تشو، وها قد جاءت الأيام بمشاكلها المعقدة، وصارت المعارك الطويلة على وشك أن تدب بين كل من تشى وتشو، والبعض يرى أن الخير إيقاف مسلسل التوتر القائم بينهما، وهناك من يرون بأن الخير كله فى أن تندلع شرارة القتال ولا أدرى أى الرأيين أفضل، ألا تستطيع أن تجد وقتًا بعد فراغك من المشورة على تشو أن تشير علىّ بآرائك السديدة ؟"، فأجابه "تشين جين " بقوله: " أما سمعت يامولاى بحكاية الرجل الذى ذهب من دولة "أو" إلى تشو للعمل بوظيفة رسمية فى القصر الملكى، وكان الملك يعطف عليه كثيراً، فلما مرض الرجل، أرسل إليه الملك رسولاً يعوده، وسأل عن أحواله وحقيقة مرضه، وعما إذا كان الرجل معتلاً حقًا أم هو مشتاق إلى وطنه، فأجابه الرسول قائلاً:" لا أدرى يامولاى ، إن كان الرجل مشتاقًا إلى وطنه أم لا ؟، لكنى أظن أنه لو كان يكابد البعاد، لتكلم إلى على الأقل بلغة البلاد المحلية، أما سمعت يامولاى بالتعليقات الشهيرة لـ"كوانيو" ؟ (شخصية لاتتوافر لها ترجمة ذاتية لدى تحقيق النص) على أية حال، دعنى أقص عليك شيئًا من تلك التعليقات. فقد قيل قديمًا إن نمرين هجما على أحد الأشخاص، وأراد كل منهما أن يفترسه وحده، فتعاركا، وطال بينهما العراك، حتى لمحهما البطل الشهير" بيانجوانز" فأراد مواجهتهما وقتلهما، فوقف فى طريقه كوانيو، وقال له : "إن

النمور حيوانات شديدة الافتراس، وليس على الأرض شيء أشهى عندها من لحم البشر، وهذا هو السبب فى أن النمرين يتقاتلان ليفوز أحدهما بالغنيمة كاملة، ولابد أن الأمر سينتهى بأن الكبير منهما يتغلب على الصغير، فيقتله لكنه سيكون قد نزف كثيرًا هو الآخر، ولكثرة العراك، فما عليك إلا أن تتريث برهة من الزمن حتى تنهكه جراحه، فتجهز عليه، فتصيد نمرين معًا بضربة واحدة، فتذيع شهرتك فى الآفاق ويتكلم الناس عنك بكل فخر وإعجاب". والآن فقد وقعت الحرب بين كل من تشى وتشو، وسينتهى الأمر باندحار أحدهما لامحالة، وعندئذ، تستطيع يامولاى أن ترسل نجدتك للفريق المهزوم، وإنه لمن الخير لك أن تفوز بشرف مساعدة تشى من أن يصيبك عار الهجوم على تشو. إن المقدرة على المناورة والتخطيط والحسم، وبالإضافة إلى التنبؤ بكيفية تطور الأحداث من الخصال المعهودة فى جلالتك. والتخطيط يامولاى ، هو أساس كل عمل، أما الحسم فهو مفتاح الوجود، ثم إن أى عيب يعتور التخطيط السياسى أو القرارت الحاسمة، لن يعود على البلاد إلا بأوخم العواقب، لذلك، فقد قيل:" إن الدأب على التخطيط والحسم الواعى بالمبادئ يصد عن الاضطراب والفوضى ".

لما توفى الملك هواى - حاكم تشين -

لما توفى الملك هواى - حاكم تشين - أراد " كونسونيان" أن يضيق الخناق على تشانغى، وهنا تقدم" ليتشو"(لاتتوافر ترجمة ذاتية عنه لدى محقق النص الأصلى)، وقال لـ " كونسونيان" مانصه:" أرى ياسيدى أن تستدعى كانماو من دولة وى، ثم تستدعى " كونسونيان" من هان، وتعيد تنصيب تشوليز فى موقعه الوظيفى فى تشين، فهؤلاء الثلاثة الذين عددتهم لك هم أبغض أعداء تشانغى، فإذا ما قربتهم إليك أدرك الجميع فقدان تشانغى لمكانته ولنفوذه فى بلاط تشين الحاكم."

لما ذهب حاكم دويلة إيتشو إلى دولة وى

ذهب حاكم دويلة " إيتشو " إلى "وى"، واستقبله "كونسونيان "، وقال له ما نصه:" إن الطريق بين بلدينا طويل جداً، ولعلى لا أراك بعد هذه المرة، فدعنى أقص عليك حقيقة الأمور."، ورحب حاكم إيتشو بهذا الكلام مؤكداً رغبته فى أن ينصت إليه باهتمام، فواصل كونسونيان قائلاً:" أريد أن أقول لفخامتكم ، إنه لو لم تقم الدول الست بحملة تأديبية على تشين فستقوم هذه الأخيرة بغزوكم وتحطيم بلادكم عن آخرها، أما إذا شنت هذه الدول الست الحرب على تشين، فسوف تبادر هذه إلى طلب مؤازرتكم لها باذلة فى ذلك كل رخيص وغالٍ، ولعلها تمنحكم أثمن الهدايا والعطايا."، فتقدم حاكم إيتشو شاكراً لمحدثه توعيته بهذه التفاصيل. ولم تكد تمر أيام، حتى قامت جيوش البلاد الخمس: تشى، وسونغ، وهان، ووى، وجاو، مجتمعة بالهجوم على تشين، فذهب "تشين جين" إلى حاكم تشين وقال له:" إن حاكم إيتشو واحد من أذكى وأنبل حكام القبائل البعيدة، وأرى أن تقوم يامولاى ، بإهدائه أنفس الهدايا حتى تجد قلبه ونفسه مودة وإخلاصاً ". وبالفعل قام ملك تشين بإرسال ألف فرس محملة بأثواب الحرير ومائة جارية من أجمل الجوارى إلى حاكم إيتشو. فلما وصلت الهدايا إلى إيتشو قام الحاكم وجمع إليه الوزراء ليشاورهم، وقال لهم مانصه: "ترون جميعًا أن إرسال الهدايا من قبل تشين لهو دليل على صدق ما بلغنا من كونسونيان."، ثم جهز جيشًا وتقدم به غازيًا تشين، وتكبدت هذه الأخيرة خسائر فادحة فى إقليم "لى بو".

لما ذهب الطبيب الشهير بيان تشو للقاء الملك

ذهب الطبيب الشهير "بيان تشو" للقاء الملك "أو" حاكم تشين، فاشتكى إليه الملك أعراض مرضه، وأراد الطبيب فحص الملك بدقة ليعرف موطن الداء، فبادره أفراد الحاشية المحيطين بالملك بقولهم:" إن المرض يتركز فى المنطقة الأمامية من الأذن،

تحت الجانب الأيمن من العين اليمنى ولن يكون العلاج حاسمًا بحيث يستأصل المرض من جذوره، وربما تأثرت قوتا السمع والإبصار من جراء ذلك "، ثم إن الملك راح يردد للطبيب نفس هذا التشخيص الذى قالته الحاشية، فاستشاط الرجل غضبًا وألقى على الأرض بأدواته الجراحية، وهو يقول ما نصه: "أرى أن جلالة الملك يشاور أهل الطب فى شئون التخطيط السياسى، بينما يحاور أهل السياسة فى شئون الطب والعلاج، وهو ما يمكن أن يودى بحياته، ولئن كانت هذه هى الطريقة التى تدار بها شئون الدولة، فسينتهى الأمر بضياع البلاد."

لما استقبل الملك أو حاكم تشين

لما استقبل الملك "أو" حاكم تشين الوزير كانماو، قال له:" أفكر جيدًا فى استخدام القوات لعمل نفق سرى تحت نهر سانشوان، وذلك لكى أتمكن من استطلاع الموقف على جبهة دولتى جو، حتى إذا وافانى الموت، تركت مأثرة يذكرنى الناس بها على الدهر"، وهنا أجابه كانماو بقوله:"دعنى أذهب إلى وى كى أتفق معهم على شن حملة تأديبية مشتركة على" هانكو" ووافق الملك وأرسل برفقته نائبًا له هو "شيان شو"، فلما وصلا إلى وى، وتكلم كانماو مع"شيان شو"، قال له:" ارجع إلى الملك، وقل له إن دولة وى على استعداد لأن تسمع منا مانعرضه عليها، لكنا نرجو منك يامولاى ، ألا تبادر إلى شن الحملة التأديبية، فإذا ما أتممت تلك المهمة على خير وجه، فسأذكر الفضل فى أى إنجاز لاحق لجهودك أنت وذكائك "، وبالفعل فقد رجع شيان شو إلى الملك وأخبره على النحو الذى كان، وذهب الملك إلى إقليم "شيرانغ" ؛ ليكون فى استقبال كانماو، فلما مثل هذا بين يديه، سأله الملك عن السبب فيما أخبره به، فأجابه بما نصه:" إن إقليم إيانغ واحد من أكبر المناطق مساحة ، فهو الموضع الذى تجمعت بل تراكمت فيه على مدى السنين ثروات من منطقتى شاندانغ ، ونانيانغ ، ولضخامة ما اكتنز فيه من الموارد، فلا يصح أن نسميه إقليمًا بل هو ولاية زاخرة بالخير يامولاى، ولا أخفى عن جلالتك سرًا ، بأن أى جهد عسكرى لاقتحام المواقع أو تسلق الجبال

الوعرة لضرب وى، تكتنفه مصاعب لاحصر لها، وقد بلغنى أن تشانغى قد ضم أراضٍ من دولتى "با " و "شو"، وقد حصل على منطقة "شيها" فى الشمال، أما فى الجنوب فقد استولى على "شيانيون " وليس على وجه الأرض جميعًا أحد الآن يمتدح فعال تشانغى بل يرى الجميع أن الملك " شيان " هو الأكثر كياسة وذكاء وحكمة، ولما قرر الملك " ونهو" حاكم وى مهاجمة دولة "جونشان" فقد جعل على رأس الجيش، القائد المحنك "يويانغ" واستطاع هذا الرجل بمقدرته الفذة أن يحقق النصر التام على أعدائه بعد ثلاث سنوات، فلما عاد إلى بلاده ليتلقى التهانى على ما حققه من مآثر طيبة لبلده قابله الملك وسلمه كتابًا يحوى تقييمًا طيبًا واعترافًا بما حققه من إنجاز عظيم، فانحنى"يويانغ" وركع على الأرض أمام الملك، وقال له مانصه: "الفضل كله يامولاى للقيادة العليا وليس لشخصى الضعيف، ثم إنى مجرد واحد من رجالك يامولاى، ولديك هنا فى القصر آخرون مثل تشولنجى، وكونسونيان يقبضون بيد محكمة على دولة هانكو، فإذا ما جرى تقييم جهودى، فلابد أن جلالتك سوف تميل إلى تصديقهم، وهو ما يعنى أن جلالتكم ستوقعون بدولة وى فى إسار الخديعة، وهذا ما سيعرضنى لتأنيب ولوم القائد العسكرى الكبير " كونجون شى" – أشهر قادة هان، إليك هذه القصة يامولاى: كان فيما مضى رجل طيب يدعى سنزى (شقيق الفيلسوف الحكيم كونفوشيوس) وكان يقيم ببلدة"فانى" وتصادف أن رجلاً آخر بذات الاسم كان يقيم بنفس البلدة، وحدث أن اعتدى هذا الأخير على غريم له فقتله، وذهب من يقول لوالدة الرجل الطيب إن ابنها ارتكب جريمة قتل، فأنكرت الأم أن يأتى ولدها بمثل هذه الفعلة النكراء، وظلت جالسة مكانها تغزل الثوب دون أن يطرف لها جفن، وبعد برهة جاءها من يردد للمرة الثانية إن ابنها ارتكب جريمة قتل، فبقيت ساكنة مكانها وهى تغزل الثوب، وجاء للمرة الثالثة من يخبرها بذات الخبر، وهنا استولى الخوف على الأم، فذعرت وألقت مابيدها من خيوط ومغازل، وركضت خارج البيت فى هلع، وهكذا يامولاى فإن رجلاً طيبًا مثل سنزى بكل ما يعرف الناس عنه من صفات، وبرغم ما تعرف والدته عنه من خصالٍ كريمة، لم تلبث بعد ثالث مرة من اتهامه بالقتل أن ارتبكت وداخلها الظن والشك فى سلوك ولدها، وهى أكثر الناس إلمامًا بطباعه

وشخصيته أما وإن خصالى لاتفوق ما يتسم به سنزى من مزايا، فلا أظن أن تصديق مولاى لما يمكن أن يثار عنى من أقاويل سيكون أرسخ وأعمق من تصديق والدة سنزى عما يتصف به ولدها من صفات، كما لاأظن أيضًا أن من يتهموننى بأبشع التهم يقتصرون على ثلاث فقط، وبالتالى فليس بعيداً أن ينفض جلالة الملك ما بيده من أثواب ومغازل بعد المرة الثالثة تمامًا". وهنا أجابه الملك بقوله:" لن أستمع إلى وشاية ضدك وليكن بينى وبينك عهد وميثاق." وهكذا فقد تم عقد ميثاق بين الملك وكانماو فى إقليم شيرانغ.

لما تحدث فنجانغ مع ملك تشين

لما تحدث فنجانغ مع ملك تشين حول معركة إيانغ، قال ما نصه:" اعلم يامولاى ، أنك إن لم تستولِ على إيانغ فستتحد الدولتان تشو، وهان معًا، وتنتهزان فرصة ضعف الأحوال الذى أصاب قواتنا فتهاجماننا، وتتعرض البلاد لمخاطر شديدة، والأفضل أن نتنازل عن إقليم هان جزن لدولة تشو، فنكسب ودها، ونتجنب غزوها لأراضينا، وهنالك تجد هان نفسها معزولة عن زميلتها، ثم إنى لا أجد أمامنا بديلاً معقولاً عن هذا التصرف، فلا مفر لنا من أن نقدم على مثل هذه الخطوة."

وهنا استحسن الملك الفكرة ووافق عليها، بل إنه أعد العدة للتنفيذ وبالفعل أوفد فنجانغ لتسليم إقليم هانجون لـ "تشو" ، ليفرض عليها عزلة قسرية، وهو ما يعنى أن دولة تشين قد أصابت أهدافها بشأن إقليم إيانغ الواقع فى دولة هان.

وحدث أن ذهب ملك تشو بنفسه إلى دولة تشين؛ ليطالب بتسليم إقليم هانجون، حسب الوعد الذى قطعه إياه فنجانغ، وهنالك تكلم هذا الأخير مع ملك تشين قائلاً له ما نصه:" تستطيع يا جلالة الملك ، أن تعلن على الملأ خبر هروبى من البلاد سراً، وأن جلالتك لا توافق على التنازل عن الإقليم لـ " تشو" لأنكم لاتوافقون فنجانغ على وعده الذى أعطاه بصفته الشخصية أساسًا، وبما أن هذا المشار إليه لايعثر له

على محل إقامة باعتباره هاربًا، فلا تجوز المطالبة بتنفيذ الوعد الذى أعطاه عن نفسه شخص هارب."

لما قاد كوانمو الجيش لاحتلال إقليم إيانغ

لما قاد "كوانمو" الجيش لاحتلال إقليم "إيانغ"، حدث أن أصدر أمرًا بالهجوم ثلاث مرات دون أن تفلح القوات فى التقدم للأمام حسب الخطة الموضوعة وهنالك أسرع إليه قائد الميمنة ليبلغه بأن الإخلال بالقواعد العسكرية المعهودة فى قيادة الجيوش يمكن أن يضع القائد الأعلى فى مأزق شديد، وأن تعرضه لأسوأ العواقب، فرد عليه كوانمو قائلاً ما نصه:" برغم أنى لست من مواطنى دولة تشين الأصليين، فإنى أحد الرعايا الذين أثبتوا إخلاصًا وجدارة حتى بلغوا حد الترقى إلى منصب رئيس الوزراء ، وما كان لى أن أقوم بقيادة الجيش لاحتلال "إيانغ "، إلا بعد أن علمت أن ذلك سيدخل السرور إلى قلب الملك، وأكثر ما أخشاه الآن هو أن أعجز عن اقتحام الإقليم، فيجد كل من كونسونيان وتشوليزى الفرصة المواتية للإيقاع بى، والنيل من شخصى، ومن الناحية الأخرى فلابد أن رئيس وزراء هان (كونجون) سيعمل على إذلالى فى حال طردى خارج البلاد، فإذا لم أتمكن فى الغد من اقتحام أسوار "إيانغ"، فستكون مقبرتى قبالة تلك الأسوار شاهدًا على فشلى الذريع."، ثم إنه رصد أمواله كلها للإنفاق على المكافآت والجوائز لمن يبلى بلاءً حسنًا فى القتال، فما أن طلع نهار اليوم التالى حتى أغارت القوات على الإقليم واشتد أوار المعارك.

لما صمد إقليم إيانغ تحت المعارك

لما صمد إقليم إيانغ تحت المعارك، وتكبدت قوات تشين خسائر فادحة فى الأرواح، ذهب "زوشنغ" إلى كوانمو، وقال له:" أرى أن موقفك فى غاية الصعوبة، فأنت تواجه فى الداخل تحرش تشوليجى ، وكونسونيان، بينما تتعرض فى

الخارج لانتقام رئيس وزراء هان منك، فإذا لم تتمكن من إحراز تقدم على الجبهة العسكرية، فسوف تتعرض للمذلة والهوان، فحاول أن تعاود المحاولة بالهجوم مرة تلو الأخرى، ذلك أن احتلالك لهذا الإقليم، سيعد أحد أعظم إنجازاتك الناجحة، وهنالك، لن يجد مبغضوك سببًا للحط من قدرك، فتمتلئ النفوس منهم نفورًا، ويصغر شأنهم فى عين الناس."

لما خانت دولة تشو ميثاقها مع تشين

لما خانت دولة تشو ميثاقها مع تشين، وأعلنت الوحدة مع هان، وأسقط فى يد حاكم تشين، فلقيه كانماو، وقال له:" برغم ما يبدو لى من شكل الوحدة بينها وبين هان فإنها لن تبادر بإطلاق الحشود وشن الغارة ضد تشين، وتخشى هان إن هى هاجمت تشين وأبلت على جبهة القتال بلاءً حسنًا أن تثور الفتن من ورائها على يد تشو، وهكذا فستبقيان كلتاهما ترقبان تحركات الأخرى، ولئن زعمت تشو أنها ترتبط بعلاقات وحدة رسمية مع دولة هان، إلا أنها لم تصرح بأية نوايا طموحة مع تشين، وهكذا فإنى أظن أن العلاقات بين تشو وهان تضع قيودًا عليهما وتحد من تحركاتهما.

لما تكلم حاكم تشين مع كانماو

تكلم حاكم تشين مع كانماو، فقال له: "قد لاحظت أن أعضاء الوفود الدبلوماسية الذين يأتون إلينا من تشو يتقنون فنون القول والفصاحة والبيان حتى أنى فى كثير من المرات أجد نفسى عاجزًا عن مجاراتهم، بل قد تتغلب حجتهم ويسود منطقهم فلا أقوى على إقناعهم، فما السبيل إلى إتقان فنون الجدل وإيراد الحجج واستيفاء البرهان مع مثل هؤلاء ؟"، فأجابه الوزير بما نصه:" لاعليك يامولاى، فالأمر أيسر مما تظن، وذلك أنه إذا جاءك أولئك المجادلون فلا يغرنك ما يقولون وما يسوقون من

فصيح القول وعذب الحديث، بل اصمم آذانك عما يتحدثون به، أما إذا حضر إليك المبعوثون الذين تطرف عيونهم لرؤياك وتتلجلج ألسنتهم فى حلوقهم عند الحديث معك، فلا بأس من أن تصيخ إليهم السمع، وهكذا فإذا أغلق بابك دون كل متفاصح، وصار المتلجلجون هم أكثر الناس حظوة عندك، وتلك هى الوسيلة التى تستطيع بها أن تروضهم أيما ترويض. "

لما تكلم كانماو أمام الملك

تكلم كانماو أمام الملك بما يسيء إلى كلٍّ من تشو ، وكونسونيان، وحدثه قلبه بأنهما ربما يفتكان به، فولى هاربًا من تشي، فبينا هو على الطريق قبالة ممر "هانكوكوان" إذ التقى بـ" سوادى" (مبعوث دولة تشى إلى تشين)، وقال له ما نصه: " أما سمعت بحكاية الفتيات اللاتى كن يقمن ببلدة "جيانغ" ؟ "، فلما بدا سوداى أنه لم يسمع بها من قبل، أجابه:" كانت تقيم عدة فتيات، منذ زمن بعيد، ببلدة "جيانغ"، وكانت إحداهن فقيرة لاتجد ما تشترى به عودًا من الشمع، فتحادثت باقى الفتيات بشأنها ورأين أنه من الأفضل لها أن ترحل بعيدًا عنهن مادامت تعيش فى تلك الحال المزرية، فلما تجهزت البنت الفقيرة للرحيل، التفتت إليهن قائلة:" أما دريتن أنى لولا انسدال الظلمة فى دارى ما كنت أتيت فى أول شروق النهار كى أنظف الفرش وأرتبها، وأكنس الباحة والفناء، فما الذى يضيركن من ندرة الشمع فى غرفتى، وما ضركن لو تفضلتن بإهدائى بضعة عيدان من الشمع، أما أنى لست عديمة النفع، فلم تردن إقصائى بعيدًا ؟".

وهنالك أخذت الفتيات تتشاورن بشأنها وقد تأثرن بما قالت، وقررن إبقاءها بينهن؛ فهأنذا الآن بغير حول ولاقوة، وقد طردتنى دولة تشين حتى صرت أهيم على وجهى فى الخلاء مع أنى كنت قانعًا بما رأيت من فرش، وأكنس من أفنية فهلا رضيتم بى وأبقيتمونى وسطكم ؟"، فأجابه سوداى قائلاً :" لاعليك، سأتدبر لك طريقة مناسبة للعيش الكريم فى تشى ".

وعلى الفور توجه سوداى إلى ملك تشين، حيث قابله وراح يجادله بشأن كانماو قائلاً له ما نصه: "تعرف يامولاى، أن كانماو رجل فاضل كريم، وله مكانته التى يعرفها الجميع، بعد أن بقى طويلاً فى بلاط آل تشين بكل تفانٍ حتى احترمته وأجلته الملوك والأمراء، وما من موضع فى طول البلاد وعرضها ؛ وإلا ويعرف قدره وقيمته، وأخشى أن تضعه دولة تشى على رأس جيوشها فيتحالف مع قوات وى، وهان، ويأتى لضرب تشين وهو ما يمكن أن تنجم عنه عواقب وخيمة لاقبل لكم بها"، فسأله ملك تشين عما يراه مناسبًا فى هذا الشأن؛ فأجابه سوداى : "ليس أقل من أن تفتح له صدرك وتستقبله بالتحية اللائقة والهدية الثمينة، فإذا أقام بين أظهركم أقطعتموه أرضًا من أحسن بلادكم، فلا يجد نعمة عند أحد غيركم، فيبقى حتى آخر عمره مقيمًا بينكم، فيمنع عنه الأمراء الطامعون فى التخطيط لغزو تشين، وهنالك، تهلل الملك بعد إذ أعجبته الفكرة، وأصدر فرمانًا بالإنعام على كانماو بالمرتبة الاجتماعية الرفيعة (واليًا على إقطاعية)، وتنصيبه مستشارًا كبيرًا، وجهز نفسه لاستقباله بكل حفاوة وترحاب. إلا أن كانماو تردد فى المجىء وقبول كل ذلك التكريم، وحدث أن عاد سوداى إلى تشى، فذهب لمقابلة الحاكم، وتظاهر بأنه لايدرى عن أمر كانماو شيئًا فكلم الملك، قائلاً له ما نصه: "تعلم يا مولاى ، أن كانماو رجل عظيم القدر والمكانة، حتى أن دولة تشين قررت الإنعام عليه بمرتبة (الوالى) وتنصيبه مستشارًا عظيمًا، وبرغم كل ذلك فقد آثر أن يبقى ببلدك إكرامًا وتعظيمًا لشأنك، راضيًا بأن يعمل لدى جلالتكم وزيرًا عاديًا فى البلاط الملكى ، فانظر ماذا تصنع معه، فأنت إذا أقصيته عنك بقى عمره كله حانقًا عليك ، وقد تستغل دولة تشين هذا الموقف، فتضعه على رأس جيشها كى يعد العدة لضرب تشى، وبالطبع فسيتفانى هو فى ذلك من باب التشفى ورد الضربة بمثلها ".

فاستحسن ملك تشى كلام سوداى وأصدر قرارًا بالإنعام على كانماو بالدرجة الاجتماعية الرفيعة، مع السماح له بالإقامة فى أرض تشى كيفما شاء.

لما تولى كانماو منصب رئيس وزراء

تولى كانماو منصب رئيس وزراء دولة تشين، إلا أن حاكم تشين كان يميل بقلبه إلى كونسونيان، وراح يتحين فرصة حصول كانماو على إجازة للراحة من العمل، كى ينصب كونسونيان مكانه، وراح يكلم هذا الأخير بما ينتويه من تنصيبه هو رئيساً للوزراء بدلاً من كانماو، وحدث أن أحد صغار موظفى القصر قد أبلغ هذا الخبر لـ "كانماو" بعد أن تسرب إلى آذانه الحوار الهامس بين الملك وكونسونيان، ثم إن كانماو ذهب والتقى بجلالة الملك، وقال له:" ليسمح لى جلالة الملك أن أقدم له بالغ التهنئة وخالص الاحترام والأمنيات الطيبة، إذ كشفت له الظروف عن المعدن الأصيل لرئيس وزرائه المقترح."؛ فاندهش الملك، قائلاً : " ما الذى تقصده بعبارة "رئيس الوزراء المقترح " ألست أنت الذى تتولى هذا المنصب دون منازعة ؟"، فرد عليه: "ألا يريد جلالة الملك أن يعين كونسونيان لهذا المنصب ؟"، فاستغرب الملك جداً وسأله عن مصدر هذه المعلومة، فأجابه قائلاً بأن كونسونيان نفسه هو الذى سرب هذا الخبر إلى الجميع، فحملها الملك فى نفسه، وقد حنق على كونسونيان، ثم أصدر قراراً بإبعاده عن القصر لإفشائه الأسرار.

لما قاد كانماو تحالف وى وتشين

قاد كانماو تحالف قوات وى وتشين لمهاجمة تشو، وهنا تدخل رئيس الوزراء تشيوكاى للمصالحة بين تشو، وتشين (كان تشيوكاى أصلاً من مواطنى تشو الذين استوطنوا دولة تشين، وترقى فيها حتى صار رئيساً للوزراء) فلما قامت تشين بفتح البوابات بينها وبين تشو؛ لاستقبال مبعوث السلام القادم من تشو، وهنالك ذهب كانماو للقاء ملك تشين؛ ليقول له ما نصه:" أرى يامولاى ، أننا نتعرض لغواية من قبل تشو الهدف منها أن تشرف هى على مباحثات الصلح، بحيث تجرى معنا محادثات ثم تستدير ناحية وى لتقول لها ما معناه إن تشين قد تخلت تماماً عنها وغدرت بها، وهو

ما يعنى أنهما ستتحالفان معًا مما يعرض تشين للخطر من جراء هذا التحالف، والأفضل يامولاى، أن تدعو وى لتترأس هى مباحثات المصالحة، وهو ما سيبعث المزيد من السرور لديها ويصفى كدر الخاطر بينها وبين جلالتك، بل ويمكن أن يزيد من مساحة الأرض التى سنحصل عليها منهم."

لما قامت معركة شينغ شان

لما قامت معركة شينغ شان، تحالفت كلٌّ من جاو، وتشين لمهاجمة تشى، وهو ما أفزع هذه الأخيرة وأوقع فى قلبها الرعب، فأوفدت أكبر قادتها العسكريين "تيانجانغ" لتعرض الصلح مقابل التنازل عن إقليم يانغو، وتسليم أحد أمراء تشى لدول التحالف لإبقائه أسيرًا لديهم كضمان للصلح وهو الأمر الذى أثار السرور فى نفس حاكم جاو (الحاكم هوى ون) فأمر بإيقاف كل التحركات القتالية قائلاً لحاكم تشين:" إننا لانجد مبررًا لمواصلة الحملة ضد تشى بعد إذ عرضت التنازل عن إقليم يانغو، وسلمت لنا أحد أمرائها رهينة لإثبات حسن النوايا، وسوف نذيع موقفنا هذا للجميع مع اتخاذ الإجراءات المطلوبة."

وعلى الفور قام حاكم تشين الملك "شاو" بإيفاد ولده الأمير "كونزتا" إلى دولة جاو، فوصل إليها على عجل وقابل الملك، وقال له:" أما تذكرون أن حاكم تشى قد اتفق مع جلالتكم على نصرة وتأييد "وى"، إلا أنه نكص عن اتفاقه وأظهر الغدر، وهو ما دعا جلالتكم إلى طلب دعمنا لكم فى حملتكم ضدها، بل إنكم خصصتم أرضًا محيطها عشرون كيلو مترًا لبناء معابد مقدسة وهياكل لتقديم القرابين (لاسترضاء الألهة واستنزال رضاها وتأييدها)، ثم إذا بكم توقفون كل نشاط قتالى، بل تقبلون عرض تشى بالمصالحة وهو ما لا أستطيع أن أدرك كنهه، لذلك أرجو منكم فى هذا السياق التوقف عن إرسال عدد الأربعين ألف جندى المطلوبين لنا؛ لتقوية دفاعنا، واعتبار طلبنا بهذا الشأن لاغيًا."

الجزء الثانى من الفصل نفسه

وأرسل سوداى خطابًا باسم دولة تشى إلى رانخو رئيس وزراء تشين يقول له فيه ما نصه:

" لطالما كنت أسمع المارة فى الشوارع يقولون بأن دولة تشين ستدعم دولة جاو بأربعين ألف جندى لمهاجمة تشى، ومن ثم فقد رأيت أن أؤكد لمليكنا على نحو سرى بما مفاده أن ملك تشين بكل ما هو معروف عنه من حنكة وذكاء فى وضع الخطط السياسية، لايمكن له أن يقوم بدعم جاو بأربعين ألف جندى فى هجومها على تشى، وذلك لأن أى تصرف من شأنه أن يقيم عرى التحالف بين جاو ، و وى، وهان خليق بأن يلقى استنكار تشين بل كراهيتها، فقد طالما غدروا بدولة تشين وتصرفوا على نحو مخادع لها، وهكذا، فلابد أن تشين ستتخذ كل الحيطة ووسائل التدبر، والآن، فإن ضرب تشى لتقوية جاو لن يفيد تشين فى شىء، مادامت جاو هى ألد أعدائها، هذا أولاً، وثانيًا: فإن المخططين العباقرة لدولة تشين لابد سيقولون:" إن ضرب تشى سيصيب التحالف الثلاثى بالإنهاك جاو – وى – هان وهو ما سيؤدى إلى إخضاعه بما فيه دولة تشى، فهذا يشبه تمامًا القناص الذى يصوب ألف سهم نحو ثمرة عفنة أوشكت على السقوط، فهى هالكة بغير رمى، فكيف لملك تشين أن يقوم بإخضاع التحالف الثلاثى، بالإضافة إلى تشى. أما من الناحية الثالثة، فإن قلة عدد القوات التى عبأتها تشين لحملتها العسكرية يفقد المصداقية فى جدية تحركاتها، فلابد من أن يتم حشد أكبر عدد ممكن من القوات كى تتأكد تشى مع التحالف الثلاثى من أن تشى جادة فى حملتها المزمعة لإخضاعهم جميعًا، ثم إن تشى ستلقى بنفسها وقد استولى عليها الفزع من حملة تشين فى دائرة التحالف الثلاثى وتشو، ولابد أنها ستقطع من أرضها لتدعم كلٍّ من تشو والتحالف الثلاثى ، وهو ما سينتج عنه إحساس بالاستقرار لديهم جميعًا. من الناحية الرابعة، فإنه إذا قامت تشى بتعبئة كامل قواتها فسوف يتسبب ذلك فى إضافة أعباء عسكرية باهظة على تشين، وهو ما سيحاول التحالف الثلاثى أن يستغله على أحسن وجه باعتبار أن قوة تشين سوف تناطح تشى

التى ستـرد لهـا الضـربة بمثلـهـا، وهو مـا سـيرضـى التـحـالف وتشـو الذين سيـدبرون أمـرهم بذكاء شـديد بينمـا يصـيـر الغبـاء الشـديد من نصـيب تشـين وتشـى، وتلك هـى المسألة الخامسة.

أمـا أن تشين إذا حصلت على بلدة "أنى" فسوف تعمل على تهدئة خـاطر تشـى، وهو مـا يعنـى تجنب شبح الكوارث، بل إنـهـا بـحـصـولهـا على هذه البلدة سوف تخسـر كلاً من وى وهـان إقليم شانتانغ، والآن أتوقف لأسألكم أيهما أكثر نفعًا، الحصول على منطقة ذات أهمية سياسية من التحالف الثلاثى أم التقدم بجيش نحو كارثة محققة ؟، لذلك، فإنى أهمس فى أذن مليكنا قـائلاً :" إن حاكم تشين بعبقريته الفذة فى التخطيط السياسى، ورانخو بذكائه المعهود وحنكته ونفاذ بصيرته، لن يقدما أبدًا على دعم جاو بأربعين ألف مقاتل لمساندتها فى الهجوم على تشى. "

لما وقعت الملكة فى غرام أحد كبار موظفى البلاط

وقعت ملكة تشين (زوجة الملك هوى) فى غرام "ويتشوفو"، أحد موظفى القصر، وحدث أن اعتلت صحتها للغاية وأشرفت على الموت، فطلبت وهى على فراش المرض، بأن يسجلوا عنها وصيتـهـا، لأنهـا تشـعـر بدنو الأجل، فلما جـاءوا بالقـرطاس والقلم، أملت عليـهم مـا نصـه:" أوصـى بأن يدفن جـثمـانى فى جنازة ملكية علـى أن يدفن فى قبرى أيضًـا الرجل الذى أحببتـه، والمدعو "ويتشوفو"، حتى لو كان على قيد الحيـاة "، ولما علم هذا الأخير بتلك الوصـية ارتعدت فرائصـه، وقد داخله الرعب والفزع من أن يدفن حيًا، فأشفق عليه الوزير يونغ من هذا المصـير وراح ليكلم الملكة فـى هذا الشـأن، وبادرها بسؤالها عما كانت تظن أن الميت يشعر بما يشعر به الأحياء فـأجابته بالنفى، فجادلها بما نصـه:" مـادام الأمـر كذلك، فلماذا تـطلبين دفن الرجل الذى تـحبينه، حيًا دون أن ينفعك ذلك بشىء فإذا كنت تعتقدين بأن الموتى يشعرون بالأحياء، فمن المؤكد أن دفن الرجل بجوارك سيثير مشاعر الغضب والحزن لدى زوجك الراحل (الملك هوى)،

ولا أرى أنك تملكين من الوقت ما يكفى لتصحيح أية أخطاء أو للتمادى فى حالة الحب خاصة مع هذا الـ "ويتشوفو" ، فاقتنعت الملكة بهذا الكلام، وأبطلت فى وصيتها الفقرة الخاصة بدفن الحي .

سجل تشين الثالث

لما تحدث شوكون بشأن دولة وى

تحدث شوكون بشأن دولة وى مع الوزير الأعظم لدولة تشين المدعو وى ران، فقال له:" قد بلغنى أن ملك تشين يسعى فى التقرب إلى تشى بوساطة القائد العسكرى الشهير لولى، وذلك لنصره، وتأييد ذلك البلد حاكمًا ومحكومًا، ولابد أن نجاح القائد العسكرى المشار إليه فى مهمته، سيبرز دوره كثيرًا مما قد ينال من شهرتك ومكانتك أنت، فإذا ما اتحدت تشى مع تشين لقتال التحالف الثلاثى، فمن المتوقع أن يشغل "لولى " منصب رئيس الوزراء المشترك للدولتين المتحدتين، وهكذا فإن المصالحة مع تشى ستعلى من مكانة "لولى " وعندما تتخلص تشى من التهديد العسكرى لباقى الدول، فسوف تصب جام غضبها عليك أنت، ولاأرى لك سوى أن تنصح ملك تشين بأن يصدر أمرًا للقوات المرابطة فى منطقة "شودى" بالهجوم على تشى، ولئن تم النصر على هذه الأخيرة، فسوف أقطعك مساحات هائلة من أراضيها، ثم إن هزيمة تشى تعنى تعاظم قوة التحالف الثلاثى، وهو ما سيثير حفيظة ملك تشين مما ستملكه وى من قوة هائلة، وبالتالى سيلجأ إليك لتقوم بالوساطة بينه وبين وى فيعلو شأنك ويلمع نجمك، وفى تلك الأثناء تكون دولة تشى قد تنازلت لدولة وى عن منطقة "شواى" لأنها لا تملك أن تقاوم تشين. وهنالك تعتمد عليك وى للمصالحة بينها وبين تشين. وهكذا تكون قد هزمت تشى وبنيت مجدك وفخرك الذاتى، بينما تكون قد قويت مكانتك اعتمادًا على علاقتك بدولة وى، وبالتالى، وفى المحصلة الأخيرة، تكون هزيمتك لـ "تشى" هى السبب فى تقوية وزيادة حجم نفوذك وثرواتك الشخصية فترتفع

قيمتك وأهميتك فى نظر كلٍّ من تشين ووى، أما إذا لم تلقَ تشى هزيمة نكراء، فسوف تزداد أهمية "لولى" ويكون سوء الحظ من نصيبك أنت".

لما تكلم النبيل المقيم بدولة تشين

تكلم أحد النبلاء المقيمين بدولة تشين، يلقب بـ"تساو" إلى رانخو، فقال له ما نصه: "لئن كانت دولة تشين قد أقطعتك إقليم "تاوى" فما كان ذلك إلا لكى تقوم بإخضاع الأمراء والممالك لها طوال كل تلك الفترة الماضية. فاعلم أنك إذا نجحت فى تحقيق النصر على تشى، فسوف يصبح إقليم "تاوى" بلداً آهلاً بالثكنات والجنود والعتاد بل يمكن أن يتحول إلى عاصمة إقليمية لكل الدويلات الصغيرة، ويصير بإمكانك عندئذ أن تقود الجنود فى مواكب تشريفية إلى القصر الحاكم لتأكيد الولاء والطاعة لفخامة الأمير، وتكون كلمتك نافذة فوق مواليك وأتباعك فى الدويلات الصغيرة، أما إذا فشلت محاولتك فى هزيمة تشى، فسوف يبقى هذا الإقليم شوكة فى جنبك تقلق راحتك، وتفقد الظهير السند؛ لذلك أقول لك إن التغلب على تشى هو المفتاح الذى يمهد لك البقاء أو الهلاك فى إقليم "تاوى " فإذا أردت أن يحالفك التوفيق فى هزيمة تشى. فكيف بك إذا أرسلت إلى رئيس وزراء دولة يان من يقول له بالنص: "ليس الحكيم من يهيئ الظروف المواتية، بل من يثق فى أنه يستطيع ألا يضيع الفرصة السانحة من يده، فبالرغم من ذكاء وحكمة الفيلسوف "شوى" فإنه ما كان يستطيع أن يصبح قديساً إلا بفضل إدراكه لأهمية لقائه بالكاهن الأعظم "ياو " وبالرغم أيضاً من كون "تانغ وو" من أذكى وأبرع القديسين، فإنهما ما كان ليستطيعا أن يصلا إلى سدة العرش الإمبراطورى إلا بفضل مواجهتهما للطاغيتين "شياجى، وشانغ جو" ، لذلك يقال بأن الحكمة والبصيرة التى اشتهر بها كلٌّ من: شوى، دى، يانغ وو، أوانغ، ما كان يمكن أن تصل بهم إلى مراتب القداسة (فى تاريخ الصين) أو أن ترتقى بهم المراتب الشريفة، إلا بما استطاعوا أن يرصدوا من فرص واتتهم لإنجاز مآثرهم الجليلة فلم يضيعوها. إن الاستغلال الأمثل لما تحت يديك من قوات عسكرية لشن

حملة تأديبية على اللعينة تشى والثأر للملك هوى حاكم يان وجلب السعادة إلى قلبه بتحقيق النصر على أعدائه وكسر شوكتهم التى طالت على مدى سنوات طويلة، وكل ذلك سيعود بالنفع العميم على البلاد وبالشرف والفخار لشخصكم الكريم، وقد جاء فى كتاب حوليات التاريخ الشهير بعنوان "شانغ شو" ما نصه: "إنما تشيد الأخلاق بما يعلى من بنائها ويزيد فى قوة جدرانها، ولا تجتث الخبائث إلا من منبت جذورها" ، فاعلم أنه ما لم تتغلب دولة "أو" على دولة "يو" فسوف تغلبها هذه الأخيرة، وما لم تقهر تشى عدوتها اللدود "يان" فسوف تدحرها هذه الثانية، وحتى إذا تغلبت يان على تشى، وانتصرت "يو" على "أو"، فلن يعد هذا اجتثاثًا للجذور من منابتها الدفينة، فإذا لم تسرع حينئذ، فى تحقيق مجدك الكبير، فتزيل المصائب من مكانها، فسوف تتبدل الأمور وتجد دولة تشين قد اتحدت مع دولة تشى التى ستعقد ميثاق الوحدة هى الأخرى مع دولة جاو، وسينظر إليك كل هؤلاء بعين البغضاء، ولن تجد الفرصة مواتية لك عندئذ، لكى ترغم دولة تشى على القيام بمحاولات هجومية على "يان" ولن يجديك الندم شيئًا، أما إذا عبأت كل طاقات يان العسكرية لشن هجوم عاجل وكاسح للانتقام من تشى، فسيتبعك كل الأمراء وحكام الدويلات الصغيرة، وعندما تكسر شوكة تشى، وتؤسس دولتك الكبرى جنوبى النهر الأصفر، وتضع أسس العلاقات بينها وبين جاراتها وتفتح البوابات بينها بغيرعوائق، فسوف يعم الأمن والسلام جيلاً بعد جيل، فكل رجائى أن تقرر الهجوم على تشى بغير تردد."

لما ذهب رجل ليتكلم مع ويرانغ

ذهب رجل ليتكلم مع" ويرانغ " (أصلاً من دولة تشو ، لكنه ذهب إلى تشين وعمل بها رئيسًا للوزراء) بشأن دولة وى، وقال له ما نصه:" أسمعت ما يردده النبلاء فى إقليم " دونشان" ؟، "فاندهش ويرانغ مستنكرًا سماعه بأى شىء من طرفهم، فأجابه الرجل قائلاً ما نصه:" قد بلغنى أن كلاً من" شين "(من دولة هان) وتشانغى (كان

وقتئذ رئيسًا لوزراء وى) و" أوتزى "(من دولة تشى) كانوا قد ذهبوا جميعهم فى حملة، والتقوا بحاكم وى وشوكون وكونشووكان من جملة ما قالوه:

"إذا قامت الحرب بيننا وبين تشو، فلسوف نسير العربات أرتالاً تحمل شواهد القبور ونقصد ديارك لنتحالف معك حتى نأمن شرالعواقب، فإذا ما دارت علينا الدائرة وانكسرنا، فائذن لنا أن نأتيك برؤوس مرفوعة، وعلى أية حال، وبرغم كل شيء، فلا يثير مخاوفنا شيء قدر ما يثيره فينا تحالف تشين مع تشو، ثم إن ملكها، قد سبق له أن وضع بلاده وعرشه تحت إمرة ويرانغ، وأتى إلينا زاحفًا فى حملة تأديبية وانقض علينا ونحن ثلاث دول هان – وى – تشى فذلك هو أكثر ما يقلقنا ويقض مضاجعنا. ولئن كنت اليوم تفكر فى أن تذهب صوب الشرق لتتصالح مع تشو، فكأنك تجعل نبوءة تشانغى أكثر النبوءات صدقًا، ثم إنك بهذا الصنيع تؤلب علينا الدول الثلاث،التى ستبادر إلى إفساد خطة تحالفك معها. فلا أرى لك إلا أن تعود إلى تشين لتجعل تشو تشعر بالامتنان لصنيعك، وفى نفس الوقت عليك بمراقبة أحوال شوكون وطريقة معاملاته إياك ولابد لك أن تتمعن جيداً فيما تأمله الدول الثلاث من ملك تشين بينما لاتجد وسيلة للحصول عليه، فاسلك بهذه الوسيلة حتى تستنفر هذه الدول الثلاث وتفوز بثقتها فيك وأخيراً فعليك بملاحظة مطالب تشانغى من شوكون، وهى المطالب التى أخفق هذا الأخير فى تلبيتها بينما حققتها أنت له، فتلك هى الوسيلة الوحيدة التى تضمن لك تقدير الناس واحترامهم."

لما ذهب رجل إلى ويرانغ

ذهب إلى وايرنغ من قال له ما نصه:" أرى أنه إذا لم تنجح مساعى السلام بين كلٍّ من تشين وجاو فسوف تقوم الأولى بتعبئة قواتها استعداداً للقتال، وعندئذ، ستصبح قيادة القوات بيد الجنرال الشهير "باى تشى "، فإذا كان النصر حليف تشين، فسوف تجد نفسك وجهًا لوجه مع متاعب جمة، أما إذا باء بالفشل فسوف

يبعث بك حاكم تشين إلى جاو للتفاوض بشأن المصالحة بين البلدين، وهنالك تسقط مهابتك من كل عين، فتلقى الذلة والهوان، وهكذا لاأرى لك إلا أن تبذل جهدك سعيًا لتحقيق السلام بين البلدين، وهو ما سوف يؤدى لاحقًا إلى إخضاع دولة جاو لنفوذ تشين بالكامل."

لما جاء رجل إلى رانخو

جاء رجل إلى رانخو، وقال له ما نصه : "هأنذا جئت إليك بما تطيب له نفسك من تحديد الإقطاعيات بينى وبينك، وأفكر بأننا لو أسقطنا عن أنفسنا الجريمة التى اتهمنا بها حاكم دولة سونغ، فسوف تثور ضدنا كل النفوس والمشاعر فى دولة تشى، أما إذا انتهزنا فرصة الفوضى الماثلة فى سونغ وقمنا بعمليات تخريبية هناك، فسوف نجد الرضا والتشجيع من دولة تشى القوية الجبارة، وهو ما سوف يمكننا من الحصول على مكانة اجتماعية لائقة ومزيد من الإقطاعيات، وتلك فرصة لايجود بها الدهر فى العمر كله إلا مرة واحدة ".

لما ذهب رجل إلى ويرانغ

ذهب رجل إلى ويرانغ، وقال له:" اعلم أنه إذا استطاعت تشو أن تهزم تشين، فلن تستطيع هذه الأخيرة أن تحافظ على ميزان القوة فيما بعد مع غريمتها، أضف إلى ذلك أن هناك ثلاثة ملوك متعاقبين فى تشين، قد رسخوا شعورًا بالمرارة فى قلب كلٍّ من دولتى وى، وهان، فى الوقت الذى قامت فيه تشى بتقديم فرص هائلة لهاتين الدولتين، وهكذا فإذا مااندلع القتال يومًا بين تشين وتشى، فسوف تجد هذه الأخيرة بجانبها كلاً من هان و وى، وسيهبان لنجدتها، وهو ما يعنى القيام بحملة تأديبية نشيطة ضد تشين، ثم إن دولة تشى تملك أرضًا هائلة على حدودها الشرقية يبلغ

محيطها ألف ميل، وكذلك تشتمل دولة تشو على أرض يبلغ محيطها ألف "لى" في إقليم "جيوى" بل إنها تملك أيضاً منطقة ذات أهمية سياسية في إقليم "فولى" الواقع في الجنوب بالإضافة إلى مضيق "كانيو" عند حدودها الشمالية، فإذا ما قسنا قوة دولة سونغ بالمقارنة مع دولة "ويه" فسنجد أن قوتهما مجتمعتين تكاد تساوى مساحة إقليمين في دولة تشى إقليمى (ها - جين) فإذا ما استولت تشى على أراضى تشو فكأنها حصلت على ألفى ميل بالإضافة إلى ما تحت حيازتها هى والعبيد الذين يقطنونها، وهكذا فلا يمكن عقد مقارنة بين قوة تشين وحدها مقابل كلٍّ من: وى، هان، تشى. وإذا فرضت الظروف على جيش تشى أن يتوغل بأقدامه فى إقليم فانغ تشينغ الخصب محاولاً الاقتراب من هان، فلن يكون جيش هذه الأخيرة بالإضافة إلى قوات دولة وى فى حاجة إلى شن غارات هجومية؛ لأنهم سيملكون عندئذ من القوة ما يستطيعون به تثبيط عزيمة تشين وردعها عن مجرد التفكير فى أن تحرك دولة تشى ساكنًا ".

لما نزعت الدول الخمس فتيل الحرب

بعد أن أعلنت الدول الخمس (تشو - جاو - هان - وى - يان) فى مدينة شنكاو - قرية من أعمال هان - التوقف عن القتال، فقد انتهز حاكم تشين هذه الفرصة وسعى لدى دولتى وى، وهان فى محاولة منه لتعيين يان فى منصب رئيس الوزراء، إلا أنهما لم تستجيبا لمساعى الملك وهنالك ذهبت الملكة لتتكلم مع زوجها حاكم تشين (بلسان ويرانغ فى الحقيقة)، وقالت له ما نصه: " أتعرف يامولاى ، أن النبيل شنغ يان قد عاش فى دولة تشى حياة بائسة مريرة بسببك أنت، فإذا رأيت جلالتك أن الوقت قد حان لترقيته فى مكانة لائقة بحيث تضمن ولاءه وخضوعه لك؛ فهل تظن أنك بهذه الوسيلة تجذب قلبه إليك وتأسره بجميلك ؟"، فرد عليها الملك بما مفاده أنه بالطبع لايضمن مثل هذا التصرف من قبل المذكور، فأجابته الملكة، بقولها: "

إن من أهملت شأنه وهو فقير بائس، لن ينفعك بشيء يامولاى وهو تحت وهج الشهرة والمجد والنفوذ، ثم إنك بما تحاوله من إسناد دور لامع له لشراء ولائه الآن، فإنك تقوم بما سيؤدى إلى قطيعة مع كلٍّ من وي و هان. "

لما تم استدعاء فان سوى إلى تشين

تم استدعاء فان سوى إلى بلاط تشين الحاكم بسبب ما تقرر من إيفاد رئيس التشريفات الملكية " وانغ جى " إلى دولة وى، فلما وصل إلى القصر، قدم من فوره خطاباً رسمياً إلى جلالة الملك ورد فيه ما نصه:" بلغنى أن المبدأ الذى يلتزم به النبيل الأجل " يين وانغ " هو أنه لابد من مكافأة ذى الفضل ولابد من تعيين ذى المهارة فى المنصب الملائم، وينبغى أن تزيد المكافأة بحسب ما يؤديه الفرد من خدمة، مثلما يجب أن يترقى فى منصبه من يزيد مقدار ذكائه ومهارته، ومن ثم يحجم المقصرون عن التقدم للوظائف الرسمية، فيتقدم الأكفاء صعداً دونما عوائق، أقول ذلك لجلالتكم آملاً أنكم إذا وجدتم فيما أعرضه من اقتراحات أية فائدة عملية؛ فإن لى الشرف أن يؤخذ بآرائى عند وضع الخطط العامة للدولة، أما إذا لم تجدوا فيما أعرضه أية فائدة، فلا أرى داعياً لإبقائى بالقصر، والحكمة السائرة تقول:" لئن كان النبيل الأكرم يهب العطايا لمن يحب وينزل العقاب على من يبغض، فإن السيد الكريم "يين مينغ " لايتصرف على هذا النحو، ذلك أنه يتكرم على ذوى الفضل والأيادى الكريمة بينما يسلط غضبه وعقابه على المفسدين"، أما بعد، فإنى لا أقوى على أن تدمى أصابعي شفرة سكين، فهل أجسر على أن أضع رقبتى تحت مقصلة الملك لمجرد أن أختبر مدى صبر جلالته على إيقاع العذاب بى ولئن كنتم لاترون فى شخصى ما يستحق الاحترام والتقدير، فهل يشفع لى ما يراه فىَّ أوفياؤكم المخلصون ".

الجزء الثانى من الفصل نفسه

"أما إنه قد بلغنى أن فى دولة جو حجرًا كريمًا اسمه "دييه"، وفى دولة سونغ جوهرًا نادرًا اسمه "جيلو" وفى دولة ليانغ يشب ثمين، يقال له : " شوان لى" ، أما فى دولة تشو فهناك حجر نادر من الماس يطلق عليه "خبو".لئن كانت تلك النفائس الأربع مما صنعت أيدى أمهر الصناع، فلقد خرجت من تحت أيديهم لتدخل خزائن القصور ليحتفظ بها الملوك ضمن مقتنياتهم، أما والأمر كذلك، فلربما كان للحكماء الذين تلفظهم أبواب القصور فائدة وقيمة لبلادهم.

وقد بلغنى أيضًا أن الماجد الذى يستطيع أن يجلب لأهله الثراء والشرف، لقادر على أن يجلب إلى بلده الفخر والمجد، وأن الحاكم الذى يحقق لبلده المنعة ويصعد بها إلى ذرى السطوة والجاه ، لقادر أيضًا على أن يمد نفوذه فوق كل الدويلات والممالك. وأن أميرًا فطنًا عاقلاً كريمًا سيمنع رحله ورحاله ويقف درعًا ضد الجشع واستغلال النفوذ وطمع أصحاب الإقطاعيات.

إن الماجد يعرف الفرق بين السؤدد والهوان والحاكم العاقل يدرك ما تتقوم به الأمور وما تتداعى به دعائمها، فهو يشير ويستشار ويأخذ بالرأى السليم ويدع ما لا نفع فيه، ويختبر ما أحاطت به الظنون، فذلك هو المبدأ الذى سار عليه الحكماء والأولون بغير تبديل، فإذا بعث الآن القديسون القدماء (ياو – شون – تانغ – شوى) من أجدائهم، فسيقرون بكل تأكيد، ألا وإنى إذ أكتب لجلالتكم هذا الكتاب، مولاى الملك، فقد رددت القلم عن أن يغوص فى أعماق المعانى فيبلغ حد الإبهام، وقد أعفيته أيضًا من أن يدنو فيبتذل، ويمجه سمعك الكريم، ومع ذلك فلا أدرى إن كنتم جلالتكم قد أعرضتم عن الاستماع لى؛ لأنكم لا تجدون فيما أقول ما يقدح الذهن ويقوى العزم، أم لأنى تقدمت إلى جلالتكم بواسطة رجل بسيط غير مكين، فإن كنت مخطئًا فى ظنى، فأرجو جلالتكم أن تتكرم على بأن تمنحنى فرصة النظر إلى محياك الكريم لأطالع جليل المهابة، وأجثو على قدمى أمامك، تعظيمًا وإجلالاً "، هذا وقد اغتبط جلالة

الملك بهذا الخطاب وطلب تدوينه فى السجلات الملكية وأصدر أمرًا شفويًا إلى "وانغ جى" بسرعة إرسال عربة خاصة لاستقدام فانسوى.

لما ذهب فانسوى إلى دولة تشين

ذهب فانسوى إلى تشين، فاستقبله الحاكم بحفاوة بالغة عند عتبات القصر، وبادر فانسوى بقوله ما نصه: " لا أنكر أنه كان جدير بى أن آخذ بنصيحتك منذ فترة طويلة مضت، وعامة، فقد زج بى فى القتال مع دولة " إيتشيو " تحت إلحاح ظروف قاهرة، ولطالما كنت أذهب إلى الملكة وأشاورها فى أمر تلك الحرب معبرًا عن رأيى فى ضرورة إنهائها دون سفك مزيد من الدم [كانت قد نشأت علاقة آثمة بين الملكة (زوجة حاكم تشين) وملك " إيتشيو "، وأثمرت العلاقة عن حمل سفاح، فاضطربت الأمور بينهما وتعمق الخلاف فانتقمت الملكة لنفسها وقتلت حاكم إيتشيو غدرًا، فنشبت الحرب بين الدولتين من جراء ذلك] ، والآن وقد انتهت الحرب، فلا أملك إلا أن أقدم لك الشكر، على أنى أدرك بينى وبين نفسى أنى تصرفت طوال الوقت دون تبصر أو حكمة، وعلى أية حال ، فقد أمرت بأن يتم استقبالك حسب البروتوكول المعمول به لاستقبال أعظم ضيوف الدولة" . فرد عليه فانسوى بمجاملة لائقة، معتذرًا للملك فى أدب جم عن قبول تواضع الملك له بمثل تلك العبارات.

ثم إنه فى ذلك اليوم الذى التقى به الملك مع فانسوى كانت جمهرة من المشاهدين تقف غير بعيد والعيون فى دهشة ووجوم لما يجرى خارج باحة القصر ثم انحنى وركع بين يدى فانسوى، قائلاً له ما نصه: " أرجوك ألا تبخل على بالنصح أيها السيد الكريم." ، وراح يكرر هذه العبارة عدة مرات، بينما يتقدم نحوه فانسوى مرتبكًا راجيًا إياه أن ينهض واقفًا حتى سأله الملك، وهو راكع: " اصدقنى القول، هل ستبخل على بالنصيحة المخلصة ؟" ، فأجابه فانسوى بكل تواضع: " قد أخجلتنى يامولاى، أما قد علمت بقصة لقاء الملك أون مع الوالى " جيانغ تاى" الذى لم يكن يزيد فى ذلك

الوقت عن كونه مجرد صياد للأسماك، ولم يكن هنالك ما يمكن أن يجمع بينهما من حوار أو تفاهم، ولكن ما إن تم اللقاء بين الرجلين حتى أصدر الملك قراراً بتعيينه بوظيفة كبير معلمي القصر الملكي، وخصص له سيارة تقله في كل تنقلاته وذلك أن جسور الود امتدت بين الطرفين أثناء لقاء عرضي بينهما، وأثبتت الأيام أن"جيانغ تاى " أسدى إلى الملك خدمات جليلة، لولاها لما استطاع جلالته أن يفرض سلطانه فوق الممالك جميعًا، ويقبض على صولجان إمبراطورية عظمى، ولا كانت قد نشأت عادة تعيين أكثر الناس إخلاصًا للإمبراطور فى منصب" أمير الدولة "، وهو المنصب الذى استطاع كلٌّ من "أون وانغ " و " أوانغ " أن يعتليا سدة العرش الملكى من خلاله.

أما وإنى لست إلا مجرد ضيف مقيم بين أظهركم، شاءت ظروفه أن يعمل فى وظيفة رسمية، دون أن تتوطد العلاقة بينه وبين سيد البلاد والملوك جميعًا، ومع ذلك فلم أمسك لسانى عن أن يقول كلمة شأنها شد أزركم ودعم موقفكم، ومع أن اللسان فى فمى ليس سوى قطعة ضئيلة من الجسد إلا أنى عاهدت نفسى أن تنطق هذه القطعة بجوهر الإخلاص والصدق، ولكنى لما كنت لاأقف على الغرض الذى دعا جلالتك إلى توجيه الأسئلة لى ثلاث مرات متتالية، فلم أجد جوابًا ملائمًا، فارتج علىَّ ولزمت الصمت، ليس عن خشية قول ما أعرفه من الحق، ذلك أنى لا أخشى أن أقول الحقيقة ثم أجد نفسى فى اليوم التالى مسوقًا إلى ساحة الإعدام، فقصارى ما أتمناه أن أقول مايقع لدى جلالتكم موقع الصدق، وليكن بعدها مايكون، سواء تعرضت للموت أو للنفى أو للتشريد، فلا هوان العيش يشقينى، ولامذلة الموت أو الجنون تؤرقنى، فقد ذاق الموت الأباطرة الخمسة العظام، والملوك الثلاثة العادلون، بل حتى الطغاة الخمسة تجرعوا كأس المنون، والطاغية الشهير بلقب "أوهوا " (عاش فى زمن الدول المتحاربة) مثله كمثل أشجع جنود المعارك؛ أشهرهم (منغ بن ، شيايو)، ذلك أن الموت مصير كل حى، ولن تثنينى الظروف الطارئة عن أن أكون نافعًا للبلاد، فليس لى سوى ذلك أمل، فمن ثم تمتلئ نفسى بالجسارة، ولقد اضطر الوزير أوزدان (هارب من بلاده بعد غزوها) أن يندس فى جوال حقير، فراراً من بلاده، ثم لما عبر الحدود

راح يسير ليلاً ويختبئ نهاراً، وما كاد يبلغ بحيرة لينغ، حتى كان الزاد قد فرغ من جعبته، فتقدم زاحفًا على الجبال صوب مدينة " أو " حيث نزل شوارعها وصار يشحذ من المارة، ثم شاء القدر أن يكون هذا الرجل هو السبب فى نهضة دولة "أو" وهو الذى استطاع أن يمهد الطريق لأحد النبلاء المغمورين؛ كى يعتلى عرش البلاد ويصبح ملكًا متوجًا لدولة " أو" (يقصد بذلك الملك هيلو)، ليت لى مثل دهاء التخطيط السياسى الذى كان يتمتع به من قديم " أوزدان " بحيث أستطيع أن أعرض خططًا سليمة توضع موضع التطبيق، حتى لو كان ثمن ذلك أن يشى بى الواشون، ويلقى بى فى غياهب السجون، وقد قيل إن اثنين من أشهر السياسيين فى ماضى الزمان، ألا وهما:" جيتز " و"جيلون " تعرضا للتشريد والمرض والجنون بسبب آرائهما، ومع ذلك فقد غادرا القصر دون أن ينفعا بلدهما بشىء ، وأقول لك بصدق يامولاى، إنى لا أخشى أن أجد نفس المصير بشرط أن يكون قولى ذا فائدة للبلاد ولجلالتكم، فذلك هو الشىء الوحيد الذى يجعلنى أتحمل أية نتائج وأعدها شرفًا عظيمًا يهون معه أى شقاء وتتوى دونه ألوان الذل والمرارة.

أما الشىء الوحيد الذى أخشاه بحق، فهو أن يظن الناس بعد موتى أنى لقيت حتفى بسبب ما أخلصت من النية وأسلمت للملك من طوية للهلاك، فيخرس كل لسان ناطق بالنصح، وتتقهقر كل قدم ساعية فى طريق الحق، ويقعد عن المجىء إليك خلصاؤك، ويقال عن دولة تشين، فى هذا الشأن كل ما يمكن أن يقال ألا ترى يا مولاى، أنك كالمحاصر داخل قلعة مظلمة، لايملك فراراً، ولايلتمس للنور طريقًا، فمن أمامك جلالة الملكة، تضيق عليك السبل، ومن ورائك ومن حولك أسوار مشيدة من أمراء ووصيفات وأقارب وبلاط وحاشية يحيطون بك ويدورون برأسك دوران السوار بالمعصم، وليس ثمة من يرشدك إلى الصواب أو يزيح الستار عن المؤثرات والخدع والمكائد التى إن عظمت أطاحت بالعرش والبلاد جميعًا، وإن هانت حكمت بالهوان عليك، فاسمع قولى، وصدقنى، إذ أقول لك إنى أستشعر من جراء ذلك عظيم الخطر. وليس الخطر الذى أخشاه هو خطر الذل أو الموت أو الهوان، كما قلت آنفًا، ذلك أن حياتى كلها تهون لأجل أن تبنى سياسات دولة تشين على أسس قويمة ومبادئ واضحة ".

الجزء الثانى من الفصل نفسه

هنالك ركع الملك أمام فانسوى، ثم اعتدل، وقال ما نصه: " على رسلك يا سيدى، فقد أرسلتك المشيئة السماوية لى برغم طول الطريق ووعثاء السفر، فهذا من حسن حظى لأنى لا أفقه الأمرعلى النحو الصحيح، وقد أراد القدر أن يحفظ لى ميراث أجدادى من الملوك الأقدمين، فلابد من أن أحفظ وصاياك أيها النابه الكريم، فتلك إرادة السماء التى أسبغت محبتها، وتفضلت على بمزيد الرعاية. وما كنت أرى أى داعٍ لكل ماحدثتنى به توًا أيها السيد الفاضل وكل ما أريد أن أقوله لك هو أنه مهما عظمت الأمور أو تضاءلت (هكذا بتعبير النص) وسواء أكان هنالك جوارٍ أو قيان أو ملكات أو أخدان، فكل ما أرجوه منك هو أن توافينى بالنصح والإرشاد دون كلل، وأن تمنحنى ثقتك."، وهنا ركع فانسوى للملك احترامًا وتعظيمًا، ورد عليه الملك بمثلها وتكلم فانسوى، فقال لجلالته ما نصه: " إذا تأملنا موقع البلاد يامولاى، وجدنا أنه فى الشمال يقبع جبل كانشيوان ومضيق " جوكو "، وفى الجنوب كلٌ من نهرى "جين"، و"وى "، وفى الشرق أرض "لونغدى" الوعرة ومضيق " شو"، أما الغرب، فممر "خانكو" و"لونغيان"، ولديك أكثر من ألف عربة عسكرية، وما يربو على المليون مقاتل، فإذا ما سرت بجحافل جيشك تقصد مهاجمة الإمارات والممالك المجاورة، فكأنك تفعل مثلما ورد فى الأمثولة الشهيرة التى كانت تحكى عن الصقر الجارح الذى أطلق جناحيه يريد اقتناص كتكوت أعرج. بالطبع، فإن تحقيق النصرممكن ومؤكد تمامًا، ومع ذلك، فلا تتحرك جلالتك فى هذا الاتجاه، بل تقعد منطويًا على نفسك، ولا تفكر حتى فى التقدم صوب الشرق، باتجاه منطقة تايشينغ، ولا أرى لذلك سببًا سوى أن رانخو لايضع خططًا ناجحة ولا يبذل كل إخلاصه لجلالتكم، بل إن بعض الخطط التى وضعها لسيادتكم تحتوى على أخطاء مهولة، فسأله الملك عن هذه الأخطاء راجيا إياه أن يوضحها له، فأجابه فانسوى: " إن ما يلفت انتباهى من سوء التقدير الذى يعتور هذه الخطة يتمثل فى أن جلالتكم تريدون التقدم بقواتكم مخترقًا كلاً من دولتى وى، وهان لملاقاة دولة تشى بجيشها الجرار وقوتها المعهودة، والحق هو أن جيشنا قليل العدد لن يكفى لمجرد إرهاق قوات تشى، لكن جيشًا هائل العدد والعدة والعتاد على

هذا النحو لن يكون مفيداً أيضًا لدولة تشين، وهنا فلربما يخطر لجلالتكم أن تجرى الاستعانة بأى صورة ممكنة بقواتٍ من وى وهان لملاقاة تشى، غير أنى أجد مثل هذا الحل أيضا غير مناسب، خاصة بعدما اتضح أن حلفاءك لايمكن الاعتماد عليهم، ثم كيف يمكن أن نعقل إمكانية مهاجمة دولة بعيدة مثل تشى عبر اختراق أراضى دولة أخرى؟ مثل هذا التصور ينطوى على مخاطرة جسيمة. كانت دولة تشى بنفسها، فيما مضى قد شنت هجومًا كاسحًا على تشو واستطاعت أن تدحر قواتها، وتبدد جيشها فتفرقت صفوفه، واعتقل أمير الجيوش وقتل، واحتلت تشى من الأرض ما يزيد على الألف كيلو متر، ومع ذلك فقد ضاع منها كل ما احتلته ولم تستطع الحفاظ على شبر واحد من الأرض فهل كان ذلك راجعًا إلى تنازلها عن احتلال أراضى الغير؟!، كلا بل كان السبب هو طبيعة الأرض نفسها. ثم إن الأمراء والنبلاء لما رأوا انكسار جيش تشى واضطراب قادتها حشدوا قواتهم، وأقبلوا على مابقى منها، فلم يتركوا قائمًا إلا نكسوه، حتى فر الملك "مين وانغ" تتبعه لعنات الناس وسخريتهم،أما السبب فى حدوث كل ذلك فيرجع فى حقيقته إلى أن هجوم تشى على تشو كان مفيداً جداً لكلٍّ من وى وهان، مما ألقى بكل النتائج المثمرة جاهزة فى أيديهم، فكانت تشى، هنا تتصرف بالطريقة التى حكت عنها الأمثال قديمًا، من أنها تعطى اللص سكينًا، وتهب للناهب حقلاً مثمراً، والأفضل يامولاى، هو أن تستعين بعلاقاتك مع البعيد النائى على مهاجمة القريب الدانى، وحينئذ، فإن كل شبر تحوزه فى قتال يصير ملكًا لك، أما إذا لجأت إلى خطة معاكسة، فذلك هو الخطأ بعينه.

أما علمت بما حدث قديمًا من غزو دولة جاو لدولة "جونشان" واحتلالها لأراضيها البالغ محيطها خمسمائة كيلو متر، مما حقق لها أغراضها كاملة، وحقق لها شهرة ذائعة الصيت بين الممالك، وصد عنها نزاعات الصدام المتكرر بين الدول فى تلك الفترة، وأريد من جلالتك أن تتأمل الأمر الماثل أمام عينيك جيداً، أما ترى وى، وهان تقعان فى المنطقة السهلية الوسطى بين البلاد جميعًا، فكأنها المحور الذى تتعامد عليه كل الممالك التى فوق الأرض جميعًا، فإذا أردت أن تخضع لك كل العروش والتيجان تحت ظلال إمبراطورية كبرى، فلا بد أن تجعل الوصول إلى تلك المنطقة

السهلية الوسطى نصب عينيك، لأنك بذلك تستطيع أيضًا أن تفرض نفوذك على كلٍّ من دولتى تشو وجاو، ذلك أنه إذا تعاظمت قوة جاو، خضعت لك تشو، والعكس صحيح كذلك، وعندما تأتيانك كلتاهما طواعية، تقبلان بسلطانك، فسوف يدب الخوف فى قلب تشى، ومن ثم تتواضع كثيرًا فى لهجتها مع جلالتك، وتزاحم الآخرين فى الحصول على رضاك، وإذا ما حدث ذلك حقًّا، فيمكن سحق كلٍّ من وى، وهان".

وهنا قال الملك ما نصه :" كنت قد نويت أن أقيم علاقة ودية مع وى، لكنى تراجعت نظرًا لكثرة تقلباتها السياسية واضطراب خططها، فهل ترى لى طريقة لإقامة علاقات طيبة معها ؟"، فأجابه فانسوى بقوله:" يمكنك ذلك إذا استخدمت فى خطابك معها العبارات الودية والهدايا الثمينة أو بإقطاعها الأراضى والأقاليم، فإذا لم تنجح تلك المساعى، فلك أن تغزوها بالحملات التأديبية " [ثم إن تشين قامت حقًّا بغزو إقليم "شينغ تشيو "، وهنالك خضعت وى لإملاءات تشين] ، وحينئذ، عاد فانسوى يقول:" إن أراضى تشين وهان تبدو متداخلة فيما بينها، كما تتداخل اللحمة بالسداة، وهكذا فإن الاحتفاظ بـ "هانكو" يشبه الاحتفاظ بأفعى غادرة، فما إن تنفلت الأمور حتى تلدغك فاحتفظ بـ " هان" إذا أردت ذلك يامولاى" ؛ فقال له الملك:" أريد الاحتفاظ بـ "هان" لكن المشكلة كلها تكمن فى أنها لا تخضع لى ولا تسير حسب خطواتى، فما العمل إذن ؟"، وهنا أجابه فانسوى بقوله : " أرى أن جلالتك إذا هاجمت بلدة "شينغ يان " على أطراف هان، فسوف ينسد الطريق الرئيسى الواصل إلى الإقليم الواقع هنالك، وهو الطريق المسمى بـ "تشنكاو". وفى الشمال يمكنك قطع طريق " تايشين شان "، وهو ما سيمنع القوات المعادية المحتشدة فى شاندانغ من النزول إليك، وهكذا فإنك بضربة واحدة، تقسم هان إلى ثلاثة أقسام، فإذا ما شعر القادة هناك بخطورة الموقف فلن يترددوا عن النزول على رأيك والخضوع لما تمليه من سياسات، وعندئذ، تنجح خطتك وينفتح أمامك الطريق نحو المجد والرفعة والعرش الإمبراطورى "، فاستحسن الملك هذا الكلام للغاية وواصل فانسوى كلامه قائلاً: "عندما كنت مقيمًا فى بلدة شاندونغ، لم أكن أشعر أن هناك ملكًا يحكم فى دولة

تشي، بقدر ما كنت أدرك أن هناك إقطاعيين يملكون صكوك حيازة للأراضى. ولم يكن الناس يشعرون أيضًا بأن هناك ملكًا يحكم فى تشين، لكنهم كانوا يسمعون بآخرين موجودين و تأثيرهم طاغٍ، مثل جلالة الملك وارنخو والأخوين (جين يانغ جون، وهوا يانغ جون) والحق يامولاى، أن الملك الحقيقى هو الذى يمسك بيده زمام الأمور فى بلده، وهو الوحيد الذى يملك سلطة الثواب والعقاب، أما أنى أجد الملكة تتصرف وفق مصالح ذاتية ضيقة لاتستوعب مصلحة البلاد والبشر، وبالنسبة لـ "رانخو"، فقد أوفد فى بعثة رسمية ثم عاد منها دون أن يقدم تقريرًا رسميًا وافيًا عن الزيارة مثلما هو معهود بالنسبة للأخوين هوا يانغ جون، وجين يانغ جون اللذين لايعبآن بالمصلحة العامة قدر اهتمامهما بأمور هامشية تافهة، فكيف يمكن أن يوجد فى بلد مثل هؤلاء الأربعة دون أن تتبدى الهواجس و يحل الخطر، ولعمرى فهذا شىء مستحيل وأظن أن السبب فى ذلك يكمن فى أن أولئك الأربعة يحتلون مناصب سياسية رفيعة، لا يستطيع أحد إنكار أهميتها، لكن الناس تقول إن صوت الملك غير مسموع، فكأنه غير موجود، ومع كل ذلك، تظل هيبة الدولة ملء كل العيون والأسماع دونما أثر للإحساس بغياب الملك، فما السبب ياترى فى ذلك؟!، ولماذا لاتصدر القرارات واللوائح الملكية عن جلالتكم، وبصوتكم، كى يسمع الناس ويروا، وقد بلغنى أن الحاكم النابه هو من يرسخ قواعد مهابته فى نفوس رعيته، هذا بالنسبة للشئون الداخلية أما فى الشئون الخارجية فهو يظل مهيب الجانب، حاضر النفوذ، دون إخلال بالقواعد والأصول. لقد خرج رانخو مبعوثًا إلى الدول الخارجية، ومفوضًا من جانبكم بسلطات غير عادية، مما شجعه على منح الإقطاعات والإنعام على الكثيرين بالألقاب بل وصل به الأمر إلى تجريد الحملات العسكرية، دون أن يجسر أحد على الاعتراض عليه، فإذا ما تم له النصر، عاد بالغنائم إلى ضيعته وإقطاعاته العديدة وترك خزانة الدولة فارغة، وترك أمرها للأمراء والمتعهدين، أما إذا وقعت عليه الهزيمة، فهو ينحى باللائمة على الغوغاء وينسب إليهم كل رذيلة، ويكون الوطن هو الخاسر الأكبر، وقد جاء فى أحد نصوص كتاب الشعر القديم، وهو الفصل المسمى بـ "إيشى"، ما نصه:

(إذا ما ثقلت الأثمار
مالت الغصون حتى انثنت،
وهوت بعيداً عن الأصول التى منها أورقت.
فإذا ما انفصل غصن بعد غصن،
لم يبقَ هناك جذع ولافرع ولاشجر،
وهكذا إذا ما تفرقت الإقطاعات بين النبلاء
وتقلصت مساحة الوطن
وكلما تعاظمت سلطات المديرين
تدنت مكانة الملوك والأمراء..)

وكان القائد العسكرى الشهير فى دولة تشى، والملقب بـ" ناوش" قد تقلد سلطة عظمى فى الدولة فأمر بتقليل كميات الطعام المخصصة للقصر، حتى أصيب الملك بالإنهاك وتوفى بعد مائة يوم بسبب الضعف والهزال، وهكذا فالسلطة فى تشين الآن موزعة بين جلالة الملكة والمنصب الرسمى الذى يشغله رانخو وإلى جانبه الطغمة التى تسانده، مثل: كاولين، وجين يانغ جون، وهو ما يعنى سحب كل الصلاحيات والنفوذ من يد جلالة الإمبراطور، فهؤلاء الأشخاص يشبهون فى خطرهم ومكائدهم أمثال "ناوش"، و" لى روى " وكأنى بك اليوم يامولاى، عندما رأيتك تجلس فى ركن من القصر وحيداً، ستقضى أيامك هكذا، دون أن تورث العرش والمجد لأبنائك وأحفادك!" فأسقط فى يد الملك، وقرر أن يهجر الملكة، ثم أمر بإقصاء رانخو عن البلاد ونقل كاولين من منصبه، وأبعد جين يانغ جون إلى الأطراف النائية من البلاد. وكان أن تحدث الملك إلى فانسوى قائلاً :" كان الملك هوانكون قد التقى بالحكيم كوانشوان الذى مهد له الطريق للعرش الإمبراطورى الأكبر، فأجله الملك وتكرم عليه بأن أجلسه مجلس والده، فهأنذا أعظمك وأجلسك مجلس الوالد الكريم."

لما التقى بين خو بالملك وقال له

التقى " بين خو " (اسم آخر لـ "فانسوى") بالملك شاوانغ -حاكم تشين - وقال له:" أما سمعت يامولاى بالمعبد الكائن وسط الغابات بمنطقة هنس ؟، فقد بلغنى أن شابًا أرعن يسكن الخرائب، كان قد ذهب ذات مرة إلى المعبد وطلب إلى الكاهن أن يلعب معه النرد، قائلاً :" لو غلبتك فلابد أن تتنازل عن منصب الكاهن مدة ثلاثة أيام، أما إذا غلبتنى أنت فيمكنك أن تنزل بى ما تشاء من عقاب "، ثم ألقى النرد ثلاث مرات بيده اليمنى، وثلاثًا أخرى بيده اليسرى، وكسب الجولة فما كان من الكاهن إلا أن تنازل له عن منصبه ثلاثة أيام، فلما انقضت المدة بعث الكاهن بمن يطلب من الشاب الشريد استرداد كرسى الكهنوتية، لكنه باء بالفشل، إذ تشبث الفتى بمكانه، وبعد أيام صارت الغابة ذابلة تتساقط حتى تعرت الجذوع والأفرع، أصابها الجفاف تمامًا بعد سبعة أيام، وهكذا فالوطن يشبه هنا الغابة والسلطة تماثل كرسى الكهنوتية، فهل تبقى فى أمان إذا تنازلت عنه لأى فرد آخر؟! إنى لم أسمع فى حياتى بأن يكون الإصبع أضخم من الذراع ولاشهدت بأم عينى ذراعًا أعظم من ساق، فإذا ما تحقق فى إنسان شىء من ذلك، فهو دليل على المرض والسقام. وماذا يامولاى لو رأيت مائة رجل يتسابقون جريًا وعلى ظهر كلٍّ منهم آنية فخارية، أما تظن أن الآنية تقع وتتحطم!، أما أن السلطة فى دولة تشين تتفرق الآن فى أيدى كلٍّ من هوايانغ جون، و رانخو وجلالة الملكة، والجزء الباقى بيد جلالتك، ثم إنى إذا شبهت الوطن بالأوانى الفخارية فلابد أن أتوقع أن يتحطم أحد تلك الأوانى ويتفرق بين أربعة أشخاص، وكما قلت لك آنفًا يامولاى فإن الثمرة الناضجة تميل بالفرع الواهن وتقصمه وتهوى به بعيداً عن السيقان، وتظل الأفرع تنفصل إحداها عن الأخرى حتى يفسد قلب الشجرة. إن النبلاء من ذوى الإقطاعات الكبيرة يمكن أن يلتهموا أوطانهم حتى تذوب بين أيديهم، وكذلك الوزراء والمديرين من ذوى البأس، يمكن لنفوذهم وسلطانهم أن يهدد سلطة الملك نفسه. وأقول لجلالتك بصراحة إن كل موظف فى

البلاط، من أصغر منصب إلى أكبر مرتبة، يشبهون رانخو فى معظم الصفات، فكأنهم أقرباؤه أو إخوته، ولأن الأحوال الآن غير مضطربة، فلا تبدو هناك أية مخاطر، أما إذا وقعت الواقعة، وانفلتت الأمور أو ثارت الحروب والفتن، فلابد أنى سأجد جلالتك جالساً وحدك فى ركن من أركان القصر، ولا أخفى عن جلالتك أن الهواجس كثيراً ما تنتابنى فيما يتعلق ببقائكم على العرش، وربما شهدت السنوات القادمة صعود ملوك آخرين من غير أبنائك أو أحفادك. وقد بلغنى أن الملوك والحكماء النابهين فى أمور السياسة وإدارة شئون البلاد، كانوا يمسكون زمام الأمور بأيديهم، وكان كل رعاياهم من تابعيهم المخلصين، كلٌّ فى موقعه، سواء داخل القصر أو خارجه، ومن ثم تحقق الأمن والاستقرار، فسارت سياستهم على النحو المرسوم لها، أما الآن فإن المبعوثين الذين أوفدتهم جلالة الملكة قاموا بتوزيع الإقطاعات كيفما اتفق ووزعوا شارات القتال وأوامر الحرب على كل من هب ودب، واستغلوا سلطة الملك فى تأليب الفتن وشن الغارات، فكلما تحقق نصر فى معركة، جلبت الغنائم إلى البيوت والإقطاعات الخاصة، أما خزانة الدولة فقد تم نزحها لتصب فى خزانة جلالة الملكة وشركائها، وقد قيل قديمًا إن هذا بالضبط هوالطريق المؤدى إلى (هلاك البلاد، وضياع العروش والممالك)، ولطالما راح هؤلاء الثلاثة : الملكة، رانخو، هوايانغ جون ينهبون ثروات البلاد سعيًا لتحقيق مآربهم الخاصة، فقد كان طبيعيًا أن يتدخلوا فى قرارات القصر وأن يتنازعوا السلطة فيما بينهم وهو ما أدى إلى الوضع الذى تجد نفسك فيه الآن يامولاى محاطًا بفوضى لاحدود لها."

لما أرادت تشين مهاجمة هانكو

أعدت تشين العدة لمهاجمة هان، وبالفعل قامت قواتها بحصار منطقة "شينغ وى" التابعة لأرض غريمتها، وهنالك التقى فانسوى بحاكم تشين، وقال له: " فى الحرب، تجد من يخططون لاحتلال الأراضى، مثلما تجد أيضًا من يبذلون كل جهد لاستلاب المشاعر وأسر النفوس، ولقد قام رانخو بمهاجمة وى عشر مرات دون أن ينجح فى

إخضاعها ولم يكن ذلك يعني ضعف تشين مقابل قوة ومنعة وي، وإنما لأن المطلوب هنا كان الأرض فقط، والأرض هي أكثر ما يحبه الأمراء والملوك، وهناك دائمًا وراء كل أمير وحاكم من لديهم الاستعداد لبذل أرواحهم في سبيل الحفاظ على الأرض التي يريدها السادة الأمراء، لذلك فقد فشلت عشر حملات متعاقبة في إثنائهم عن الدفاع عن أرضهم، والآن وجلالتك بصدد الاستعداد لمهاجمة هان، فلست أريد لك أن تركز اهتمامك على الاستيلاء على الأرض فقط، بل الاستيلاء على قلوب الناس الذين يعيشون فوق الأرض، ثم إني أرجو من جلالتك أن تجري مباحثات مع " جانغ بين " مستشار هان، أثناء حصارك لمنطقة شينغ، وأتصور أن لو كان الرجل على قدر من الفطنة والكياسة، فلابد أنه سيسارع إلى التنازل عن بعض الأراضي لك، ثم يحاول مليكه أن يدافع عن اقتراحه بمقولة أن التضحية ببعض الأراضي أفضل من ضياع الأرض جميعًا، أما إذا لم يكن الرجل على تلك الدرجة من الوعي وحسن التصرف، فسوف يطرده الملك ويستبدله بآخر أقل مرونة في المباحثات وشروط التسليم، وهو ما سيعني في آخر المطاف توقف المباحثات لكي تقوم جلالتك بالحصول على الأراضي كلها بالقوة المسلحة ".

لما حكى بين خو الحكاية

حكى "بين خو" ذات مرة حكاية، فقال: " إن أهل دولة جنج يطلقون على حجر الماس الخام اسم (بو)، والغريب أن سكان دولة جو يطلقون نفس التسمية بأصواتها (بو) على لحم الفئران الذي لم يجفف. وذات مرة كان أحد موظفي دولة جو يمر أمام محل أحد تجار دولة "جنغ"، وهو يحمل في صديريته لحم فئران غير مجفف، فتوجه إلى التاجر وسأله إن كان يريد شراء (بو) [الماس الخام] فما إن أخرج الرجل يده من صديريته، و أخرج ما فيها حتى فطن التاجر أنه إنما يقصد لحم الفئران، فأعرض عنه.

أمـا وقد صـار الأمـيـر " بينغ يوان " (ولد حـاكم جـاو) يظن نفسـه واحـدًا من حكمـاء الزمـان، بعد أن ذاع صيتـه بين الممالك، فقـد راح يفاخـر الجميع بذلك حتى سقطت فى عينيه المهابة لباقى الملوك بما فيهم أبوه الملك " أوليـنـغ " نفسـه، بل الأدهى من ذلك أنه قـرر طرد أبيه، وحدد إقـامتـه فى منطقة نائيـة تسـمى شـاتشـيـو، وخـفض مكانته الاجتمـاعية بعد تجريده من ألقاب الشرف الملكى، فـعاش كواحد من الرعـايا العـاديين وسط الناس، ورغم ذلك فـقـد بقى كـثـيـر من الملوك يـحـفظون للملك الـعـجـوز مكانته واحترامـه، فهؤلاء الحكام لايملكون ذكـاء وبصيرة التاجر المشار إليه آنفًا، ذلك أن بقية من وميض العز والوجاهة أزاغت بصائرهـم فلم يفطنوا إلى ضيـاع قيمته التى هى رأس ماله الأساسى ".

لما قرر المخططون السياسيون عقد اجتماع

قرر المخططون السياسيون لكل الممالك الـتآزر معًا والاجتماع فى جلسة موحدة بعاصمة دولة جاو وذلك لترتيب خطة يتم بمقتضـاها الهجوم على تشين، وهنالك توجه رئيس وزراء تشـين " يين خو " إلى الحـاكم، وقال له مـا نصـه: "لايشـغلن بالك شىء من ذلك يامـولاى، ودعنى أفض جـمـعـهم هـذا، ذلك أن دولة تشـين لاتحـمل لأى من هؤلاء المجتمعين أية ضـغائن، والحق أنهم إنما يـدبرون خطة هـجومية ضـدنا سـعيًا لمغانم شخصية، وانظر يامولاى إلى كلاب حراستك الهائمة حولك تجد منها النائم واليقظان والمتسكع والمتعلق بأذيالك يلعق ثوبك، فمـاذا لو ألقيت إليها عظام ذبيحة طازجة، أمـا تجد الكل قد اجـتـمع فى دائرة واحـدة وأفـواهـهم تنبح فى وقت واحـد، فـمـا اجـتـمع صـيـاحـهم إلا تلبـية لنداء الجوع " ، وهنـالك أوفد ملك تشـين أحد مـبـعـوثيـه (يدعى تانجيو، ولا توجد ترجمة وافية) وبصـحبته إحدى الفرق الموسيقيـة، وصندوق ملىء بآلاف الدنانير الذهبية، وطلب إليه الإقامة بمدينة " ووأن " الكائنة بدولة جاو، بحيث يدعو إليه أخلاطًا من الناس ممن تباينت أمزجتهم وبيئاتهم إلى مـأدبة عامرة، بحيث

يفاجئ المدعوين بالهدايا الثمينة التي فى جعبته، وينادى بأعلى صوته قائلاً :" يا أهل مدينة هاندان (عاصمة جاو) هلموا إلى الذهب هأنذا أنثره عليكم، فخذوا حظكم منه كيفما شئتم "، فيأخذ الناس جميعًا ويحرم منه المخططون وبذلك يذكر الناس دولة تشين بالخير والفضل العميم"

وقد حرص يين خو على لقاء تانجيو قبل ذهابه، وقال له ما نصه:" لئن كنت تريد أن تسدى خدمة جليلة إلى دولة تشين فاذهب إلى هناك وانثر الدنانير الذهبية ولاتسألن فى يد من وقعت تلك الثروة، وليس عليك إلا أن تنفض كل ما فى جعبتك، وسأرسل معك من يساعدك فى حمل خمسة آلاف دينار."، وبالفعل ذهب الرجل فى مهمته، ولم يكد ينثر ثلاثة آلاف دينار، حتى دب الشجار بين المخططين هناك، وتنازعوا فيما بينهم.

لما ذهب أحدهم إلى يين خو وتكلم معه

ذهب إلى " يين خو " من قال له:" أصحيح أنك ألقيت القبض على "مافوجون " ؟"، فلما رد عليه بالإيجاب راح الرجل يسأله ثانية:" بلغنى أنك على وشك الهجوم على مدينة هاندان، فهل هذا صحيح أيضًا ؟"، ورد عليه بالإيجاب كذلك ، فى هذه المرة لم يلبث الرجل أن قال له:" اعلم أنه إذا ما بادت دولة جاو فسوف يعلو نجم الملك "شاوانغ " حاكم تشين، وبالتالى فسوف يترقى القائد الأعلى للجيش، وهذا طبيعى بالنسبة لقائد حارب فى مواقع عديدة لأجل دولة تشين؛ فقد شارك فى القتال على الجبهات الشمالية والجنوبية، واقتحم الكثير من الأسوار والخنادق، واحتل أهم المدن فى القطاع الجنوبى من بلاده وهما مدينتا "أوتشنغ"، و "يين تشنغ " وقطاع هانشون بأكمله، بل أباد جيشًا بكامل عدته وعتاده، وهو جيش مافوجون، دون أن يفقد جنديًا أو يتلف سلاحًا، وقد بلغ فى ذلك مرتبة لايدانيها الرجال الثلاثة: جوكون، شاوكون،

لوانغ ، الذين اشتهروا بإسداء الفضل لملك جو، حيث يقول التاريخ إنهم قاموا بإبادة أسرة "يين " الملكية من الوجود، وساعدوه فى تأسيس إمبراطورية جو الكبرى مكانها، أما إنه إذا بادت دولة جاو، وتربع على عرش إمبراطورية عظمى، وترقى " باى تشى " إلى المراتب الثلاث العليا، أو ربما فاز بها مجتمعة فصار قائداً أعلى، وكبير حكماء، ووزيراً أعظم، فهل ستقبل أن تعمل تحت إمرته كواحد من مرؤوسيه ؟، وحتى لو كنت فى أعماق قلبك لاتقبل أن توضع فى هذا الموضع، إلا أن الظروف لن تعطيك ترف الاختيار.

ومن المعلوم أن قوات تشين سبق لها أن حاصرت هان ومدينة شينغ، ولقيت متاعب جمة فى إقليم شاندانغ، حتى أن كل سكان الإقليم عادوا إلى دولة جاو؛ لأن أحداً منهم لم يكن يرغب فى أن يصير واحداً من رعايا دولة تشين، وهذا أمر معروف وذائع، فإذا غامرت تشين الآن بغزو دولة جاو، فلابد أن يكون معلوماً لكم أن الجزء الشمالى من جاو سيؤول قطعاً إلى دولة " يان" والجزء الشرقى سيتبع دولة تشى، أما الجنوبى فسيعود بطبيعة الحال إلى كلٍّ من وى، وتشو؛ وهو ما يعنى أن مساحة الأرض المتبقية لدولة تشين التى تمكنها من أن تفرض عليها سلطانها ستكون ضئيلة جداً ، لذلك أقترح عليك أن تنتهز الفرصة كى تدعو دولة جاو إلى التنازل عن جزء من أراضيها طلباً للمصالحة، وهو ما يعنى ضمناً أنك تعطى الفرصة لرئيسك ليفخر بتحقيق مأثرة كبرى ".

لما قامت دولة هان بمصادرة إقطاعات يين خو

قامت دولة هان بمصادرة إقطاعات يين خو بإقليم رونان، وهنالك تكلم الملك شاوانغ حاكم تشين معه، فى هذا الشأن فقال له ما نصه:" أتراك قد حزنت لذهاب ثروتك وإقطاعاتك ؟"، فأجابه الرجل مستنكراً شعوره بالحزن، نافيًا عن نفسه أى إحساس بالسخط أو الضيق مما أصابه، فتعجب الملك، وسأله عن السبب فى هذه

الطمأنينة التى حلت به، فأجابه الرجل قائلاً :" كان فى دولة وى قديماً، رجل يدعى " دونمين "، وحدث أن توفى ابن الرجل، وكان فتى فى ريعان الصبا، فلم يحزن الرجل، فسأله أحدهم، قال:" كنت تحب ولدك حباً لامثيل له على وجه الأرض، أما الآن وقد مات فإنى أراك غير حزين عليه، فكيف ذلك؟"، فرد عليه دونمين، قائلاً:" كنت فيما مضى بغير ولد، ولم يكن يؤرق قلبى شىء ، ثم إنى رزقت بولد وعشت معه زمناً وها هو ذا الآن قد مات، فعدت إلى زمنى الأول الذى كنت فيه بغير أولاد، فذهب عنى الحزن "، وهكذا يا مولاى، فقد كنت أنا أيضاً فيما مضى مجرد رجل عادى أعيش بين عامة الناس حياة سعيدة هانئة، لكنى ترقيت وتمجدت وصارت لى إقطاعات وثروات ، ثم إنى فقدت كل ممتلكاتى الآن وصرت كواحد من بين الناس، أعيش أيامى فى صفو دائم بغير كدر، تماماً مثل صاحبنا الذى فقد ولده ."، وفكر الملك ملياً فى هذا الرد، لكنه لم يقنع بأنه يعبرعن مشاعر " بين خو " الحقيقية، وتكلم مع وزيره منغاو (من دولة تشى، خدم الملك وانغ؛ فرقاه فى رتبة القائد الأعلى للجيش) فى ذلك الشأن قائلاً:" قد مضت علىَّ أيام وأنا أكاد لاأذوق للأكل طعماً، ولا أضع على فراش جنباً، وقد استولى على الضيق والغم والحزن، لمجرد أن إحدى القرى الواقعة ضمن ممتلكاتى تقع تحت الحصار معرضة للضياع، هذا بينما تسلب من بين خو إقطاعيته الوحيدة دون أن يتكدر خاطره من جراء ذلك، فهل تصدق شيئاً مثل هذا ؟ "، فأجابه منغاو قائلاً : "أمهلنى يا مولاى عدة أيام حتى أقف لك على حقيقة أخباره."

وذهب منغاو للقاء بين خو، وقال له:" أريد أن أخبرك بأنى قد نويت أن أقتل نفسى." فذعر بين خو وقد صدمه الكلام وسأل محدثه عن سبب مثل هذا القول فرد عليه، قائلاً : " أما علمت بأن الملك شاوانغ يفضلك على كثير من الناس، ويختصك بحبه واحترامه حتى جعلك كبير المعلمين بالقصر، وهو أمر معلوم للكافة، داخل وخارج تشين، والآن فإنى أقسم لك، بصفتى القائد الأعلى للجيش، بأنى لن أسمح لنفسى أن أعيش يوماً واحداً دون أن أقود الكتائب وأقصد نحو هان، ذلك البلد الحقير الذى ما كنت أظنه يتصرف على نحو غير ودى تجاه تشين الكبرى ويقوم

بالاستيلاء على إقطاعيتك، ففيم شرف الحياة إذا كنت غير قادر على رد الاعتبار لك!"، وهنالك انحنى بين خو أمام منغاو احتراماً وتبجيلاً ، قائلاً : " بل إني أنا الذى أرجوك يا سيدى أن تتولى بنفسك مهمة رد الاعتبار لى. "، ثم إن منغاو لم يلبث أن أبلغ الملك بما دار بينه وبين بين خو. فمنذ ذلك الحين، صار بين خو كلما طرح موضوع هان للنقاش تشكك الملك فى كلامه ظاناً أنه إنما يريد إقطاعيته المسلوبة فى إقليم " رونان ".

لما هاجمت دولة تشين مدينة هاندان

لما هاجمت دولة تشين مدينة هاندان، استمر القتال بينهما سبعة أشهر دون أن ترفع المدينة رايات الاستسلام، وهنالك ذهب إيجوان للقاء الأمير " وانغ جى "، وقال له :" لماذا لاتتكرم على صغار الضباط بالمنح والمكافآت ؟"، فأجابه بأنه لايحب أن يتدخل الآخرون فيما بينه وبين أبيه الملك، وعاد إيجوان يقول له: "مولاى الأمير، هناك أمور بين الآباء وأبنائهم لاتحتمل سوى الطاعة من قبل الأبناء، لكن هناك من الموضوعات ما يعجز الأبناء فيها عن طاعة آبائهم، فمثلاً إذا زجر الأب ولده طالباً منه تطليق امرأته أو طرد محظيته، فالطاعة عندئذ سهلة ممكنة، أما إذا طلب إليه نسيان صاحبته أو كراهيتها، فهذا تكليف بمستحيل وأمر بما لايستطاع الإتيان به، ثم هب مثلاً أن إحدى السيدات المكلفات بحراسة مجموعة من البيوت القروية المتلاصقة قامت ذات صباح لتقول للناس إن إحداهن قد دعت بالأمس رجلاً غريباً إلى منزلها؟، فبالنسبة للموضوع الأول، فلربما استطاع الابن أن يطيع أباه فى تطليق امرأته وهجر محظيته أو بيعها، لكن المستحيل بعينه هو أن يطلب رجل من ولده أن ينسى حبيبة قلبه، أو أن يمتنع عن التفكير فيها، وفيما يتصل بالموضوع الثانى، فلن تفلح فى أن تمنع المرأة من أن تتجنب لقاء الغرباء بمجرد أن تفضحها على الملأ، لأنها حتى لو امتنعت عن البغاء فسيظل الناس جميعاً يحتفظون فى صدورهم بفكرة سيئة عن سلوكها.

أقول يا سيدى إن ما يربط بينك وبين والدك من مشاعر حب وود لاتعدو أن تكون مشاعر طبيعية بين أب وولده، ولئن كانت رتبة صغار الضباط تعد من المناصب المتواضعة، فهى ليست أكثر اتضاعاً من مهنة السيدة حارسة البيوت الريفية، ثم إن قيامك على بعض شئون القصر الكبرى، وظهورك أمام كبار القادة بأنف شامخ ورأس متعال، لن يدوم طويلاً . وأود بهذه المناسبة أن أذكرك بثلاثة من الأمثال السائرة، لعلك قد سمعت بها من قبل، وهى على الترتيب: " إن ثلاثة كذابين يستطيعون أن يوهموك بأن النمر يسير على قدم واحدة، وعشرة أشخاص يقدرون على طى سيقان شجرة صلبة الجذع قوية الفروع والأغصان، وجمهرة من الناس تقدر على إقناعك بالمستحيل نفسه كأن يقنعوك بأن الجمل يطير فى الفضاء محلقًا بجناحين، لذلك أقول من الأفضل تكريم صغار الضباط، على أن تعاملهم بالاحترام اللائق والمروءة الواجبة "، وبرغم ذلك فلم يأخذ الأمير بنصيحة إيجوان، هكذا، فلما ضاقت الأمور على صغار الضباط ووجدوا أنفسهم فى مأزق فقد غادر معظمهم الميدان عائدين إلى تشين، والأدهى من ذلك أن هؤلاء الفارين ادعوا أن كلاً من الأمير " وانغ جى " و " إيجوان " كانا يدبران مؤامرة للإطاحة بجلالة الملك نفسه. وما إن وصلت هذه الأنباء إلى القصر حتى طار لب الملك، واحمر وجهه من الغيظ والغضب، وأصدر فرمانًا بالقبض على المتآمرين وإعدامهم بما فى ذلك إعدام فانسوى أيضًا فبهت هذا الأخير، ودافع عن نفسه، قائلاً : " تعرف جلالتك أنى لم أكن إلا واحداً من الدهماء الذين كانوا يعيشون على الكفاف فى البلاد الشرقية، وبأنى قد أغضبت حاكم وى فأقسم أن ينال منى، ففررت بذيلى إلى تشين ناجيًا بحياتى، وليس لى فى هذا البلد من سند سوى جلالتكم، فلا أنا قريب من النبلاء ولاحليف للأمراء، فقد كنت أنت يا مولاى من رفعنى من المذلة إلى مرتبة الوجاهة والشرف والمقام الكريم، وقد عهدت إلى بإدارة شئون البلاد، فما من أحد من رعاياك إلا يعرف تماماً مكانتى عندك وتقديرك العظيم لجهدى المتواضع بين يدى جلالتك، لكنى لم أسلم من الوشاية. وهأنذا أقف أمامك متهمًا بالضلوع مع وانغ جى وآخرين فى مؤامرة دنيئة، فلئن كنت يامولاى قد حكمت بإزهاق روحى، فليس ذلك من الحكمة؛ لأن جلالتك ستبدو أمام الناس كمن لايحسن

اختيار الأشخاص للمهام المناسبة أو كمن لايفقه طباع البشر، وهو ما سيعطى الأمراء الفرصة للنيل من مكانتك وتأليب النبلاء عليك، وهكذا، فإنى أقترح على جلالتك أن تدعنى أتجرع السم بيدى ثم تركلنى بقدمك احتقاراً لى وذماً لشخصى الحقير، فإذا مت فلتقم لى جنازة باسم رئيس الوزراء السابق، وهى الطريقة التى تضمن لجلالتك تنفيذ حكم الإعدام فى، وتعفيك من التلويح بسوء اختيارك لمن يثبت أنه لم يكن أهلاً لثقتك من أمثالى، ويمكنك أن تذكر للناس، فيما بعد، أنك لاتخطئ اختيار الأشخاص، حسب ما هو واضح من خصالهم الظاهرة، وإنما كوامن النفوس وأغوارها الدفينة هى التى تستعصى على الإدراك."، وهنالك أعجب الملك بحسن مقالته وتراجع عن الحكم بإعدامه، بل أقام على سابق علاقته الودية به كعهده معه منذ أن عرفه.

لما طرد السيد تسايزى من دولة جاو

لما قامت دولة جاو بطرد "تسايزى "من أراضيها، فقد ذهب الرجل إلى وى وهان، فبينما هو على الطريق، احتال عليه اللصوص وسرقوا آنيته ومتاعه، وكان قد سمع أن بعضاً ممن اتخذهم فانسوى وزراء ومديرين، مثل "جنغ آن بينغ" و" وانغ جى"، قد وجهت إليهم تهمة الخيانة العظمى، وهو الأمر الذى وضع فانسوى فى حرج بالغ، فعول على الخروج غرباً إلى تشين،ولما كان تسايزى فى طريقه لمقابلة ملك تشين، فقد حث بعض الناس على التنديد بـ "فانسوى" وذلك لإغاظته بمقولة أن " تسايزى"، ذلك الضيف العابر، ذو المكر والدهاء واللسان الذرب والحكمة الفياضة قد صار على وشك الالتقاء بجلالة الملك الذى سوف يسارع بتعيينه رئيساً للوزراء، ومن ثم تجد نفسك خارج القصر" ، فما إن بلغ هذا الكلام فانسوى حتى أرسل فى طلب تسايزى فلما مثل هذا بين يديه نظر حوله، فلم يعبأ بمن حضر، وإنما اتجه مباشرة نحو فانسوى واكتفى بأن رفع يديه بالتحية العادية دون أن ينحنى له على سبيل التبجيل اللائق بمكانته الرسمية، وهو الأمر الذى أغضب فانسوى كثيراً، وخصوصاً

عندما اقترب منه وشاهد على محياه علامات الأنفة والكبر، فاشتد عليه فانسوى فى القول بما نصه: "اصدقنى القول هل صحيح أنك توعدت علنًا بالسعى لدى الملك لإقالتى من منصبى والحلول مكانى رئيسًا للوزراء ؟"، فلما رد عليه تسايزى بالإيجاب، عاد فسأله عن حجته فيما قال، فأجابه تسايزى بما نصه: "أعجب لقلة تبصرك بطبائع الأمور، أما تعلمت من تناوب الفصول الأربعة تجربة البدء والنضج والاكتمال، ذلك أن فى الاكتمال تمام النضج الذى يعقبه تطور لاحق يسعى بدوره لمنتهى الاكتمال وهكذا دواليك، ألا يتمنى كل رجل فاضل أن يسعد بصحبة طيبة وبصيرة نافذة وحياة سعيدة !"، ثم إن فانسوى وافقه على رأيه، فواصل تسايزى كلامه قائلاً :"ألا يتمنى كل ذكى نابه ذرب اللسان، فقيه البيان أن يتعامل مع الناس بالعدل والخلق الكريم؟"، ولم يعترض فانسوى على هذا القول أيضًا، فراح يواصل كلامه بقوله:"تأمل يارجل فيما يمكن أن يهب الواحد منا للآخرين من حياة هانئة وشرف ومجد، وفيما يمكن أن يعود بالنفع والصلاح على الأمور كلها، فتتحقق الآمال وتنصلح الأحوال وتطول الحياة بالخير والسعادة ويرث كل وارث خير ما خلفه له سابقوه، وينطبق الاسم على المسمى، والمعنى على الجوهر، ويبقى الخير على وجه الأرض جيلاً بعد جيل، وتلهج الألسن بالشكر لكل ذى فضل من السابقين، وبالتشجيع على مكارم الأخلاق لكل ذى مروءة من اللاحقين، أفليس كل ذلك موافقًا لناموس الطبيعة، وقانون الطبائع الذى قال الحكماء عنه "إن من أدركه فقد أدرك الخير والحظ السعيد"، وأجاب فانسوى بكلمة واحدة، قائلاً : "بلى"، فواصل الرجل كلامه قائلاً :" إن رجالاً من أمثال " شانجون " فى دولة "تشين" و"أوتشى" فى دولة "أوكو"، و" تايفوجون " فى دولة "يو" ، تشير سيرة حياة كل منهم إلى ما يمكن أن يمتلكه المرء من إرادة وقدرة تحقيق الآمال الكبرى.
" عندئذ أدرك فانسوى أن تسايزى يريد أن ينال منه بالمناظرة البليغة والجدل اللفظى النابه، ومن ثم فقد راح يقول:" نعم، كانوا يستطيعون تحقيق آمالهم بالتأكيد، فقد قدم "كوسونيانج" لدولة تشين خدمات جليلة، بذل فيها كل عبقريته وذكائه بكل إيثار واتخذ العدل منهاجًا فى الثواب والعقاب، فاستقر العدل فى ربوع البلاد، دون أن يبخل بطاقته ولا عبقريته على البلاد، بل تفانى فى سبيل الخير بكل إخلاص، ولم يسلم من

الوشاية والمتاعب برغم أنه قدم للوطن خدمات جليلة، أبرزها أنه استطاع القبض على قائد دولة وى، وتمكن من أن يقهر أعداء تشين ويسلب أرضًا هائلة المساحة ليضمها إلى أراضى تشين وكذلك أيضًا فقد بذل " أوتشى " كل الإخلاص والتفانى لدولة تشو، حتى إنه استطاع أن يحافظ على المصالح العامة للبلاد ويجنبها ويلات الجشع والأنانية، حتى توارى الفساد فى زمانه وتجلى النقاء والتفانى فى أحسن صوره، فاحتجبت الرذيلة وبرزت الفضيلة. وقد كان رجلاً فاضلاً مهذبًا جادًا فى أقواله وأفعاله، ولم يكن يخشى لوم اللائم ولايأبه بتقريظ المادح مادام يمشى على الطريق القويم، مما دفع بدولة تشوإلى اعتلاء مكانة سامية بين الممالك والإمبراطوريات، ومع ذلك،فلم يسلم الرجل من الأذى، وقد فعل تايفوجون الكثير لأجل حاكم دولة يو؛ من ذلك - مثلاً - وقوفه إلى جانبه فى وقت المحنة، دون تردد أوتكاسل، وبرغم مآثره الكثيرة، فلم يحدث أبدًا أن رآه إنسان وهو يصعر خده تيهًا واختيالاً واستكبارًا، فكلٌّ من هؤلاء الثلاثة قد بلغ ذروة الإخلاص والعرفان والتفانى، حتى صارت التضحية بالشهرة والإنجازات الكبرى أمرًا مسلمًا به مادام الحق هو الهدف الأسمى، بل قد صار الموت فى سبيل هذا المبدأ تضحية شريفة وغالية، ثم إن تسايزى أجابه بما نصه:" لئن كان الحاكم جليلاً والحاشية عاقلة فاضلة، فذلك من أثمن الخصال التى تحت السماء، فإذا كان الحاكم عاقلاً متبصرًا والوزراء مخلصين شرفاء، فذلك من حسن حظ البلاد ويمن طالع أهلها، ثم إذا كان الأب فى بيته رحيمًا والأبناء مطيعين بررة وكان الزوج وفيًا لامرأته، والزوجة عفيفة كريمة، فهذا من أثمن كنوز السعادة الأسرية، وبرغم ذلك، فهناك أمثلة تمتلئ بها كتب التاريخ عن شخصيات اشتهرت بالإخلاص الشديد، إلا أنها لم تحقق الخير المأمول منها، وهذا ينطبق على الوزير بيكان، الذى لم يستطع أن يحمى بلاده من الانهيار وقت المحنة، بل إن واحدًا فى ذكاء أوزاشيو، لم يتمكن من أن يصد عن وطنه (دولة أو) خطر التفكك والضياع، ثم إن أكثر الشخصيات فى التاريخ تمسكًا بأسس المعاملات والتواضع والأدب الجم - وهو الوزير " شن شنغ " - لم يستطع أن يصد تيار الفوضى والانقلابات العاتية عن بلاده (دولة جين).

فالغرض من سردى لكل هذه الأمثلة، توضيح مسألة مهمة جداً تتمثل فى أن وجود رجل دولة ، أو ولد بارٌ بوالديه لايضمن بالضرورة حماية الوطن من الهلاك ولا الأسرة من الضياع والتفكك، والسبب فى ذلك سهل جداً ، ذلك أنه لافائدة من وجود رجل دولة مخلص بغير حاكم ذكى فطن، ولا خير يرجى من ابن مطيع مادام الأب نفسه طائشا أرعنًا عاجزًا عن تقدير الخصال الطيبة التى يتحلى بها أبناؤه، فمن ثم ينظر الناس جميعًا بعين الازدراء للأب الأحمق، ثم إنه لو كانت المآثر والصفات الجليلة لاتتبدى إلا بعد وفاة أصحابها، لما استحق واحد فى حكمة ويتزى أن يتصف بالحكمة، ولا سُمى كوانجون بالرجل القدير ".

وأخيراً لم يملك فانسوى إلا أن يعترف ببراعة اللسان وفصاحة البيان اللتين يتحلى بهما تسايزى.

الجزء الثانى من الفصل نفسه

وما كاد الحوار يتوقف برهة قصيرة أثناء المباراة الجدلية بين الرجلين، حتى تراءى لـ "تسايزى" أن يلتقط طرف الخيط؛ ليقول لمحدثه فانسوى:" لاجدال فى أن كلاً من شانجون، و أوتشى، وتايفوجون قد أسسوا دعائم شهرتهم على المآثر والإنجازات الجليلة المخلصة، وهو أمر يحمد لهم على كل حال، ولكن ما رأيك فى آخرين مثل هونياو- بأياديه المعروفة على حاكم جو – وشوكون - بخدماته المعهودة للملك شنغ – ألا تعدهم من الطراز المخلص الوفى أيضًا ؟، وفيما يتصل بالعلاقة التى تربط الحاكم بالوزير،فأى أولئك أفضل، الثلاثة السابقون أم الاثنان الآخران؟"

فأجابه فانسوى، بما نصه:" أرى أن هذين الاثنين أفضل من سابقيهم. فرد تسايزى قائلاً :" فما قولك فى مليكك من حيث الصفات الجليلة كالعدل والرحمة والثقة والإخلاص وحفظ العهد والود مع الصديق، أهو أفضل أم الملوك الآخرين،مثل " شياكون "(حاكم تشين)، و" دياو "(حاكم تشو) و" جوشيان " (حاكم يو) ؟ "

فعقب فانسوى بما مفاده أنه لايقدر على تعيين الفرق بينهم جميعًا، فعندئذ قال له محدثه :" صحيح أن حاكم بلدك يتميز بالإخلاص والثقة إلا أنه لايفوق فى ذلك ملوك كلٍّ من تشين، يو، تشو، بل إنك أنت نفسك بكل ما تبذله من جهد لإقرار الأمن فى البلاد ومحاربة الفساد، وتسوية المنازعات والاضطرابات، واستصلاح الأراضى وزيادة مساحة المعمورة واستزراع المحاصيل، وذلك للنهضة بالبلاد وتقوية مكانتها ورفعة شأنها بين الممالك،لا تكاد مآثرك فى هذا المجال ، برغم ذلك، تصل إلى ربع أو نصف ما بذله العظماء الثلاثة: شانجون، وأوتشى، وتايفوجون من جهد، وما حققوه من إنجازات. وهأنت ذا فى منصبك تجنى الخير العميم والرزق الوفير والمكانة الرفيعة، بأكثر مما كان يمكن أن يحصل عليه أحد هؤلاء الثلاثة أو كلهم مجتمعين، ومازلت حريصًا على البقاء فى مكانك لا تبرحه طمعًا فى زيادة، حتى لقد ظننت بك الظنون، وأراك لن تدع بغيتك حتى تضطرك الأسباب إلى ما تكره، والمثل السائر يقول:" ما بلغت الأمور الذروة إلا انحطت إلى الحضيض، فما استدار القمر بدرًا إلا اعتراه النقص طورًا بعد طور، وما ارتفعت الشمس فى كبد السماء، إلا لتهوى إلى حافة الغروب "، وذلك أن انحطاط الأمور بعد بلوغ قمة ارتفاعها، هو القانون الطبيعى للوجود، كذلك التطور والتأخر، والتمدد والانكماش، كلها مظاهر التغير التابعة لتطور الزمن فى أحواله الطبيعية، وهو ما أدركه واستقر عليه فكر الحكماء من الأزل.

وتذكر كتب التاريخ أن " تشى هوانكون " قد ترأس اتحاد الإمارات والدويلات تسع مرات، استطاع خلالها أن يضع سياسات ناجحة أفادت فى إجراء إصلاحات شاملة للدويلات المختلفة، وظل على ذلك طيلة فترة من الزمن إلى أن جاء اجتماع كويتشو، وتصرف أثناء الاجتماع بصلف وغطرسة وتكبر، مما نتج عنه تمرد تسع دول عليه ومروقها عن التحالف.

وهناك حكاية أخرى حول الملك " أوفو " حاكم دولة " أو " الذى لم يكن يعاديه أحد على وجه الأرض، غير أن ازدراءه للنبلاء، ومعاملته المهينة لكلٍّ من دولتى تشى،

وجـين، كانا السبب فى هـلاكه وضيا ع البـلاد. وكذلك كـان البطلان الصنـديدان : " شيابو "، و "تايشى تشى " يملكان المقدرة على مصارعة العصبة من المقاتلين بلكمة واحدة، وبرغم مـا اشتـهرعنهما من قوة جبارة، فقد لقيـا حتفهما على يد الدهمـاء البسطاء نوى الأيدى الواهنة غير المدربة على القتال، ففى تلك الأمثلة تجد الاعتداد بالقوة وحدها دون التحلى بالحكمة والمنطق والعقل.

ثم أذكر لك وقائع أخرى، منها مثلاً أن " شانغ جون " كان قد قدم خدمة جليلة لحاكم تشين، وذلك بتوحيد الموازين والمكاييل، وتوزيع الأجهزة الموحدة المقاييس على الناس، ولم يكتفِ بذلك بل قام بتعديل القوائم الضريبية؛ ليقضى على نظام تقسيم الأراضى حسب طريقـة " المربعـات التـسع "، فـعمل خـرائط مـساحـيـة جديدة، وعلم المزارعين طرقًا مستحدثة فى فلاحة الأرض ومبادئ أساسية فى فن الحرب والقتال، فلذلك انتصرت جيوشه فى المعارك، وزادت مساحة البلاد بما أضيف إليها من أراضٍ جديدة غنمتها فى الحروب، بل تمكنت فى وقت السلم كذلك من تشييد قواعد التقدم والرفاهية، فخضع الجميع تحت سلطان تشين أم الممالك جميعًا، التى ذاعت شهرتها فى كل زمان ومكان، فما إن أتم الرجل صنيعه بالخير حتى تنكرت له حظوظه، فقتل غدرًا وغيلة تحت سنابك الخيل.

وكانت تشو، فيما مضى، تملك حشوداً هائلة من المحاربين المدربين الذين فاق عددهم المليون مقاتل، وقد جاء القائد المحنك " باى تشى " على رأس جيوشه ليقاتل دولة تشو، فما إن وقع الصدام بينهما حتى سقطت كلٌ من مدينتى "يان " و"بينغ " فى قبضة المظفر "باى تشى"، ثم لم تلبث أن سقطت قلاع إيلين بعد ذلك بقليل، ثم تقدمت قوات تشين نـحو الجنوب تحت إمرة هذا البطل لتلتهم كلاً من دولتى تشو ، وهـان ، ثم عبرت حدود هان، ووى، لتلتقى فى قتال ضـارٍ بدولة جاو، وتوغلت فى الشمـال لتلتقى بجيش جاو تحت قيادة " مـافوجون " حيث لقى هذا الأخير شر هزيمـة على يد قوات تشين التى تقدمت لتفتك بأكثر من نصف المليون من قوات جاو، حتى صارت الدماء أنهاراً والصياح رعوداً، والدمدمة زلزلة مهولة، فكانت تلك هى الواقعة التى استتب بها

سلطان تشين فوق الدول، فتربعت على عرش الممالك، وصارت إمبراطورية الزمان، فمنذ ذلك الحين خضعت جاو وتشو تحت إمرة تشين بعد أن دوخهما القائد المغوار الذى استسلمت له وحده أكثر من سبعين مدينة بغير قتال، فما إن لمعت أنوار مجده فى الآفاق واستتب له المقام الفريد بين القادة والمحاربين العظماء حتى نكل به الملك " شاو " حاكم تشين، وقتله شر قتلة فى مدينة دويو.

أما الوزير الأعظم "أوتشى " فقد فعل الكثير لأجل حاكم تشو(الملك دياو) فمن ذلك مثلاً أنه أخلى الدواوين من الموظفين الكسالى والخاملين وغير المؤهلين من الفنيين والعمال، وأقال من الوظائف العامة كل من لم تثبت جدارته، وأغلق الباب فى وجه كل منافق ومداهن وأفاق، ووحد العادات والمعاملات فى كل أرجاء الوطن، واستطاع أن يقهر بلاد الشمال وأن يهدم قلاع مدينة " يانغ يو"، وأن يخرس ألسنة المحرضين، والمجادلين وأدعياء فنون الحرب وأساطين السياسة، فما إن كملت أفضاله على بلاده حتى كان جزاؤه تقطيع أوصاله بعد قتله بغير ذنب جناه، ويقال إن الوزير الأعظم لدولة يو، الملقب بـ "تايفوجون" كانت له أيادٍ بيضاء على الملك "كوشيان "، حيث استصلح له الأراضى البور، وخطط له المدن وأسس الحواضر العظيمة، وشق الترع والمصارف، واستزرع أجود أنواع النباتات والأشجار، ثم قاد الرجال وأيقظ الهمم، وقصد نحو يو، فحطم حصونها وأزال منعتها وهيبتها وأسس للبلاد قواعد الرفعة والجلال، ولم يأمن مكر مليكه به، فلقى على يديه حتفه فى آخر المطاف.

فهؤلاء الأربعة قدموا أرواحهم فى سبيل مجد أوطانهم وقادة بلادهم، فلم يند عنهم تقصير أو إهمال، مع ذلك فقد ساءت أقدارهم وباءوا بشرّ المجازاة، فأولئك هم الذين يقال عنهم بأنهم : "مندفعون للأمام بغير رجوع، منطلقون بغير تريث "، وذلك بطبيعة شخصياتهم وتكوينهم.

أما " فان لى " – رئيس وزراء دولة تشو – فقد كان يدرك بوضوح المنطق الذى يدعو الرجل الذكى لأن ينسحب تمامًا من الساحة عندما يتوفر لديه رصيد هائل من

النجاح، وهكذا فقد بقى طوال فترة توليه منصبه بعيداً عن الانغماس الشديد فى دنيا الدوائر الوظيفية، بل اختار لنفسه أن ينشغل بعالم التجارة والمال تحت اسم مستعار هو (تاوجوكون)، وأظنك تعرف المقامرين أو على الأقل سمعت عنهم، وهم صنفان: الصنف الأول : يريد أن يكسب الرهان كله وأن يستحوذ على المنضدة وما عليها لايدع شيئًا دون أن يستولى عليه، والصنف الآخر : يكتفى بشق من الربح؛ لينهض، ويمضى بعيداً، فهذا أمر معهود فى دنيا القمار.

فانظر لنفسك الآن وأنت الوزير الأعظم بدولة تشين، تستغل كل ذكائك من أجل البقاء على كرسى السلطة، وينحصر طموحك كله داخل أسوار القصر الملكى، تمد سلطانك فوق الدويلات والإمارات الخاضعة للقصر بينما لاتجنى فائدة من شىء بل تجنيها المقاطعات والولايات التابعة، وأعرف تمامًا أنك أسهمت فى تقوية الجيش وزيادة المعدات والقوات العاملة فيه، وأنك مهدت الأراضى الوعرة (تمهيداً لنشر القوات فوقها) وأغلقت منافذ التسلل عبر الحدود بمنطقة جبال تاى شين شان، وقطعت الطريق الواصل بين تشين والدول الثلاث المعادية، وأنشأت ممرًا كبيرًا يصل بين بلادك وكلٍّ من دولتى هان و شو ، وجعلت تشين دولة مرهوبة الجانب. فلما تحققت لها المكانة، وتكلل سعيك فى هذا السبيل بالنجاح، وبلغت ذروة التفوق الباهر، جاءك من كل صوب من يريد أن يقاسمك نصيبك فى هذا النجاح، فإذا لم تنسحب عن مكانك وتتوارى بذكاء، كنت تسلك فى نفس الطريق الذى سلكه قبلك أولئك الذين حدثتك عنهم آنفًا،مثل: شانجون، ويايكون، وأوتشى، وتايفوجون، ولا أدرى ما الذى يمنعك من أن تستقيل وتدع غيرك يحمل أختام الوزارة فتعظم فى كل عين مثلما فعل قبلك الحكيم " بوييى " الذى خلد ذكره بشرف وإجلال، أو أن يذكرك الناس مثلما يذكرون " يين خو " بكل خير، ولربما طال بك الأجل فيطيب بك ولك العيش مثلما عاش طويلاً " وان زيشياو"، و "تشى سونزى "، فتأمن زوابع الشر التى تقصف الأجل قبل الأوان، فانظر ماذا تقرر لنفسك، وأى مصير تختار ؟"

وهنالك أومأ فانسوى برأسه علامة الموافقة التامة على كل ما قيل أمامه بل قام وأخذ بذراع محدثه وقربه وأجلسه بجواره وعامله بكل احترام كما يليق بمضيف نحو ضيفه الجليل.

فما كادت تمر عدة أيام حتى كان فانسوى يقول لجلالة الملك أثناء إحدى الجلسات معه: " قد التقيت يامولاى برجل قادم من شاندونغ اسمه " تسايزى "، لم أرَ أحداً فى مثل فصاحته ولاقدرته على طرح الحجج البارعة، بل إنى لاأجد فى نفسى القدرة على منافسته فيما تميز به من مواهب وعندئذ أمر الملك بإحضاره ليمثل بين يديه، فلما حضر وتكلم معه أعجبه قوله جداً، وانشرح له صدره وأحبه حبًّا لامزيد عليه، أمر بتعيينه فى وظيفة كبير المستشارين الأجانب بالقصر الملكى، ثم إن فانسوى تقدم بطلب الاستقالة من منصبه بسبب المرض الذى أنهك جسده، فرفض الملك طلبه، وأشار عليه بالبقاء فى منصبه، فتعلل بشدة مرضه، وتدهور حالته الصحية مما يعرقل شفاءه المأمول، وقام وتنحى عن كرسى الوزير الأعظم، ولما كان الملك معجبًا بأفكار الضيف الذكى، ومقتنعًا بقدرته على تولى شئون البلاد، فقد عينه رئيسًا للوزراء، ولم تكد تمضى فترة من الزمن حتى زال عرش دولة جو من الوجود، تلك الدولة التى كانت ذات يوم تقع على الحدود الشرقية للبلاد. وما كاد تسايزى يمضى فى عمله الجديد بضعة أشهر حتى حاصرته الأحقاد والضغائن، فخاف على نفسه أن تطيح برقبته ضربة سيف غادرة أو أن يطعنه رمح الاغتيال، فقدم استقالته بزعم عدم لياقته الصحية لإدارة مهام منصبه، وتلقب باسم مستعار (سمى نفسه: جانشن جون) وبقى فى دولة تشين بعدها لسنوات عديدة، وعمل فى خدمة كثير من ملوكها، منهم: شاوانغ، شياوون، وجوان ران . بل عاش حتى أدرك زمن العاهل الصينى العظيم " تشين شى هوانغ " [أول إمبراطور للصين الموحدة فى تاريخها الطويل] ، وعمل لفترة فى خدمته وقضى ثلاث سنوات موفداً من قبل تشين إلى دولة يان، وفى نهايتها أرسلت هذه الأخيرة مبعوثًا من طرفها، هو الأمير " تازى تان " الذى ما إن وصل تشين حتى ألقى القبض عليه وأخذ رهينة.

سجل تشين الرابع

لماستولت تشين على مقاطعة هانشون

ما كادت دولة تشين تستولى على منطقة هانشون التابعة لتشو، حتى قامت بينهما حرب شعواء دارت رحاها فى منطقة " لانتيان " وهى الموقعة التى منيت فيها تشو بهزيمة منكرة، وما إن سمعت كلٌ من "هان" و " وى " باندحار دولة تشو حتى هجمتا على حدودها الجنوبية، ودخلتا مدينة "تنغ " وعاد ملك تشو يجر أذيال الخيبة والهوان، ثم إن الدول الثلاث: تشى، وهان، ووى)، دبرت جميعها خطة للهجوم المشترك على تشو، غير أن الشىء الوحيد الذى وقف فى طريقهم هو خشيتهم من أن تهب تشين لنجدة تشو، وهنالك ذهب إلى شوكون من أشار عليه قائلاً له:" يمكنك أن توفد رسولاً إلى ملك تشو ليقول له ما مفاده: إن تحالف الدول الثلاث يعتزم الرحيل عن أرضكم، ولو شئتم لتحالفنا معكم لمهاجمة تشين، التى لانظن أنها ستقنع من أرضكم بالاستيلاء على لانتيان وحدها، بل هناك الكثير جداً مما تتطلع إليه بعيون نهمة. ولما كانت تشو، فى الأصل، تساورها الظنون فى جدية موقف تشين من مساندتها ودعمها، خاصة فى غياب ما يستدعى مثل هذا الدعم فى ظل ما يتردد على سمعها من اعتزام الدول الثلاث الرحيل عن أرضها، فسوف تجد نفسها مقبلة على تبنى فكرة التحالف مع الدول الثلاث لضرب تشين، وهو الأمر الذى إذا ما بلغ أسماع تلك الأخيرة فستقلع بالفعل عن مساندتها، وحينئذ تشتد قبضة الدول الثلاث على المناطق التى احتلتها وتغرس أنيابها فى جسد تشو دون تحفظ، وبالطبع فسوف تهرع تشو إلى تشين لطلب النجدة، لكنها لن تجد حينئذ، آذاناً صاغية. فتلك هى الخطة

الناجحة التى إذا ما استطعنا بواسطتها أن نبذر الشقاق بين تشو وتشين، لقربنا فرصة الهجوم الساحق، وزادت احتمالات نجاح هذا الهجوم ".

وهنالك استحسن شوكون الفكرة وأوفد مبعوثًا خاصًا إلى تشو التى ردت على الفور بالإيجاب، ثم لم يلبث الهجوم الكاسح أن انطلق باتجاه تشو التى لجأت بالفعل إلى تشين لنصرتها، فخذلتها جارتها هذه، وتحقق النصر لدول التحالف الثلاثى؛ وجنت من حربها المجد والتفوق والسيادة.

لما ذهب شوكون إلى وى

سافر شوكون إلى دولة وى، وأثناء فترة إقامته هناك أصدر حاكم البلاد قرارًا بطرد المحظية الملكية من القصر (يقال بأن السبب فى ذلك تذمر شوكون من سوء معاملتها له - هكذا تشير الشروح الواردة بهامش المتن !!) ووصلت هذه الأنباء إلى مسامع هانشون - رئيس وزراء دولة تشين - فذهب من فوره للقاء حاكم البلاد، وقال له:"أرى يامولاى أن تقبل منى النصيحة لجلالتك بالزواج من محظية حاكم وى، وهو ما سينجم عنه الاتحاد بين تشى وتشين ومثل هذا الأمر لو حدث فسوف يمثل تهديدًا لدولة وى، ويمكننى القول بأنه التهديد الذى سيتطور إلى هجوم شامل تقوم به تشين حيث تنتزع لنفسها إقليم " شاناندانغ " وبعد ذلك تقف الدولتان المتحدتان تشى، وتشين إلى جانب أمير دولة وى "الأمير فوتشو" باعتبار أن والدة هذا الأمير (المحظية الأم) تقيم فى بلاط تشين زوجة شرعية لحاكم البلاد، ومن ثم تتحول وى من مملكة مستقلة إلى مجرد ولاية تابعة لعرش آل تشين، وقد كان هانون - رئيس وزراء تشى الأسبق يعمل بكل جهده لاستغلال قوة الاتحاد الثنائى بين تشى وتشين لتهديد وى، والإيقاع بـ "شوكون" فى أسوأ مصير يمكن أن يقع لرجل دولة فى مثل حجمه وأهميته، وقد بلغنى كذلك أن هناك أخًا شقيقًا لـ "فوتشو" يدعى تسنوه وأنه يعد العدة لأخيه الأصغر، كى يتسنم ذرى القوة باعتلائه سدة السلطة والنفوذ، فاسمح لى جلالتك بأن

أحاول الضغط على دولة وى بمساعدة كلٍّ من هانون، وتسوه ؛ لضرب شوكون، وهو الأمر الذى من شأنه أن يوقع الرعب فى قلب ملك وى، فيصدر قرارًا يسمح فيه للمحظية الطريدة أن تعود للبلاد. ولابد أن فوتشو سيوصى حاكم وى بالعمل على إرضاء تشين بكل وسيلة وعلى طول الزمن. فإذا رجعت المحظية إلى وى، فستصب جام غضبها على شوكون، وعلى إثر ذلك سيسعى هذا الأخير بكل جهده لكى تعمل " تشى" فيما من شأنه أن يحوز رضاكم وارتياحكم ".

لما قامت دول التحالف الثلاثى بمهاجمة تشين

لما قامت الدول الثلاث : تشى، هان، وى، بالهجوم على تشين، واحتلوا مضيق " هان"، وحدث أن اجتمع ملك تشين إلى رئيس وزرائه، وقال له:" إن الدول الثلاث تملك قوة عسكرية هائلة (= لا أستطيع معها مواصلة القتال) وبالتالى فقد رأيت أن أتنازل عن إقليم هيدونغ طلبًا للمصالحة "، وأجابه رئيس الوزراء بقوله : "الحق، يا جلالة الملك، أن التنازل عن هذا المكان خسارة كبيرة، غير أن تجنب الويلات والمخاطر يعد كذلك أساس المصلحة العليا للبلاد، فتلك هى مسئوليتنا أمام آل "تشين" على مر الزمان ؛ ولهذا أرى أن تتشاور جلالتك مع بقية الأمراء فى هذا الشأن . "

وبالفعل، فقد أرسل الملك إلى الأمراء، فاجتمعوا لديه وكان أن بادره أخوه (من محظية والده) قائلاً:" أرى يامولاى أنك نادم فى كل الأحوال، سواء تنازلت أو لم تتنازل عن شىء سعيًا للمصالحة مع الأطراف المتحاربة "، فاستغرب الملك هذا القول واستفسر منه عن السبب فى استنتاجه هذا، فأجابه: " إذا سلمنا جدلاً ، أنك تنازلت عن هيدونغ للدول الثلاث، فلا بد أنك ستتأمل الأمر، بعد انسحاب القوات المتحالفة، قائلاً فى قرارة نفسك (يا ويلتى، قد فرطت فى أرضى هكذا، لا لن أترك لهم إلا ثلاث بقاع ضئيلة من إقليم هيدونغ، خصوصًا أن قواتهم قد أزمعت الرحيل)، فذاك هو ندمك على التنازل لو تنازلت، فإذا رفضت التفريط فى أرضك، وأصررت على

موقفك هذا فى عناد، فستظل أيضاً تلوم نفسك مما قد يحيق ببلادك من خطر جسيم فيما لو تقدمت القوات المعتدية على طريق زحفها صوب ممر "هانجو"؛ مما يعرض عاصمة البلاد للخطر الوشيك، هذا، بينما كان فى مقدورك تفادى مثل هذا المأزق بشىء من المرونة."، ثم إن الملك رد عليه بقوله:" مادام الموقفان يتساويان فى إثارة مشاعر الندم على ذلك النحو، فلعل من الأفضل أن أندم على التسليم بالإقليم البعيد دون أن أعرض العاصمة " شيان يانغ " لأى خطر، وذلك هو قرارى الأخير. "

وبالفعل فقد أوفد ملك تشين أخاه الأمير للتفاوض مع دول التحالف الثلاثى فى شأن المصالحة مقابل التنازل عن الإقليم المقترح، وهنالك انسحبت القوات المعتدية وزال كل وجه للخطر.

لما تشاور ملك تشين مع رجال البلاط

تحدث الملك " شاو" - حاكم تشين - إلى رجال البلاط من حوله، فقال: "ترى فى أى الفترات تجلت قوة كلٍّ من دولتى وى ، وهان على نحو شديد الوضوح ، أفى بداية ظهورها على مسرح التاريخ كدولتين بازغتين أم الآن ؟"، وأجابه الحاضرون جميعًا بغير استثناء مؤكدين أن الزمن الأول كان هو الذى شهد تفجر طاقتهما الجبارة ، فعاد الملك يسأل:" ترى لو أردنا تخصيص اثنين فقط من بين قادة ووزراء دولة وى يتمتعان بالحظ الأوفر من الذكاء والنجابة، فهل يمكننا أن نشير إلى كلٍّ من الحكيم " روأر" والوزير "ويتشى " - من رجال الوقت الحاضر - أم الوزير " منغ شانغ " والقائد المظفر " مانغ ماو " من قادة الحقبة التأسيسية الأولى ؟"، فأجاب المجتمعون قائلين إن هذين الأخيرين هما الأفضل بالتأكيد وعندئذ، قال الملك :" فما ظنكم، إذن، وقد عرفتم أن ذكاء وفطنة وخطر الاثنين السابقين لم تمكن وى من دحر بلادنا عندما زحفت جيوشها، بالاشتراك مع هان فى حملة عسكرية كبرى فيما مضى، أما اليوم وقد أصبحت مقاليد الأمور فى يد الذين ضعفت شوكتهم وتضعضع سلطانهم،

فلكم أن تتخيلوا ما الذى يمكن أن تسفر عنه المحاولات الهجومية من جانب وى وهان على بلادنا ؟"

واتفقت آراء الحاضرين مع وجهة نظر الملك. إلا أن الوزير "جو تسى " الذى اشتهر بقوة المنطق والفصاحة وحسن البيان، فقد نهض واقفًا بعد أن نحى قيثارته – وكان عازفًا يهوى الموسيقى والألحان – وتحدث بما نصه:" اسمح لى يا مولاى أن أصف تقييم الوضع الراهن بأنه خاطئ من كل جوانبه، ودعنى أذكرك بأن واحدًا من أمهر وأحذق المخططين السياسين والقادة من رجال دولة جين فى زمانها المنصرم، والذى كان من بين أكفأ ستة رجال فى الدولة كلها (الوزير الملقب بـ " جى ") استطاع أن يتغلب على اثنين من أولئك الرجال الأفذاذ بل قاد جيشًا كان تحت قيادة اثنين منهما أيضًا، وقام بمحاصرة قوات الوزير " جاو شيانغ " بمنطقة جين يانغ، ثم إنه قام بتحويل مجرى أحد الأنهار القريبة، فانحدرت المياه وأغرقت تلك المنطقة وغمرت أسوارها العالية التى بقيت أجزاء منها طافية فوق سطح بركة المياه الممتدة فى كل الأرجاء، فلما خرج " جيسن " ينظر إلى مياه النهر الجارى وهى تتقلب وتفور، التقى فى طريقه بكلٍّ من " هانسن "، و" ويشن" (رؤساء القبائل من هان و وى)، فبادرهما بقوله:" ما كنت أعرف من قبل أن المياه يمكن أن تستخدم سلاحًا لإغراق الأراضى على هذا النحو، وقد عرفت اليوم أنه ما من أمر سهل على وجه الأرض مثل استخدام مياه نهر " فن " لإغراق العاصمة " آنى"، واستغلال البخر والرذاذ المتطاير من هذا النهر نفسه؛ لإغراق مدينة "يين يانغ " وفى تلك اللحظة نظر كلٌّ من " هانشن " و" ويشن" إلى بعضهما البعض بنظرة ذات مغزى، والغريب أيضًا أنه فى تلك اللحظة نفسها كانت أراضى " جيسن " تنقسم إلى إقطاعات متفرقة سرعان ما توزعت بين الممالك. وانتهى " جيسن " نفسه نهاية مأساوية جدًا بعد أن أهلك البلاد وشتت الأهالى وصار أضحوكة الزمان بعد أن خاب مسعاه وتحطمت آماله.

والآن، وبرغم أن تشين قد بلغت درجة تفوق ما بلغه " جيسن " ودولته فى زمانه، ومهما كان مبلغ الضعف الذى أصاب كتائب " هانشن " و " تشين " فقد برزت

شجاعتهما الكامنة بعد أن ضرب عليهما الحصار فى " يين يانغ "، فنحن الآن نعيش لحظة مهمة جداً، وقد تلاقت نظرات التصميم والإرادة فى عيوننا، فلتحذر يامولاى التقليل من خطر أعدائنا."

لما نشب القتال بين قوات تشو ووى

لما نشب القتال بين قوات دولتى تشو، ووى عند مضيق " شين شان " تقدمت وى بوعد رسمى لدولة تشين بأن تتنازل لها عن منطقة " شا نلو "، وذلك لتقطع أى محاولة اقتراب ممكنة بين تشين وعدوتها اللدود تشو، وكان أن تم النصر لـ " وى "، بعد أن دحرت جيش تشو وهزمته شر هزيمة فى موقعة "نان يانغ " لكن تشين لم تلبث أن طالبت وى بتسليمها الأرض التى وعدتها إياها غير أن الواعد نكث بوعده، وهنالك تحدث الوزير الأعظم " إين جيان " إلى مليكه حاكم تشين قائلاً :" لا أرى مانعًا يامولاى من أن تخاطب حاكم تشو بهذا الشأن ذاكرًا له تراجع وى عن تنفيذ وعدها الرسمى لجلالتك، وخيانتها للعهود الموثقة بين الممالك، وتطلب منه إتمام ميثاق الوحدة بين بلدينا، وهو الأمر الذى تخشاه وى، وتعمل له ألف حساب، فلعلها – حينئذ – تسارع بتنفيذ ما وعدت به، مع أن هذا يعنى فقدانها لثمرات النصر على تشو، فكأن ما أحرزته باليمين تعطيه لنا بالشمال، وكأن تشو فى واقع الأمر هى التى تفضلت علينا بمثل هذه الثمرة الدانية، وهو ما يوجب علينا الرد بكرم أبلغ وهدايا أثمن ومال أوفر، ثم إن وى قد نزلت بها الملمات التى أوهنت قواها و أضعفت شوكتها، وأقسم بأنها إذا لم تسلمنى الأرض المتفق عليها، لأرفعن سيفى، ولأقطعن عنها إقليمها الغربى، مما سيربكها للغاية، وتتاح لجلالتكم الفرصة للتوغل فى أراضيها الجنوبية واقتطاع أثمن ما تجنيه منها يداك."، وقد راقت الفكرة لحاكم تشين الذى أرسل من فوره إلى تشو، من نقل إليها هذا الاقتراح، ثم جاءت الأخبار بموافقة ملك تشو على مشروع الوحدة بين البلدين، وهنالك انغرست نصال الفزع فى قلب وى،

فأسرعت بإعلان مبادرة من جانبها لتسليم " شانلو " إلى تشين فى أسرع وقت ممكن.

لما قام مبعوث تشو المقيم بدولة تشين

كان " جين لى " مبعوث تشو، المقيم لدى تشين يتابع عن كثب مناقشات حاكمى البلدين: تشين، ووى حول موضوع الوحدة، إلا أن ملك تشو أبدى غضبه من استدعاء مبعوثه لحضور مفاوضات وحدة لاشأن لبلاده بها، فلما علمت تشين بذلك أوفدت " جو تسوى " إلى حاكم تشو لإبلاغه بما نصه:" قد طلبت إلينا وى أن نقيم معها الوحدة وليس مع تشو؛ فلذلك طلبنا إلى مبعوثكم أن يناقش موضوع هذه الوحدة بحضور الجميع، أما بالنسبة لقيام اتحاد بين آل جو، وتشين، ووى بما فى ذلك دولتكم المهيبة، فنحن نشعر ببالغ السرور والارتياح لهذا الخبر، وربما كان ذلك هو السبب فى أن دولة تشى قد خالجها الشك فى موقفكم فتراجعت عن مباحثات الوحدة معكم ."، وهنالك زال غضب حاكم تشو، وأثنى على موقف البيت الحاكم فى كلٍّ من دولتى جو، وتشين .

لما أوفد حاكم تشو مبعوثه إلى تشين

لما أوفد حاكم تشو الملك هواى مبعوثه، الوزير الأعظم جين لى إلى دولة تشين، ذهب إلى حاكم هذه الأخيرة من قال:" اعلم يامولاى أن " جين " هذا صاحب منزلة عظيمة بين قومه؛ إذ هو أحب كبار الوزراء جميعًا إلى قلب حاكم تشو، وأرى أن يتم الإبقاء عليه فى تشين ، ولا يسمح له بالعودة إلى بلاده إلا إذا تنازلت تشو عن بعض أراضيها المتاخمة لكم فإذا وافق الملك على هذه المقايضة كفانا شر القتال وعبء الحرب، أما إذا اعترض، قتلنا مبعوثه الأثير إلى قلبه، ولن يهم إذا ما أوذى مبعوثنا لديه (الوزير تساى خه) فهو على أية حال لايضارع " جين لى " ذكاءً واقتدارًا."

واقتنع الملك بهذا القول ، وأصدر أمراً باحتجاز " جين لى " فما كان من هذا المبعوث الذكى – جين لى – نفسه إلا أن أرسل إلى الملك من أناب عنه فى قوله:" قد علمت يامولاى أن قدراً هائلاً من هيبتك ومكانتك المعهودة وسط الممالك ستتأثر كثيراً فى أعين الناس جميعاً، فخسارتك مضاعفة، لأنك ستفقد الجاه العريض والأرض التى كانت ستؤول إليك، و أريد أن أسر إليك بشىء ، وهو أنى عندما كنت فى أول طريق السفر إلى بلادك، بلغنى أن كلاً من دولتى وى، وتشى كانتا تتدارسان فكرة التنازل عن بعض أراضيها سعياً للمصالحة مع جلالتكم، ولا أظن أن مثل هذا التصور كان يمكن أن يكون محل تقدير، لولا أن الجميع يعرف روابط الأخوة والصداقة التى تجمعكم بدولة تشو، فإذا احتجزت لديكم، فسوف يدور بخلد الناس أن بلادكم قد تخلت عما يربطها بـ "تشو" من علاقات حميمة، ولا أدرى كيف يمكن لدول مثل وى، وتشى أن تشعرا نحو بلد قد فقد كل روابط ممكنة مع صديقه الكريم، وأصبح يقف وسط الساحة بغير سند أو نصير، بل الأدهى من ذلك أن تشو عندما تدرك أن بلادكم قد أصبحت منبوذة على هذا النحو بين البلدان والممالك، فلن تكتفى بالامتناع عن تسليم الأراضى المتفق عليها، بل ستتواطأ مع باقى الدويلات وتحيك المؤامرات الكفيلة بإسقاط هيبتكم؛ مما يمثل خطراً جسيماً على بلادكم، وهكذا أرى أن تطلقوا سراحى يا مولاى، وتفسحوا أمامى الطريق لى."، وهنا أصدر الملك قراره بفك الحصار المفروض حول "جين لى " فى أسرع وقت.

لما أراد الملك أن يلتقى بواحد من عامة الناس

أراد ملك تشين أن يلتقى بالرجل المسمى " دونرو "، فأرسل له هذا الأخير من يبلغ الملك بما نصه:" ليس فى الإمكان، أيها الملك العظيم، أن أؤدى لجلالتكم طقوس الانحناء والركوع لعرشكم الكريم عند لقائى بكم، فاسمحوا لى بتجاوز هذا التكليف، أو أن تتفضلوا بإعفائى من الحضور إليكم."، ورد الملك بالموافقة، فجاء الرجل للقائه، وقال له أثناء المقابلة:" اعلم يا مولاى أن الناس ثلاثة: أولهم آخذ بالقلب دون القناع ، ثانيهم

آخذ بالقناع دون القلب، وثالثهم لاقلب ولاقناع، فهل يعرف الملك دلالة هذا الرمز؟"، فلما أنكر الملك فهم تلك الدلالة الغامضة، أجابه الرجل قائلاً:

" إن الآخذ بالقلب دون القناع، هو التاجر، ذلك أنه يجنى المحصول الوفير ويملأ به المخازن دون أن يعاني مشقة الزرع والحصاد، فهو الأوفر ربحًا بأقل جهد. والآخذ بالقناع دون القلب، فذلك هوالمزارع المسكين، الذى يكتوى بنارالقيظ وبرد الزمهرير، ولا يملك سوى الفأس والمحراث، وربما لايجد ما يكفى من قوت يومه. أما الذى لاقلب له ولا قناع، فهو الملك ذو العرش والصولجان، الذى بيده تصريف شئون الناس والممالك دون أن تربطه بالمحكومين صلة ود حقيقية، وربما تكرم بالعطايا على محظياته، وأقطعهن الإقطاعات الهائلة من الأراضى دون أن يعود عليه شىء من ذلك بالبر أو التراحم أو السيرة العطرة والذكرى الطيبة."، واستشاط الملك غضبًا، ولاحظ الرجل ذلك، لكنه راح يواصل كلامه بما نصه :"تعرف يا مولاى أن هناك ست دويلات تقع شرق جبال "شياو" ولاأظن أن فى مقدور جلالتكم تهديد تلك الدويلات الست مجتمعة، لكنكم مع ذلك تمارسون قدرًا لابأس به من التهديد ضد نساء القصر، وهو الموقف الذى لا أجده فى رأيى الشخصى مقبولاً"، وعندئذ سأله الملك: "وهل ترى أنى قادرعلى ضم تلك الدويلات الست ؟"، فأجابه:" إذا تأملنا حال دولة هان، وجدنا أنها تحتل موقعًا ذا قيمة سياسية عالية، أما وى فهى واسطة العقد وصدر الأرض (ذات موقع مركزى)، فليتك يامولاى تبذل لى قدرًا معلومًا من المال، وترسل بى إلى هان، و وى حتى أناظر القوم هناك وأقنعهم بالمجىء إلى تشين واللجوء إلى جنابك الأفخم، فلعلهم يستمعون إلى قولك ويتبعون خططك، فإذا تم هذا الأمر دانت لك كل الممالك وخضعت لسلطانك."، ورد عليه الملك قائلاً:" لكن خزانتى فقيرة، ولن تجد فيها المال الذى تظنه يكفيك."، فقال" دونرو": "إن الحرب قدر مقدور فوق الدول يا مولاى، فإذا ما قامت الحرب واتسع نطاقها، وامتدت فوق الآفاق قوات جيشك وفرسانك، كانت لك الغلبة، وصرت واحدًا من أباطرة الزمان، فعظمت فى كل عين. ودار بمدحك كل مادح، وجلبت لخزانتك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة."، وراقت الفكرة للملك، وأوفد

دونرو إلى كلٍّ من وى، وهان، حيث دعا وزراءهما إلى زيارة تشين، ولم يكتفِ دونرو بهذا بل سافر شمالا إلى دولتى (يان، وجاو)، للتناظر مع وزرائها ومجادلتهم وإقناعهم باتخاذ تشين حليفًا وسندًا متينًا، بل الأدهى من ذلك أنه راح يتحيل المكائد حتى استطاع أن يبذر الشقاق بين وزراء جاو، مما أدى فى النهاية إلى اغتيال " ليمو" أحد أهم القادة العسكريين هناك، أما أعظم إنجاز له فكان ذهابه إلى حاكم تشى وإقناعه بالسفر إلى تشين فى زيارة ودية يعلن بها عن ولائه وطاعته للعرش الحاكم، وهو الأمر الذى أقنع قادة وملوك كلٍّ من: يان، وجاو، وهان، ووى، بالذهاب إلى تشين على إثر تلك الزيارة وكان ذلك كله دليلاً على ذكاء "دونرو" وقوة حجته وحسن بيانه.

لما كان العام العشرون من حكم الملك

لما كان العام العشرون من حكم الملك شينغ (حاكم تشو) قام القائد المظفر "باى تشى" بمهاجمة منطقة " شيلين "، بينما قامت فرقة أخرى من الجيش بغزو المناطق الثلاث التابعة لدولة تشو، وهى على التوالى: يان، وتشنغ، وإيلين، وقد تهدمت قبور أسلاف حاكم تشو أثناء الهجوم على تلك المناطق، وهنالك قام الملك "شينغ شيان" حاكم تشو بنقل عاصمة البلاد إلى موقع آخر ناحية الشمال الشرقى ثم أقام خطًا دفاعيًا قويًا بمنطقة "تشن" ومع ذلك، فقد ظهر جليًا أن الضعف بدأ يسرى فى أوصال دولة تشو، وهو ما استنتجته تشين، وانتهزت الفرصة جيدا حيث راح قائدها المظفر "باى تشى" يدفع قواته لغزو تلك الدولة المتهالكة القوى. وكان فى دولة تشو ،إبان ذلك العهد رجل مشتغل بالجدل والمناظرات الكلامية، شديد الفصاحة، قوى الحجة والبيان، غزير المعرفة ، كثير الأسفار خارج البلاد لكثرة ما يحتاج الملوك إلى قوة منطقه وحججه فى إقامة المناظرات. وعرف هذا الرجل باسم " هوانشيه "، ومن ثم فلم يغب عن بال ملك تشو تكليف الرجل بالعمل لصالح البلاد فى تلك الأثناء. وبالفعل فقد أوفده على وجه السرعة إلى تشين، وهكذا فقد وجد الرجل نفسه وجهًا لوجه مع حاكم تلك الدولة الكبرى، فشحذ قريحته واستلهم المعانى الجليلة، وراح يقول للحاكم ما نصه:" تعرف

يا جلالة الملك أنه ليس بين الممالك جميعًا من يحظى بالقوة والجاه والسلطان، سوى دولتى تشين وتشو، وقد ذاع بين الناس الآن أن تشين تنوى مهاجمة تشو، بعد أن اتخذت العدة لذلك، فكأنى باثنين من أقوى النمور، يتقاتلان ولا يبرحان الساحة، وقد أنهكهما القتال فخارت قوتهما واستأسدت عليهما الكلاب والسباع الضالة، وصارت تنازعهما القوة والمكانة، ولا أرى يامولاى سوى أن يتصالح البلدان الكبيران، واسمح لى جلالتك بأن أشرح المعنى الكامن وراء هذا الاقتراح، ذلك بأنى أرى أن الأمور إذا زادت عن حدها انقلبت ضدها، فتلك هى الحكمة فى تعاقب الفصول، كما أن الأشياء إذا بلغت الذروة، وانحدرت ثانية إلى الوهاد، وكذلك الكومة المتراصة من الأحجار ، كلما ازدادت ارتفاعًا، وصارت على وشك الانهيار. وقد بلغنى ياجلالة الملك، أن مساحة بلدكم تكاد تبلغ وحدها النصف من مجموع مساحات الممالك التى فوق الأرض جميعًا، فإذا أضيفت مساحة المناطق النائية فى شمال غرب البلاد، وهى أكبر مساحة يمكن أن يحظى بها بلد من البلاد منذ أول العالم، صارت مملكتك أعظم الممالك التى على ظهر الأرض، ومع ذلك فلم تستطع تشين، وعلى مدى ثلاثة عهود – أى منذ عهد الملك " دى وانغ "والملك " جوانغ "، بل جلالتك شخصيًا – التوسع فى رقعة الأراضى حتى تخوم دولة تشى، كما كنتم تأملون دائما، وهو ما جعلكم تنفضون أيديكم من ميثاق التحالف الرباعى، ثم إنكم يامولاى أوفدتم وزيركم " شنغ تشياو " ثلاث مرات إلى هان لمساعدة تلك الدولة فى الشئون الدفاعية، وهو ما جعل مهمته فى إخضاع دولة "يان" تحت سلطانكم، أمرًا ميسورًا، بل إنكم حصلتم على مئات الأميال من أراضى دولتى يان، وهان دون ممارسة أدنى قدر من التهديد أو إشعال أضأل فتيل للحرب، وهكذا أبديتم نموذجًا بديعًا فى عبقرية القيادة الناجحة، وبعد ذلك قمتم جلالتكم، بإرسال حملات لضرب وى، واستطعتم الاستيلاء على عاصمة البلاد واحتلال منطقة " خنى " وغزوتم مناطق: "يان"، "سون زونغ "،"شيو"،"تاورن"، وكان أن تساقطت أمامكم فلول قوات دولتى يان، وهان، كما تتساقط الأوراق الذابلة، وصارت تلك واحدة من مآثركم الكثيرة التى يذكرها التاريخ بالفخر والإعجاب، وبعد ذلك قمتم بإصلاحات واسعة فى الجيش، وأعدتم بناء الكثير من الفرق والألوية؛ لكى تقوم بعد

ذلك بالتحرك السريع، حيث استطعتم ضم عديد من المناطق، منها " بو"، "يان"، "شوبوان"، ثم قامت قواتكم بحصار مدينتى "شياهوان"، و" جيانغ "، وهو ما أرغم دولة وى على الاستسلام والإذعان لكم، ثم إن جلالتكم قمتم بإقطاع الأراضى الواقعة شمال بوشوى ومنطقة " مو" إلى دولة يان، فكأنكم بهذا الصنيع قد أحنيتم ظهر دولتى تشى وتشين، وقطعتم أوصال كلٍّ من وى وتشو، وهكذا فإن الدول والممالك الستة التى فوق الأرض لم تستطع أن تعيش فى وئام برغم أنها ارتبطت بأحلاف ومعاهدات مشتركة خمس مرات. واعلم يا مولاى، أنك مهاب وسط الممالك وأن الكل يخشى غضبتك، ويعمل ألف حساب لمكانتك ووزنك وقدرك العظيم بين الأمم، ويكفيك فخراً أنك ملك الملوك وتاج الأباطرة، وأن رقاب الناس تخضع لك، فماذا لو اكتفيت بذلك، وكففت يد الحرب عن الممالك، ونزعت الخوف من القلوب، واتبعت سبيل العدل والرحمة بين المحكومين، وأزلت من صدور الناس رعبًا جاثمًا، وسطرت فى صفحات التاريخ اسمًا رابعًا يخلد بجوار أسماء الحكماء الثلاثة (المشهورين بالعدل والحكمة فى تاريخ الصين القديم) وأرسيت فى سجل المجد قاعدة خامسة يتأسس عليها سلطانك، ويدوم طويلاً مثلما دامت قبلك عهود الأباطرة الأربعة الذين خلد ذكراهم التاريخ ".

الجزء الثانى من الفصل نفسه

" فإذا ما صممت على تمزيق أوصال دولة وى، على هذا النحو الذى يمس هيبتها أمام الجميع، مستخدمًا فى ذلك كل ما تحت يديك من قدرات عسكرية ودعم شعبى واسع، فلتسمح لى بأن أقول: إن النتائج المتوقعة تحمل فى طياتها الكثير من أسباب القلق، وقد جاء فى كتاب الشعر القديم ما نصه:

(كل الخطوات الأولى،

تمضى للأمام فى ثقة،

لكنها .. دوماً،

الخطوات الأخيرة،

هى التى،

قبيل خاتمة المطاف،

تتعثر ...)

وجاء فى كتاب " التغيرات " أيضًا ما نصه:

(لئن كانت الثعالب تمرق عبر النهر برؤوس

مرفوعة طافية، فهى تخرج إلى الشطآن

بذيول متدلية منكسة، وقد بللتها

المياه وقصفت أهدابها دوامات النهر العابثة.)

وذلك ياجلالة الملك، لأن بدايات الأمور دائمًا ما تكون سهلة يسيرة، أما خواتمها فهى التى تشوبها الصعوبات، والشاهد على ذلك أن التاريخ يحكى لنا أن الملك "جيبو" كان مدفوعًا فى حربه ضد دولة " جاو " بالدوافع الواعدة بالفوز، دون أن يعمل حسابًا للمخاطر التى كانت تكمن له فى منعرجات الطريق، وكذلك، لم يكن يشغل بال الملك "فوتشاى" (حاكم دولة " أو") سوى النتائج الإيجابية التى يمكن أن يحصل عليها عند غزوه لدولة تشى، وكانت النتيجة أنه لقى هزيمة نكراء فى موقعة " كانسوى "، ومع أن هاتين الدولتين كانتا من الممالك ذات المكانة المرموقة التى تأسست على رصيد هائل من الانتصارات الباهرة، إلا أنهما منيتا فى آخر المطاف بهزائم وانكسارات مشينة. وبسبب الثقة الزائدة التى أولاها حاكم " أو" لدولة " يو "فقد تشجع وقام بحملة تأديبية ضد دولة تشى، وبالفعل تحقق له النصر على قوات تلك الأخيرة فى موقعة " إيلنغ "، إلا أنه وقع فى مكيدة نصبها له حاكم "يو" فسقط فى أحابيل هذا الماكر وهو فى طريق عودته مارًا بشاطئ سانجيان، فقبض عليه وقتله شر قتلة.

وكذلك فقد حدث يومًا أن الملك "جى بو ياو" قد ذهب فى حملة عسكرية كبرى ضد دولة جاو معتمدًا على دعم ومساندة كلٍّ من وى وهان، ثم إن الدول الثلاث تكاتفت وقامت بضرب مدينة "جين يانغ" وصار النصر قاب قوسين أو أدنى، إلا أن الملك "جى بو ياو" لم يكن يعلم ما يضمره له حلفاؤه الذين انقلبوا عليه، وقلبوا له ظهر المجن، وقتلوه غدرًا فى منطقة "تزوتاى". ولئن تحركت فى نفسك اليوم نوازع الكراهية ضد تشو التى كنت تأمل فى إفنائها فها هى باقية على الدهر؛ لأنه قد غاب عنك أن فى هلاك تشو قوة مضاعفة لـ "وى"، ومن ثم لا أرى داعيًا أن تثقل قلبك بأية كراهية أو ضغينة نحو تلك المملكة، ودعنى أذكرك بما ورد فى "كتاب الشعر القديم" فى هذا الشأن حيث قيل:

(لا تدرك الخطوات،

منتهى الطريق،

بوثبة قدم واحدة.

لاتدرك الخطوات آخر الطريق،

مهما اتسعت الهمم،

وانطوت تحت الخطو،

آفاق المدى البعيد..)

والإشارة واضحة فى هذا السياق تتمثل فيما أود أن ألفت نظر جلالتك إليه من أن تشو ليست إلا مجرد الساعد الأيمن لجارتك اللدود، وأنتم تعرفون قصدى من هذا، وقد ورد فى كتاب الشعر القديم أيضًا ما نصه:

(ستتجلى لأبصارنا،

خبائث النوايا،

وخفايا الصدور.

مثلما تقع الطريدة الماكرة

فى حبائل الفخ المتربص..)

أقول هذا، وأراك قد أصبحت، ياجلالة الملك، أكثر ميلاً لتصديق فكرة قيام علاقات ودية بينك وبين دولتى هان، و وى، وهو ما يبدو خياليًا تمامًا وبعيدًا عن التحقيق كفكرة قيام علاقات ودية بين كلٍّ من حاكم دولة " أو " وملك " يو ".

وقد قيل قديمًا فى الأمثال "إنه ليس من الحكمة التهوين من شأن الأعداء، كما أنه ليس من المستصوب إهدار الفرصة السانحة "، وأخشى أن يكون وراء مسوح الطيبة والتواضع الذى تبديه كلٌّ من وى ، وهان، شيطان رجيم يتحيل المكائد للإيقاع بدولة تشين، والسبب فى ذلك - بالطبع - هو ذلك التاريخ الطويل من المشاحنات المتبادلة بين جلالتكم وهذين البلدين، حتى لم يبقَ بيت واحد فى يو وهان إلا وقد صبت عليه تشين لعنة كراهيتها، وقد طال العهد بينكما على هذا الحال، وامتدت الثارات عشرات السنين، حتى حل الخراب بالبلاد ووقعت بالناس صنوف البلاء، فتهدمت المعابد وتساقطت الأجساد بين قتيل وجريح وانتثرت العظام والجماجم فى البرارى والقفار، وسيق العجائز والأطفال فى طوابيرالأسرى وأيديهم مكبلة بالأغلال، وصارت بطون الإنس والوحش خالية، تبيت على الطوى، وتفرق شمل الأسر والعشائر،إذ تشرد أبناؤها فى الآفاق، بين طريد يتلمس المأوى أو بائس قد وقع فى الرق، بعد أن تكدرت الأحوال وانقلبت إلى أسوأ مآل. ومن هذا كله نخلص إلى نتيجة مؤداها أنه لاخلاص لدولة تشين إلا بالقضاء التام على كلٍّ من وى، وهان، ففى بقاء هاتين الدولتين خطر يتهدد، وشقاء لايتبدد، وأرى كذلك أن من خطل الرأى الإقدام على مهاجمة تشو الآن ،فتلك سياسة خرقاء؛ لأن قواتكم المهاجمة لن تجد طريقًا تتقدم عليه لملاقاة العدو إلا إذا استأذنت جارتيها اللدودتين وى، وهان فى السماح بالمرور من أراضيهما، فهل ستتقدم جلالتكم بمثل هذا الطلب إليهما ؟، وهب أن جلالتكم

أصدرتم أوامـركم للقـوات بالتقدم للهجـوم، ثم تعذر إيجـاد مـخرج ملائم أو طريق مناسب لعودة القوات فى حال انسحابها، أما تكون بذلك قد أوقعت بجيشك فى براثن عدوتيك المذكورتين وأهديتهما صيداً ثميناً ماكانتا تحلمان بالحصول عليه بكل سهولة. وحتى إذا تراجعت عن فكرة استئذان وى، وهان، خصميك اللدودين، فى السماح لقواتك بالعبور خلال أراضيهما، فلن تجد بديلاً سوى احتلال كلٍّ من بلدتى " سويانغ "و" يوارنغ " (بدولة تشو) ولما كانت تضاريس تلكما البلدتين لاتزيد عن مجرد تكوينات نهرية وأخاديد عميقة بين أودية ترتفع فوقها غابات كثيفة متلاصقة، فإن احتلالهما لن يعود عليك بنفع كبيرا، ثم إن مثل هذه الخطوة ستضيف لمسات إيجابية ومقبولة لوجه تشوالقبيح وتحسن من ملامحه كثيراً، فى حين أنها لن تضيف مكاسب ذات قيمة لجلالتك .أضف إلى ذلك أن قيامكم بمهاجمة تشو سيعجل بتكتيل الدول الأربع: هان، جاو، وى، تشى، ضدكم مما يعنى قيامهم بمباغتتكم، وعندئذ ستتحالف كلٌّ من تشين وتشو فى حلف لاتنفصم عراه، وفى الوقت نفسه، ستقوم وى بمهاجمة المناطق التالية: ليوى، وفانغ يو، ودجى، وهولين، وداندى، وشياودى، (كلها تقع بدولة سونغ)، وهو ما سينجم عنه ضياع كل ما غنمته سابقًا من أراضٍ فى دولة سونغ، هذا بينما تتقدم قوات تشى ناحية الجنوب؛ لتحتل المنطقة الواقعة شمالى نهر"سيشوى" حيث يتميز الموقع هناك بتوسطه بين طرق مواصلات وانبساط رقعة أرضه وخصوبة تربته، وهكذا، فإن مد سيطرتكم على تشو، سيؤدى بالطبع وعلى غير ما تشتهى، إلى دفع الدماء فى شرايين دولتى وى وهان، ودعم قدرات دولة تشى، حتى إذا توفرت أسباب القوة لكلٍّ من وى وهان، صارتا كلتاهما تناوئان تشين القوة والنفوذ والمكانة، أما دولة تشى، وقد صارت حدودهما تمتد جنوبيًا حتى شاطئ نهر سيشوى، وتتحصن شرقًا بشاطئ البحر، وشمالاً إلى النهر الأصفر، فستنظر إلى المستقبل بعين الثقة والطمأنينة، ولاسيما بعد أن أصبحت أقوى دولة بين الممالك.

ثم إن دولتى وى و تشى، وبعد استيلائهما على مساحات هائلة من أراضى الغير قد صارتا تضعان أيديهما على مكاسب ملموسة، ولن تبديا لـ "تشين" سوى مظاهر

ود مزعومة، فما إن يمر عام واحد حتى تملكا القدرة على منازعة حاكم تشين مكانته وزعامته ولقبه الإمبراطورى، وربما لن تبلغا حد تنصيب ملكيهما على عرش إمبراطورية كبرى، لكنهما ستسعيان لمزاحمة تشين سيادتها ومجدها. ومن السهل على جلالتكم - بالطبع - أن تقوموا بدفع قواتكم المحاربة للقتال، اعتماداً على عناصرالقوة المتمثلة فى ضخامة مساحة البلاد، ووفرة السكان، واللياقة العسكرية والاستعداد القتالى الجيد، ولكن أمركهذا سيؤجج العداوة والبغضاء بينكم وبين تشو، وهو ما لن تسكت عليه كلٌ من وى وهان ، بل ستعملان بكل جهدهما لإعادة اللقب الإمبراطورى إلى تشى، وينصبانها مملكة فوق الممالك، وإمبراطورية ذات عروش وتيجان، سيكون ذلك كله لو حدث دليلاً على فشل خططكم وسياساتكم. وقد تأملت تلك الأمور مليًّا، ورأيت من الأفضل أن تقيم علاقات ودية مع دولة تشو، ثم تقيم من هذه العلاقة الودية جسرًا تقترب به حثيثًا من دولة هان التى ستجدها عندئذ، طوع بنانك، ولما كنت تقبض بيدك القوية على أهم أرض (ذات قيمة وأهمية حيوية) فى ولاية شاندونغ وتضع اليد الأخرى على (شبكة) من القنوات والأنهار، فسترهف هان أذانها وتتلصص بعيونها صوب منطقة السهول الوسطى، وساعتئذ ستقوم جلالتك بدفع حامية قوامها مائة ألف جندى؛ لتتمركز فى مدينة " شنغدى " ثم لأن دولة وى ستقع فى إسار الفزع والرعب (بتأثير الظروف المحيطة) بل ستتراجع الكثير من الدويلات والمقاطعات، مثل : شيو، ويان لين، وإينغ شانسانى، وجاولين عن سابق علاقاتها ومبادلاتها معها، مما سيفرض عليها مراقبة الأوضاع فى المناطق الداخلية باهتمام بالغ، والشيء المؤكد هو أن توطيد العلاقات الطيبة بينك وبين تشو سيدفع أمراء الدويلات فى المناطق الداخلية إلى التسليم لك والإذعان لسلطانك، ولما كانت حدود تشين ستقترب لتتماس مباشرة مع تخوم دولة تشى فستصير منطقة " يورانغ " الواقعة غرب تشى أقرب ما تكون من حدود بلادك، مما يؤذن بسقوطها فى يدك، وهذا معناه أنه سيطلع عليك نهار تجد فيه مملكتك سيدة الممالك، وقد امتدت أرضك من البحرالغربى إلى البحرالشرقى، بكل ما تتخلله تلك المسافة من الدويلات وولايات وإمارات، وتبعًا لهذا فستتقطع كل صلة كانت قائمة بين كلٍّ من دولتى:

يان، وجاو، وهو ما يعنى فقدان هيمنتها على تشو، وتشى، بل ستنكصان على عقبيهما وتصيران إلى الخضوع والمذلة، بعد أن تجد كلاً من تشو و تشى قد بلغتا مزيد القوة والنفوذ بفضل دعمك ومساندتك لهما، وفى نهاية المطاف فستجد أولئك الأربعة جميعهم قد خضعوا تحت راية مجدك، وقد تحققوا من قدرتك على سحقهم بحشودك الزاحفة.

لما ذهب مبعوث إلى ملك تشين

ذهب رجل إلى ملك تشين ليتكلم معه فيما يتعلق بالدول الست، قائلاً لجلالته:

" قد تتسع مساحة البلاد دون أن يتحقق لها الأمن المنشود، ولربما زاد عدد السكان أضعافًا مضاعفة، دون أن تزاد بالمقابلة مساحة ومكانة الأوطان، فإذا قلنا إن زيادة المساحة تضمن الأمن، وكثرة السكان تكفل القوة والزعامة فيجب أن نسلم بأنه كان من اللازم أن يظل أحفاد الطغاة الجبابرة، من أمثال "جيه" (آخر أباطرة أسرة " شيا)، تشو (أسرة " شانغ " الملكية القديمة) قائمين على الحكم حتى آخر الزمان.

ولقد قامت، فيما سلف من الزمان، أمم قوية، منها على سبيل المثال، دولة جاو التى بلغت فى القوة مبلغًا لامزيد عليه، وإن سألتنى إلى أى حدٍّ بلغت فى هذا المضمار، فسأقول لك بأنها كانت لتكاد تدفع بقواتها صوب الشرق، فتدك دولة تشى وتجعل عاليها سافلها، أما إذا تحركت ناحية الغرب، فما كانت تضع السلاح حتى تكون قد أسكتتَ كل ناطق فى دولة وى، وهكذا كانت تملك جاو أن تخضع دولتين كبيرتين نواتى عدة وعتاد (عشرة آلاف عربة – حرفيًا! –) بل تحتل أيضًا دولة أخرى ليست أقل قوة، مثل دولة تسونغ، وتلا ذلك من الأحداث أن أنشئت مدينة "كانبين"، ثم لم يكد يمر زمان بعد ذلك حتى فقدت دولة "ويه " قطاعًا كاملاً من أراضيها الشرقية، وتعذر على الأهالى الرعى وجمع الحطب فى تلك المنطقة وما

جاورها، وصاروا يحذرون حتى مجرد التطلع بعيونهم إليها، وتأزمت الأحوال فى دولة " ويه " حتى صارت الأمور تبدو وكأنها تتدافع نحو كارثة، أو كما يقول القائل إنه:" قد تراكم البيض فى كومة كبيرة على رأس دولة ويه حتى أوشك الرأس أن يتحطم وينهار بما تكدس فوقه."، وصار المخططون السياسيون يضعون الخطط ويتشاورون فيما بينهم، ويقول قائلهم إنه: " يجب عمل الترتيبات اللازمة للاستنجاد بملك جاو، والإسراع بحمل الهدايا إليه والركوع عند أعتاب قصره القائم بمدينة " هاندان " وفى تلك الأثناء كان كل الأمراء الذين اجتمعوا على الكيد لقصر هاندان قد أصدروا أوامرهم فى المساء بالبدء فورًا فيما عقدوا عليه عزمهم فما إن أصبح الصباح حتى بادروا إلى التحرك حسب خطتهم المرسومة، إلا أن دولة وى هى التى استطاعت آخر الأمر أن تنقض على " هاندان " وتفعل بها الأفاعيل، فلما تم لها ما أرادت من تلك الغزوة، وانسحبت عائدة بقواتها، ومرت فى طريقها ببلدة " فنزى " فاجتمع هنالك ملك وى مع رجاله، ثم قام وركب عربة حربية، وأعلن نفسه حاكمًا للمنطقة الوسطى من البلاد، وأمر بالنداء على الأمراء فاجتمع لديه اثنا عشر أميرًا من أمراء الإقطاعيات والدويلات، فذهب على رأسهم لإعلان الولاء والطاعة للإمبراطور الأعظم "ابن السماء " وهم خلفه، يتبعونه كظله. فلما بلغ ذلك الخبر أسماع حاكم تشى، ثار وتوعد، وأصدر أمرًا إلى قواته بمهاجمة وى، فما لبث حتى زحفت إليها وأوقعت بها هزيمة نكراء ومزقت أوصالها شرممزق، وباتت وى على شفا جرف، تكاد تودى بها المخاطر، وما لبث ملك وى أن بادر إلى السلم، وقام وسار بنفسه على رأس موكب كبير يحمل النفائس والمجوهرات الكريمة قاصداً بلاط ملك تشى، فما إن بلغ أعتاب القصر الكبير، حتى ركع هناك فى ذل وخضوع راجيًا الملك أن يجعله من حاشيته ويتخذه مساعداً للبلاط الملكى فى منصب وزير، وساعتئذ انفض الناس من حول وى وازورت عنها العيون ووصلت الأنباء إلى حاكم تشو بأن دولة تشى قد نابذت وى الحرب وكسرت هيبتها، فما إن سمع جلالته بذلك حتى وجم وأصابه الكرب العظيم فهجر النوم مقلتيه، وتكدرت أحواله، فقام على رأس كتائب من مواطنيه الذين جندوا أنفسهم وبذلوا جهدهم لخدمته، فصحبهم وذهب لملاقاة قائد قوات تشى الملقب بـ " شن فو " وكانت الموقعة بينهما فى منطقة تسمى " شيسوى"، وحاقت الهزيمة

بالقائد شن فو، فلما وصلت أنباء نشوب المعارك بين تشى، وتشو إلى دولة جاو، فقد سارعت هذه على الفور بإرسال قواتها إلى منطقة " جيسانغ "، وكذلك أيضًا لما سمعت دولة " يان " بتلك الأنباء، فقد دفعت حشودها على الفور تجاه منطقة " كيدوا" وبوصول الحشود إلى تلك المنطقة تحولت إلى قلعة حصينة فى وجه أية قوات تفكر فى مواجهتها، وصارت أشبه بطريق مسدود أمام أية محاولة للعبور، واتفقت الدول الثلاث: تشو، جاو، يان جميعًا، على قطع العلاقات مع دولة تشى، وهو ما أوقع تلك الأخيرة فى عدد من الانكسارات العسكرية، فتحطمت قوتها الضاربة وفشلت خططها القتالية، فلم تجد سوى أن ترسل مبعوثًا برسالة سرية إلى قواتها على الجبهة تطلب إليها التوقف عن القتال والانسحاب فى أسرع وقت ممكن، ثم إنها أرسلت إلى دولة تشوالواقعة جنوبى حدودها بما يفيد الاعتذار الرسمى للبلاط الحاكم وللشعب كذلك، ثم أرسلت إلى دولة جاو الواقعة إلى الغرب تستميلها وتتودد إليها، وكذلك فعلت مع دولة يان فى الجهة الشمالية، بل صارحت مواطنيها أيضًا بمساعيها السلمية تلك، وأذاعت ما يتصل بهذه النقطة من أنباء، وحينئذ توارى السيف الذى سلطته الدول فوق رأسها، وعادت النصال المشرعة إلى إخمادها، إذ قررت باقى الدول والإمارات أن تفك الحصار الذى ضربته حول تشى. وكان مجرى الزمان الواسع الكبير يشهد تلاحق الأحداث وتدافع الوقائع، حتى تراكمت حصوات الرمل الضئيلة تلالاً هائلة من أحجار، وصارت الخيوط الدقيقة حبالاً وثيقة تشد موكب الأحداث، ذلك أنه لم يمضِ وقت طويل حتى كانت الدويلات تستخدم نفس الأساليب القديمة، لكنها – هذه المرة – كانت تستخدمها من وراء الجدران، بواسطة المحظيات والجوارى، وجرى التخطيط لألوان من الحيل والمكائد ضد حاكم تشو، فهل كان ذلك معناه أن السياسة التى اتبعها جلالة ملك تشو اتسمت بالميل تجاه الجوانب السلبية الفاسدة، أو أن الأوضاع التى أحاطت بتصوراته وخططه السياسية كانت مليئة بالفوضى والعبث مما أوحى للدويلات والإمارات أن تنقلب عليه وتسلط السلاح على رقبته؟!، كلا بل كانت دولة تشو من القوة بحيث صارت تمثل تهديدًا ملموسًا لباقى الدويلات، وهكذا فلم تدخر تلك الأخيرة وسعًا فى إعداد العدة للانقضاض عليها."

سجل تشين الخامس

لما ذهب مبعوث إلى ملك تشين

ذهب مبعوث إلى جلالة الملك" أو "حاكم تشين، وقال له:" لا أدرى يامولاى لماذا تسيطر على الظنون بأن جلالتكم تبطنون ازدراءً خفيًا لكلٍّ من تشى وتشو، وتنظرون إلى دولة هان نظرتكم إلى الدواب الجاهلة التى لاتكاد تفقه شيئًا. أما عرفت أن الحكيم من لايغتر بالنصر، وأن القوى من لايجزع إذا أعوزته الوسيلة، فالتواضع مع النصر يستطيع أن يملك بالحجة أعناق الناس جميعًا، والثبات مع فقدان الوسيلة يمنح المرء طاقة هائلة على أن يخضع تحت سلطانه كل ممالك الأرض، ولئن كنت جلالتكم قد توخيتم سياسة ودية كريمة مع كلٍّ من وى وجاو، فإنكم ما أبقيتم للود طريقا مع تشى ووقع الجفاء بينكما على إثر ما شمخت به أنوفكم من عزة وفخار بالنصر على أيديكم فى موقعة " إيانغ " حتى أهملت ما كان قائمًا من علاقات طيبة مع دولة تشو. وقد جاشت نفوسكم منها بغضًا وكراهية، ولطالما كان الغرور خسرانًا ، والبغضاء قعوداً عن بلوغ أشرف الغايات فى مسيرة الدول والممالك العظمى، ولتسمح لى جلالتكم بالقول بأن مثل هذا المسلك لايليق بفخامتكم، وقد جاء فى "كتاب الشعر القديم" ما معناه:

(الكل يعرف كيف يبدأ

بدايات طيبة،

لكن قليلين جداً هم الذين،

يسلكون طريق الخير،

من البدء إلى المنتهى..)

فمن ثم كان الملوك الأقدمون يعدون هذا المبدأ من أهم الأسس التى ينبغى اتباعها فى حكم الممالك، وكانوا هم أنفسهم خير مثال للحرص على النجاح والسداد فى مفتتح أعمالهم وخواتيمها، ولكى ندرك مغزى هذا المبدأ، فلابد أن نتناول جانباً من الأمثلة التاريخية (التى تؤكد صحة ما ذهبت إليه)، ذلك أن "جيبو ياو" كان قد قام، فيما سلف من الزمان، بالقضاء على خصميه، "فان جيسن"، و"جونشين"، وتقدم بقواته لحصار بلدة جين يانغ، لكنه منى بهزيمة مخزية، مما جعله موضع سخرية واستهزاء الدول الثلاث: هان، جاو، وى؛ وكاد حاكم دولة "أو" - أثناء زحفها الكبير على تشى - أن يرغم حاكم "يو" على الابتعاد عن طريقه والفرار إلى تلال "جيشان"، وكان قد انتصر على تشى فى موقعة "أيلين" لكن الأمر المؤسف هو أنه أصدر تصريحات عدائية ضد دولة سونغ، أثناء تجميع حشوده فى منطقة "هوانشى"؛ مما أوقع به فى أسوأ عاقبة حتى أنه سقط أسيراً فى يد حاكم "يو" فقتله شر قتلة بمدينة "كانسوى". (وفى مثال آخر) قام الملك "ليانغ هوى" باقتحام أراضى دولة تشو فأوقعها تحت سيطرته ونفذ منها إلى دولة تشى، فقاتل قتالاً شديداً انتهى بانتصاره، بل تمكن من هزيمة قوات "جاو"، و"هان"، فلما استتب له الأمر، لم يتوانِ عن أن يقود أمراء الدويلات الاثنتى عشرة إلى القصر الإمبراطورى، حيث قاموا بتقديم فروض الولاء للإمبراطور الأعظم ابن السماء (ثم إن كل ما قام به من إنجازات لم تشفع له عندما دبروا له مكيدة) وكان أن اغتيل ولده غدراً، بل قد شهد نهايته هو نفسه بعينى رأسه، عندما اقتادوه، وعلى رأسه عمامة (طرطوراً) إلى محبسه الذى اعتقل فيه بدولة تشين فهؤلاء الثلاثة: جيبو، وفوتشاى، وليانغ هوى وبرغم ما بذلوا من تفانٍ أو قدموا من تضحيات ومآثر جليلة - لم يسلموا من الوقوع فى حبائل ذلك القدر المأساوى والتقدير المعيب الذى قادهم من بدايات طيبة إلى نهايات دامية ومؤسفة".

الجزء الثانى من الفصل نفسه

" وها أنت اليوم جلالة الملك، وقد ضربت قلاع مدينة " إيانغ " وخربت حصونها، واستوليت على منطقة سانشوان، فأسقطت عرش دولتي جو الغربية والشرقية (وكانت سياستك فى هذه الأمور كلها موفقة، على درجة من العبقرية والذكاء!)، ولم يختلف على نبوغك فى هذا الأمر اثنان، (ولم يجد الحكماء النابهون ما يأخذونه عليك)، والآن فقد أصبحت مقاليد السلطة والسطوة على الدويلات جميعها تقع فى يد دولة تشين، التى سارعت إلى تغيير المعالم الحدودية لكلٍّ من جو الشرقية والغربية، وصارت باقى الإمارات والدويلات تخشى مجرد الاقتراب من السور الذى يفصل بين حدودها وتلكم الدولتين، ولم تكتفِ تشين بذلك، بل مدت نفوذها وسلطانها فوق منطقة " هوانجى " مما عرقل تقدم قوات كلٍّ من تشو، وهان، وهكذا (وفى ظل الأوضاع الحالية) فإنى أرى أنك لو واصلت خطتك إلى النهاية، يا مولاى، فستضيف مأساة رابعة جديدة إلى المآسى الثلاث السابقة (فتضع - بذلك - رقمًا جديداً فى خانة الملوك الثلاثة التعساء، واسمًا جديداً فى قائمة الجبابرة الخمس)، أما إذا بدا لجلالتك الوقوف عند هذا الحد، لتعذر إكمال الشوط إلى منتهاه، فستجلب على نفسك وعلى بلادك مخاطر وويلات لايعلم أحد مداها، ولشد ما أخشى أن ينظر إليك فقهاء الدويلات (الدارسون المتخصصون فى الشئون السياسية) نظرتهم إلى جيبو وفوتشاى (حاكم دولة " أو") أو يظن الناس أنك تترسم خطى أولئك الحكام الذين اشتهروا عبر التاريخ بعاجل الانتصار وآجل الهزيمة والانكسار، مما يودى بالأوطان والمواطنين ويورد مصائرهم موارد الهلاك. وقد جاء فى كتاب " الشعر القديم " ما معناه:

(إن أشق الخطوات جميعًا،

هى التى يقطعها السائر،

فى الميل الأخير من مسيرة المائة ميل..)

[حرفيًا: ما قضيت - حين قضيت تسعين ميلاً من طريق المائة ميل - سوى نصف الطريق!]

والمعنى هنا يشير بوضوح إلى أن آخر الشوط هو أصعب الأشواط جميعًا، ومع ذلك فإن جلالتك تسلك طريقًا وعرًا وها أنت تزهو وتمتلئ ثقة، ولما تكد تمشى سوى خطوات قليلة. ولو سألتنى عما أشعر به الآن وأتوقعه لقلت لجلالتكم إنى أميل إلى تصور الأوضاع القائمة بين الممالك والدويلات على النحو التالى: إن كل الدويلات تسيطر عليها فكرة واحدة مؤداها أن كارثة حربية لابد ستصيب واحدة من اثنتين: إما دولة تشو، أو دولة تشين، أما المنطق الذى يكمن خلف هذا التصور فبيانه أن ظواهر الموقف الحالى تشير إلى أن دولة تشين تقوم بدعم لدولة هان فى صراعها مع تشين، ولما كانت القوة العسكرية لدى الدول الأربع هذه تشين، ووى، وتشو، وهان متساوية ومتكافئة، فمن الصعب بل المستحيل أن يتغلب أحد هذه الأطراف على الطرف الآخر، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن دولتى سونغ، وتشى، كانتا تقفان بعيدًا عن مساحات القتال وقد أظهرتا مؤخرًا استعدادهما للمشاركة فى خوض هذا الصراع، ومن ثم، نصل إلى استنتاج بأن أول من يحصل على دعم كلٍّ من سونغ وتشى، سيبادر إلى غزو تشين. وإذا افترضنا - مثلاً - إن كانت تشين هى أول من يحصل على دعم ومساندة سونغ وتشى؛ فستضعف كفة هان، وعندئذ يتهالك الجدار الذى كانت تستند إليه تشو، فتترنح وتسقط وتنهار قوتها الضارية، أما إذا حدث العكس، وكانت تشو هى الطرف الفائز بدعم دولة تشى، فسيدب الضعف سريعًا فى أوصال وى، وهو ما سيؤدى - بالتالى - إلى أن تقف تشين وحدها مكتوفة الأيدى وعاجزة عن صد الهجوم المحتمل، فتتحقق هزيمتها من دون شك. وهكذا، فالسير على هذا المنوال - وكما ذكرت لجلالتكم آنفًا - سيصل بإحدى الدولتين تشين أو تشو إلى حال يثير ازدراء وسخرية الأمم والممالك قاطبة."

لما احتدم الجدل بين ملك تشين وأحد المنظرين

احتدم الجدل بين ملك تشين و" جونشى " (أحد المنظرين المشهود لهم بالكفاءة فى المناظرات السياسية) حول الكثير من المسائل المهمة، فلما لم يستطع الملك أن يغلب الرجل بقوة الحجة وساطع البرهان، استولى عليه الضيق وجاشت نفسه بالغضب بينما قام جونشى من مجلسه وخرج من أبواب القصر عائداً إلى بيته، ولكنه أوفد إلى الملك من راح يطيب خاطره ويهدى ثائرته قائلاً: " لاعليك يامولاى، فإنما كنت تجادل رجلاً عنيد الرأى، شكس المزاج، لكنه طيب الحظ، إذ كان يجادل العاقل الفطن ويحاور النابه الذكى العقل والفؤاد، أما لو كان القدر ساقه لمناظرة الجبابرة الطغاة من أمثال " شياجى "(آخر حكام أسرة " شيا") أو" شانجو" (آخر حكام أسرة " شانغ")، لكان من الهالكين!"، وبالفعل فقد تأثر الملك بهذا التقدير، ولم يؤاخذ جونشى بشىء.

لما تحدث شيان تسى إلى الوزير الأعظم

تحدث " شيان تسى " إلى " كونسون " (الوزير الأعظم بدولة تشين) فقال : " أراك الآن قد نلت احترام وتقدير الجميع وقد تفردت فى ذلك دون سائر الوزراء ورجال الدولة، لما سطرته من فعالٍ جليلة وما أحرزته من تقدم ورفعة ونجاح، (فما من حرب خضتها إلا و أحرزت النصر المجيد) ومع ذلك، فلم تترقَّ إلى منصب رئيس الوزراء، ولعمرى إنك لأفضل من يتولى مثل هذا المنصب، و لاأرى سببًا فى حجب الترقية عنك سوى شىء فى نفس جلالة الملكة شياون (والدة ملك تشين)، إما لضغينة تضمرها لك أو بسبب نفور يجعلها تعرض عن التكرم بالفضل اللائق لمكانتك، ثم إنك أيضًا يجب أن تعرف أن "شين رونغ" – ذلك الرجل الهارب من دولة تشو، والمقيم فى جو الشرقية – قد صار الآن المقرب من جلالتها، ولا أدرى ما الذى يمنعك من أن تسعى لدى كلٍّ من دولتى تشين وتشو أيضًا؛ كى ترتب له مؤهلات الترقى فى

منصب رئيس وزراء جو الشرقية، وهو الجميل الذى ستردده لك تشو بأحسن منه، وستظل تذكر لك هذا الصنيع بكل خير (إذ إنك ستكون قد أوصلت أحد مواطنيها - برغم أى شىء يمكن أن يؤخذ عليه - إلى هذا المنصب الرفيع)، وعندما يصبح " شين رونغ " رئيسًا لوزراء جو الشرقية بدعم ومساندة الدولتين القويتين، فإن جلالة الملكة الأم ستفتح لك ما كان مغلقًا من أبواب رضاها عليك ومحبتها لك، وهو الأمر الذى سيؤدى بك لبلوغ منصب رئيس وزراء تشين فى المستقبل القريب."

لما عقد التحالف بين تشين ووى

تم عقد التحالف بين تشين ووى، وكان الفضل فى ذلك يرجع للمساعى والجهود الطيبة التى بذلها السياسى المحنك " لوه"، وفكر ملك وى فى أن يثبت لدولة تشين حسن نواياه، فقرر أن يرسل إليها ولى عهده، بحيث يبقى مقيمًا لدى بلاطها الحاكم، بوصفه (رهينة) أو وديعة لضمان استمرار العلاقات الطبيعية بين البلدين، لكن الوزير الداهية " فنشيانغ " أراد أن يحول دون تنفيذ هذه الفكرة، فذهب إلى الملكة الأم، وقال لها:" تعلمين أن العلاقات بين البلدين ليست مستقرة على النحو الكافى، بل قد يزول السلام وتقع بينهما الضغائن، لمجرد أن ترى إحداهما أن مصلحتها تتطلب العمل بمعزل عن الأخرى، وعندئذ تتحلل تشين من مواثيقها، وتسقط مكانة ولى عهدنا المقيم لديها، ويصبح فى نظرها، أرذل من روث البهائم."، وهنالك أرسلت الملكة الأم فى طلب جلالة الملك وأجلسته بين يديها وراحت تبكى بدموع تفجرت فى مقلتيها جزعًا وإشفاقًا، ووقع الملك فى حيرة أمره حيال هذا الموضوع وداخله الشك بخصوص إرسال ولده ضمانًا للسلم بين البلدين المتحالفين.

وتصادف فى تلك الأثناء أن كان " جاويان " موفدًا من قبل بلاط جو، فى جولة رسمية استطلاعية يزور خلالها عدة عواصم. فلما نزل ضيفًا على ملك وى فى عاصمة بلاده "داليان" والتقى بالسياسى الكبير " لوه " الذى أخبره بتردد الملك فى إرسال ولى

عهده إلى وى ..إلخ، وذهب المبعوث للقاء الملك، فابتدره بالسؤال عما وصل إلى علمه من أخبار وما يراه من تقديرات وتحليلات للأوضاع السائدة، فأجابه " جاويان " قائلاً : "بلغنى أن دولة تشين تعتزم مهاجمة وى." فقال له الملك: " لكنى كنت قد حددت مع ملك تشين موعداً لإرسال ولى عهدنا للإقامة الدائمة لديه، ضماناً لاستقرار الأوضاع بين بلدينا"، فأجابه بقوله:" إن ملك تشين تساوره الشكوك حول وفاء جلالتكم بالمواثيق والاتفاقات المبرمة معه، وذلك بسبب ما بدا من ترددكم فى إرسال ولى العهد للإقامة فى تشين، وقد بلغنى ممن يعرفون خفايا الأمور هناك أن الملك – حاكم تشين – راح يتدبر أمره ويفكر بصوت عالٍ، وهو يقول:" إن وى لن تفى بعهدها معى، ولابد أنها تستعد للهجوم علينا، فهل سأجلس هكذا مكتوف اليدين؟! كلا، بل سأبادر إلى شن الهجوم عليها قبل أن تسعى هى لملاقاتى."، أما الآن وقد استخدمت تشين نفوذها فى إجراء مفاوضات التحالف على عكس ما تذهب إليه النوايا الأصلية، فأخشى أنها تفكر فى تحقيق أهدافها لكن بطرق جانبية تبدأ بالالتفاف حول جو الشرقية."

لما كان التاجر ليو بوى يتجول

كان التاجر" ليوبوى " – أحد مواطنى مدينة " بويانغ " – ، عاصمة دولة "ويه" يتجول فى أنحاء "هاندان " عاصمة دولة جاو لأغراض تتعلق بنشاطه فى تجارة البضائع، ثم إنه التقى مصادفة بالأمير " إيرين " الموفد من قبل تشين إلى جاو بوصفه رهينة لضمان استقرار السلام بين البلدين، فلما عاد ليو بوى من سفره، ذهب على الفور إلى والده وسأله:" كم ضعفًا تغل الأرض المزروعة فى موسم الحصاد ؟ "، فأجابه:" عشرة أضعاف "، وسأله ليوبوى ثانية: " وكم ضعفًا تربح التجارة فى المجوهرات ؟ "، أجابه:" مائة ضعف ويزيد."، وسأل الرجل أباه للمرة الثالثة:" وكم ضعفًا يربح التاجر الذى يستثمر رأس ماله فى القيام على تنشئة سيد البلاد وحاكم الممالك ؟ "، فرد عليه قائلاً :" يربح ما لايعد ولا يحصى."، فقال الرجل:" قد نظرت

ورأيت الناس تزرع الأرض ثم لاتجد ما يسد رمقها، وتشقى شقاء السخرة، فتتعرى الأبدان وتحفى الأقدام وليس من خلاص، فظننت أنى لو قمت على رعاية وتنشئة رجل فاضل، يؤسس لنا وطنًا كريمًا وبلدًا طيبًا، لربحت نعيمًا وسؤددًا وشرفًا تتوارثه الأجيال أبد الآبدين، بل إنى عزمت على ذلك وسأشرع منذ اللحظة فى التنفيذ."، وكان الأمير إيرين قد تحددت إقامته بوصفه رهينة لضمان الاستقرار - كما سبق ذكره - وتقرر أن يقيم بمدينة " ليأو" من أعمال دولة جاو، فأما التاجر ليوبوى فإنه توجه إلى مقر إقامة الأمير وفى ذهنه خطة يريد لها النجاح، ومن ثم قال لسموه، عندما التقى به:" أما عرفت أن أخاك الأمير " زيشى " (أخوه من الأم) قد تهيأت له أسباب القيام بأعباء الحكم بما توفر له من دربة وخبرة وما حظى به من دعم الملكة الأم؛ أى (جدة الإمبراطور)، دون أن يكون لك شىء من ذلك، بل لاتجد حولك سوى عدو يستريب أمرك، ذلك أنه لاتسلم العاقبة من اشتعال الفتنة بين تشين وجاو، فيسقط ميثاق السلام ويسقط معه كيانك واعتبارك كله، فاسمع منى واتبع قولى لأنى قد أعددت لك خطة سديدة وليس عليك إلا أن تطلب العودة إلى وطنك، وسأتولى أنا بنفسى تمكينك من السيطرة على زمام الحكم هناك، ولسوف أبدأ الآن فى ترتيب الأمور التى تفى بنجاح هذا المسعى، وإنى لذاهب فوراً إلى تشين، كى أقنع جلالة الملك بالعمل على إعادتك فى أسرع وقت ممكن."

وتوجه ليوبوى للقاء الأخ الأصغر للملكة الأم (النبيل " يانغ شوانجون ") وتحدث معه بأمل إقناعه بخطته المرسومة، قائلاً :" لقد أخطأت ياسيدى خطأ جسيمًا إذ آثرت نفسك بعدد هائل من المساعدين الذين لاتقل مرتبة أدنى واحد منهم عن أرفع درجة وظيفية، هذا بينما لايجد أمير البلاد مثل هذه الميزة، فلا أعوان له ولانصير، وليس له مثل خزائنك المترعة بأثمن المجوهرات واللآلئ؛ ولا له ساحة قصرك المليئة بالجياد المطهمة، ولا تملك يمينه مثلك عشرات الجوارى، وأنت تعرف تمام المعرفة أن جلالة الملك قد بلغ الآن من العمر عتيًا، وقد تحين منيته فى أى ساعة، وعندئذ سيتولى الأمير زمام الحكم وينهار حصنك الحصين مثلما تنهار أكوام البيض المتراكم إذا

ثقلت واختل كيانها، ويزول بهاؤك ،كما تزول سحابة عابرة، ولدى خطة لعلك توافقني عليها، إذ تبقى عليك مكانتك وتحفظ عزك ومجدك إلى آخر الدهر، وهى خطة ثابتة الأركان راسخة رسوخ الجبال الرواسى آمنة، تجلو عن صفحة آمالك كل شقاء وكدر. "، وعند هذا الحد من كلام ليوبوى، قام واقفًا يانغ شوانجون واتجه ناحيته ثم انحنى أمامه طالبًا إليه مزيد النصح والإرشاد، فواصل الرجل كلامه، قائلاً:" لعلك تلاحظ أن جلالة الملك قد شاخ وأزفت ساعة رحيله عن دنيانا، وليست للملكة الأم أولاد ذكور يرثون العرش الحاكم، وها هو ذا " زيشى" قد سيطر على كل سلطة نافذة فى البلاد يؤازره فى ذلك الوزير " سيشانغ" على أساس أن يجلس "زيشى " على العرش فور وفاة الملك، ويتولى " سيشانغ " إدارة الحكم، وهذا معناه أن يسقط كل اعتبار وهيبة لجناح الملكة الأم، وأن تغلق دونها الأبواب وتتحول عنها الأعتاب، فى حين تلقى بالأمير إيرين – وهو الكريم الشريف – فى غياهب دولة جاو رهينة لضمان سلام ضائع، يجلس هناك بين أربعة جدران فلا مؤنس لوحشته ولامفرج لكربه، لايملك سوى أمله فى العودة إلى بلاده، ولئن صدقت الملكة الأم فى زعمها بأنها كانت تتمنى أن يقوم جلالة الملك بتنصيب الأمير إيرين خلفًا له على عرش البلاد، فقد جاءتها الفرصة كى ترد البيت إلى صاحبه وتكسب – بالتبنى – ولدًا ، تقر به عينها وتدفع به عنها عثرات المقادير."، وهتف يانغ شانجون من فوره قائلاً:" صدقت، فهذا هوالرأى الصائب!"، وذهب إلى غرفة الملكة حيث أشار عليها بما سمعه، فأخذت بالمشورة وأسرعت تطلب من دولة جاو السماح للأمير إيرين بالعودة إلى وطنه.

وظل ليوبوى يسعى فى إتمام خطته، فذهب إلى ملك جاو، والتقى به فى قصره وراح يحثه على الإسراع بإعادة إيرين إلى بلاده، قائلاً : " تعلم جلالتك، أن الأمير إيرين هو أحب الأبناء إلى قلب ملك تشين، وبرغم أنه يتيم الأم إلا أن جلالة الملكة – والدة حاكم تشين – تعده كابنها، بل إنها تفكر الآن فى استعادته كى تتبناه رسميًا، ولابد أن جلالتك تعى جيدًا أن وجود الأمير على أرضك لن يمنع تشين من إعلان الحرب عليك، إذا ما بدا لها ذلك، وساعتئذ لن يجديك نفعًا وجود الأمير الرهينة

بين يديك، لأنه سيصبح رهانًا خاسرًا، أما إذا سمحت الآن بالعودة إلى بلاده معززًا مكرمًا، وأرسلت فى إثره سفارة تحمل الهدايا الكريمة فستقر عين الأمير ويترسخ فى نفسه الشعور بالامتنان لدولة جاو، وربما يرد على الفضل فى قادم الأيام بما هو أعظم وأكرم .وبما أن الملك قد تقدمت به السن كثيرًا واعتلت صحته، وأوشك على الاحتضار، فإن بقاء الأمير إيرين فى دولة جاو لن يفيد فى شىء."

وهكذا اقتنع حاكم جاو بهذا التصور وأصدر أوامره بإعادة الأمير إلى بلاده.

الجزء الثانى من الفصل نفسه

فلما عاد إيرين إلى تشين (موطنه ومسقط رأسه)، استقبله " ليوبوى " بترحاب بالغ، وطلب إليه أن يرتدى الزى التقليدى الذى يرتديه مواطنو دولة تشو ثم يقصد إلى مقابلة جلالة الملكة الأم، وهو في ردائه هذا، فما أن رأته الملكة حتى تهللت أساريرها وغمرتها السعادة، وأدركت مدى ما يتمتع به الأمير من ذكاء ولياقة وحسن تقدير وأدب جم، فابتدرته قائلة:" لم أكن أدرى أنك تعرف أن تشو هى مسقط رأسى وموطنى الأول!"، وأصدرت جلالتها قرارًا بأن تتم معاملة الأمير كواحد من أبنائها، ومنحته بهذا الاعتبار اسمًا جديدًا هو " تشو". فلما مثل بين يدى جلالة الملك الأعظم، حاكم تشين، أراد أن يختبر سعة إطلاعه، فطلب إليه أن يقرأ له شيئًا من الكتب المقدسة القديمة، فتردد الأمير قليلاً ، وأجابه:" قد قضيت صباى مرتحلاً شريداً فى الآفاق، دون أن يقر لى قرار، فلم أتمكن من المواظبة على الدرس والتعلم، ولم يكن لى من أتلقى على يديه العلم، فلم تتهيأ لى فرصة مطالعة الكتب المقدسة."، وهنالك تحول عنه الملك وانصرف إلى باقى شئونه، لكن الأمير ظل واقفًا مكانه لايبرحه، وبعد فترة من الوقت تحدث ثانية إلى الملك قائلاً :" لم أكن أنا وحدى الذى قضى شطرًا من حياته فى بلاد جاو، بل إنك أنت يامولاى، كنت قد مررت فى طريق ترحالك بتلك البلاد، وتعرفت فيها على أحسن الرجال ممن لايزالون يعرفون قدرك ومكانتك، وبرغم

أنك عدت إلى موطنك، فإنهم مازالوا يذكرونك هناك، بل يتطلعون إلى أن تشملهم بعنايتك، لكنك أغضيت عنهم ولم تشأ أن ترسل إليهم سفارة من ذوى ثقتك يكلمونهم ويوطدون صلتهم بك، وهكذا، نشطت مكامن القلق والوساوس فى أعماق نفوسهم. وإن شئت أن أقترح عليك شيئًا فى هذا الصدد، فإنى أرى أن تقوم بتشديد المراقبة على نقاط التفتيش بين البلدين وزيادة الانتباه والحذر."؛ وتأمل الملك كلام الأمير، فوجده متسقًا مع منطق الأمور، فأعجب برجاحة عقله، وسلامة استنتاجه، ودقة ملاحظته، وراحت الملكة الأم تحاول أن تقنع الملك بتنصيب الأمير خلفًا له فى الحكم، وبالفعل فقد أمر الملك بعقد اجتماع طارئ لكل رجال الدولة. حيث أصدر أمام الجميع قرارًا جاء فيه: لما كان ولدنا الشرعى لايملك ما يتفوق به على الأمير إيرين من جدارة واستحقاق مواريث الحكم الملكى، فقد قررنا تنصيب إيرين الأمير خلفًا لنا على عرش البلاد."

وقد تحقق فيما بعد أن تولى الأمير " تشو " الحكم فى تشين وأصبح ليوبوى وزيرًا أعظم فى حكومة جلالة الملك ومنح لقبًا رفيعًا باسم " شين أونهو "، وأقطعه الملك منطقة " لانتيان " بالإضافة إلى اثنتى عشرة محلة أخرى، كما تكرم جلالته على الملكة الأم بمنحها اللقب الإمبراطورى الرفيع " هوايانغ " (= شمس الممالك الساطعة)، وأقبلت الدويلات التابعة للبلاط الحاكم، تؤكد ولاءها وتتبرع للملك بمساحات هائلة من الأراضى تعبيرًا عن الولاء الكامل وحسن النوايا.

لما وضع شين أونهو خطة الهجوم على جاو

كان شين أونهو يدبر خطة للهجوم على جاو بهدف ضم المزيد من الأراضى وتوسيع مساحة الرقعة المحيطة بمنطقة " هاجيان "، ومن ثم فقد أوفد تسايزى (الذى نال فيما بعد أعظم الألقاب الفخرية) إلى دولة يان، ليضع نفسه تحت تصرف المسئولين هناك مدة ثلاث سنوات، تأكيدًا لمعنى الصداقة بين البلدين، وأرسلت دولة يان إلى دولة تشين الأمير " دان " رهينة لضمان السلام، مقابل أن يرسل إليها أونهو

وزيره الأعظم " جانتان "؛ ليعمل فى أحد المناصب الوزارية هناك، وذلك كله تمهيداً للاتفاق مع" يان " على التحالف مع تشين للهجوم على دولة جاو، إلا أن جانتان تقدم بالاعتذار عن تنفيذ المهمة الموكولة إليه قائلاً: "إن طريق السفر إلى دولة يان سيمر حتماً بدولة جاو، فماذا لو ألقى القبض على أثناء الطريق وأودعت السجن هناك، ألا يصير مدعاة لأن تطالب يان بفدية مقدارها مائة ميل مربع من الأراضى، ويتم التنازل عنها طواعية للإفراج عنى ؟" عندما انتهى اللقاء بين الرجلين، وعاد أونهو إلى شئونه اليومية، وقد بلغ به الاستياء أقصاه، فالتقى فى بعض الطريق بكل من "شاوشوس " (مسئول عظيم، مساعد أونهو)، وكانلو (وزير تربطه صلة قرابة بـ "أونهو") فابتدراه بالسؤال عما يغضبه على هذا النحو، فأجابهما بقوله:" كنت أوفدت " تسايزى " إلى دولة يان رمزاً للصداقة بين بلدينا، فمكث هناك ثلاث سنوات، ثم جاءنا الأمير دان ليقيم عندنا رهينة لضمان السلام، واليوم التقيت بالوزير جانتان، وطلبت إليه بنفسى أن يذهب إلى يان للقيام بالخدمات الوزارية الودية، فإذا به يعتذر عن القيام بالمهمة. " فرد عليه كانلو، قائلاً:"اترك لى هذا الموضوع إذن، وسأقوم أنا بإقناع "جانتان"بالذهاب إلى هناك."، فزاد استياء أونهو، واكفهر وجهه، واحمرت عيناه من الغضب، وهو يزجر محدثه قائلاً:" قد رجوته مراراً، فلم يستجب لى، فكيف تستطيع أنت إقناعه!" ، فأجابه هذا بقوله:" (أما سمعت ما تقوله الحكايات من) أن " شيانتو " كان يستطيع وهو دون الثامنة من عمره أن يكون معلماً لكونفوشيوس نفسه، فما بالك وقد بلغت سنى اثنى عشر عاماً! دع عنك هذا الأمر، وسأحاول إثناءه عن قراره، فلا داعٍ بعد الآن أن تصرخ فى وجهى هكذا."

وحدث أن التقى كانلو بـ "جانتيان"، فبادره بسؤاله:" ترى أيكما أكثر مجداً وأعم فضلاً ومأثرة؛ أنت أم " بايتشى "؟ ، "فأجابه جانتيان، بقوله: " إن مآثر بايتشى البطولية وانتصاراته الباهرة فى المعارك لاتعد ولاتحصى، وليس فى صفحة إنجازاتى ما يؤهلنى أن أحاذيه مجداً وعبقرية، فأنا دونه بدرجات، فسأله كانلو:" فهل ذلك أنك تقر صراحة بأنك لست نداً له ؟" ، فأومأ جانتيان بالإيجاب، وعاد كانلو يسأله ثانية :

" ترى أى الرجلين أكثر قدرة على إدارة شئون البلاد " إينخو " (اللقب الشهير للوزير فانسوى) عندما كان يتولى السلطة فى دولة تشين أم أونهو؟"، فأجابه قائلاً:" أونهو أقدر منه كثيراً" فرد كانلو بقوله:" حاول فانسوى منذ زمان غير بعيد أن يهاجم دولة جاو فعارضه بايتشى فى هذا القرار، وعلى مبعدة من بلدة " شين يانغ " (مسافة سبعة أميال)، قام فانسوى بالقبض على بايتشى وقتله شنقًا، واليوم يطلب أونهو منك، بل يرجوك أن تسافر إلى دولة يان، لتتولى المهام الوزارية (ضمن المبادلات السلمية بين البلدين)، ومع ذلك فأنت ترفض تحقيق هذا الطلب، وبالتالى فأنت مقتول لامحالة، إلا أن أحدًا لايدرى فى أى أرض تموت !"، وعندئذ قال جانتان:" فأعنى إذن، على الذهاب إلى دولة " يان "!"، فما كان من كانلو إلا أن أصدر أوامره بإعداد العربات الحربية وإسراج الخيول وصرف النفقات اللازمة من خزينة الدولة وكان جانتان، فى تلك الأثناء، قد انطلق فى طريق ترحاله، وذهب كانلو إلى أونهو، وقال له: " أعرنى عربتين حربيتين، واسمح لى بالسفر إلى جاو، على أن أسبقه إلى هناك وأقوم بإعداد الترتيبات اللازمة، وأهيئ له الظروف المناسبة لاستقباله."

وسافر كانلو للقاء ملك جاو، الذى استقبله على مشارف العاصمة، وكان أن قال لصاحب الجلالة:" هل بلغك يامولاى، أن الأمير دان – ابن حاكم دولة يان – قد انتقل للإقامة فى تشين ؟"، فلما رد عليه الملك بالإيجاب، وعاد يسأله " هل صحيح أن جانتان سيتولى أحد المناصب الوزارية المهمة فى دولة يان ؟"، فأجابه الملك:" بلغنى شىء من هذا القبيل."، فقال كانلو :" إذا ثبت أن أمير دولة يان ذاهب إلى تشين ليقيم بها رهينة لضمان السلام، فمعنى هذا أنه ليس فى نية يان الغدر بتشين، وكذلك إيفاد جانتيان للقيام بأحد المهام الوزارية فى يان، فيدل على أن تشين لاتفكر أبدًا فى التأليب عليها، فإذا ما اجتمع البلدان حول اتفاق متبادل يقوم على تجنب ما من شأنه تعكير صفو العلاقات بينهما، صار المستفاد من هذا كله أن دولة جاو قد أضحت عرضة للخطر الداهم باعتبار أن الدافع الأساسى وراء قيام الاتفاق الودى بين يان وتشين هو القيام بضربة مشتركة ضد دولة جاو، بهدف ضم المزيد من الأراضى بمنطقة " هاجيان "، والآن إنى أقترح على جلالتكم إعطائى خمس محلات

كبرى لتوسيع نطاق هاجيان، وسأتولى بنفسى إقناع حاكم تشين بإعادة الأمير دان إلى بلاده (دولة يان) على أن يتحالف معكم وأنتم الدولة القوية لضرب دولة يان (الضعيفة المنهارة، أصلاً!) وعلى الفور أصدر الملك أوامره باقتطاع خمسة البنادر المحيطة بمنطقة هاجيان من مساحة جاو، وذلك لتوسيع نطاق الإقليم المشار إليه ، وفى إثر ذلك قامت دولة تشين بإعادة الأمير دان إلى وطنه مما مهد لقيام جاو بغزو دولة يان واقتطاع إقليم " شانكو " من أراضيها واقتسامه مع تشين (حيث حصلت تشين على ما مقداره عشر مساحة الإقليم البالغ عدد أقسامه ستة وثلاثين قطاعًا!).

لما طرد أونهو من دولة تشـــين

لما أُقصى أونهو عن دولة تشين، قام صاحبه "صيكون" وركب فرسه هاربًا إلى دولة جاو؛ حيث صُرح له بالإقامة والعمل فى وظيفة حكومية عادية، بغير نفوذ قوى أو مرتبة رفيعة، وفى تلك الأثناء كانت تشين تصدر الأوامر لقواتها بالاستعداد لمهاجمة دولة جاو.

وذهب صيكون للقاء حاكم جاو، وقال له:"كنت أعمل مساعدًا لـ "أونهو" عندما كان رئيسًا لوزراء تشين، وبحكم عملى، فقد أحطت علمًا بأحوال وقضايا ودخائل الأمور هناك، ورغم أنى أتقلد وظيفة شرفية فى بلادكم دون سلطة أو مكانة تتيح لى الاطلاع الكافى على التفاصيل الدقيقة للأوضاع من حولى، إلا أنى استطعت أن أستشف الكثير من طبيعة ماهو قائم، لذلك أرجو من جلالتكم السماح لى بتقييم أحوال الحرب بين تشين وبلدكم على نحو مقارن، وسأترك لكم فى النهاية تقدير احتمالات النصر أو الهزيمة، على كلا الجانبين، واسمح لى ياجلالة الملك،أولاً، أن أسألك عمن تظنه الأكثر قوة بشكل عام؛تشين أم جاو؟ "، فأجاب حاكم جاو: " ليست بلدنا فى قوة تشين."، فسأله صيكون: " فأى البلدين أكثر عددًا وعتادًا ؟ "، فأجابه:

"إن جاو لاتكاد تقارن (فى هذا المجال) بدولة تشين ذات العدد الوفير من السكان." وراح صيكون يلاحقه بسؤاله: " فإذا عقدنا مقارنة بين البلدين من ناحية الوفرة المالية والزراعية، فأى البلدين يحظى بالقدر الأوفى فيهما؟ " ، فأجاب الملك: " أعرف أن جاو ليست من ذلك فى شيء يستحق المقارنة، " فسأله: " فأى البلدين - إذن - أكثر استقرارًا ورخاءً؟ "، فأجابه: " ليس من يفوق تشين فى ذلك. " ، "وأى رجال الحكم فى البلدين أرجح حكمة وأوفر ذكاءً واقتدارًا؟ "، لاأحد يعدل رجال تشين حكمة ونجابة"، " فأى رجال البلدين أشد صبرًا على القتال و أدهى وأشجع فى المعارك؟ يؤسفنى أن جاو لاتكسب كثيرًا فى هذه النقطة"، وأى البلدين أكثر التزامًا بالتشريعات وأشدّ ضبطًا وصرامة فيما يتصل بالقوانين واللوائح ؟ "إن جاو دون تشين كثيرًا فى هذه الناحية. وهنالك قال صيكون للملك: " مادام الأمر على هذا النحو، فلا معدى عن الإقرار بأن بلدكم يقصّر فى كثير من الأمور عن اللحاق بمستوى تشين، وهو مايشير إلى أن جاو ستبيد عن أخرها [فى حال الاقتتال مع تشين.] فردّ عليه الملك بقوله : " لئن كنت قد وجدت بلدنا قريبًا إليك حتى قدمت إليه، فلا أظنك تبخل علينا باتخاذ ماهو لازم من سياسات وتوصيات مفيدة، وسنبذل من جانبنا كل جهد ممكن للأخذ بما تراه من خطط وتقديرات. " فأسرع صيكون يقول له: " تستطيع ياجلالتك أن تمنح دولة تشين قطاعًا هائلاً من أراضى جاو، تتقرب بها إلى ملك تشين؛ فيغمد عنك سيفه ويعفيك من ويلات حربه، ولابد أنه سيسعد بذلك كثيرًا، لأنه لايريد أن يجد نفسه فى مواجهة مع قوات حرس الحدود لديكم والتى يُخشى بأسها، مثلما يخشى احتمال قيام الدويلات والإمارات بإمدادكم بالرجال والعتاد؛ ولذلك فسوف يسارع بسحب قواته فور استلامه الأرض المتنازل عنها، وبالطبع فتستطيع دولة جاو أن تبقى، وأن تحفظ وجودها وكيانها فوق الباقى من أراضيها، بينما يتعاظم شعور تشين بالقوة بعد استلامها مساحة الأرض الهائلة من جانبكم، وعلى إثر ذلك يقع الفزع والرعب فى قلب الدويلات والممالك الواقعة بمنطقة شاندونغ، وكذلك باقى الممالك الصغيرة التى سينتابها الفزع من أن تفقد أراضيها على النحو الذى تعرّضت له جاو على يد تشين؛ وعندئذ يصبح الخوف هو القاعدة المشتركة التى

يجتمع فوقها مطلب الدول للأمان والاحتماء من الخطر، ومن ثم تتساند جميعًا، وتتحقق فكرة التحالف بين الدويلات التى تقع إلى الشرق من تشين [حسب تصور سياسى قديم يسمّى بالتحالف الأفقى/الرأسى بين الدويلات؛ وهو التحالف بين مجموعتين من الدول، أحدها فى صف تشين والأخرى ضدها] وهكذا، فإنى أنتهز هذه الفرصة كى أقترح على جلالتكم، بل أرجو جنابكم الأفخم، أن تدخلوا فى تحالف الدويلات الست [وهى تلك الدويلات الواقعة على المحور الأفقى] فإذا تم مثل هذا التحالف، صار فى مقدوركم الصمود فى وجه تهديدات تشين بفضل مايتوفر لكم من دعم ومساندة الدويلات الست بمنطقة شاندونغ، وهو مايمثل تعويضًا عادلاً للأراضى التى تنازلتم عنها لـ "تشين"؛ لأنكم بهذا تكونوا قد خسرتم - فى ظاهر الأمر - نصف أرض، وكسبتم - فى الحقيقة - ماهو أكثر من الدعم والعون والمؤازرة، مما يمكنكم من الوقوف بقوة فى وجه تشين التى لن تملك أن تصمد طويلاً فى وجه قوى متعددة. "، وهنا قال له الملك : " لما كنا قد تعرّضنا منذ عدة أيام لغزو عسكرى من جانب تشين، فقد تنازلنا لها عما مقداره اثنتا عشرة مدينة صغيرة، أملاً فى إثنائها عن مشروعاتها التوسعية، وكان من جرّاء ذلك أن خسرنا الأراضى، ووهنت قوتناالعسكرية، وبرغم ذلك؛ بقى خطر تشين يتهددنا فى كل حين، واليوم نجد أنفسنا مطالبين بالتنازل عن نصف أراضى البلاد لصالح توسعات تشين وزيادة مساحتها؛ مما سيؤدى إلى زيادة نفوذها وتقوية مركزها السياسى، وسط الممالك، وبعدئذ فلن يبقى لنا وجود؛ بل يجتاحنا العدم، ويطوينا الهلاك؛ فلذلك لا أستطيع أن أقبل اقتراحاتك هذه، بل أطلب منك تقديم تصورات أخرى مختلفة؛ للخروج من كبوتنا." فردّ عليه صيكون قائلاً: " كنت وأنا فى صدر شبابى قد تقلّدت وظيفة كبير المستشارين فى بلاط آل "تشين" ، وكانت لى سلطة نافذة تعادل أقوى السلطات فى الإدارات الملكية الكبرى، وهذا مايشجعنى على أن أتقدّم لجلالتكم راجيًا السماح لى بالعمل مستشارًا حربيًا باسمكم؛ على أن يصير من سلطتى الإدارة الكاملة للعمليات الحربية وسير المعارك بين جاو وتشين. "

لكن الملك لم يوافق على تقليده زمام القيادة، فاضطر صيكون آخر الأمر أن يقول

لجلالته: " بما أنى لم أجد لدى جلالتكم قبولاً لخطتى المتواضعة، فلن يمكننى تقديم ماهو أفضل لرفعة شأن سلطانكم وسط الممالك، فليس إلا أن أطلب السماح لى بمغادرة البلاد. "

الجزء الثانى من الفصل نفسه

وغادر صيكون دولة جاو، ومضى فى طريقه، عبر منطقة " بينوان" وعلم بقدومه محافظ الإقليم " كوى" فخفّ لاستقباله، فلما التقى به حياه وكلمه بما يشرح فؤاده ويزيل عنه كدر خاطره، ثم سأله قائلاً: " كنت قد علمت أن تشين قامت بغزو جاو، ثم قيل لى أن هناك ضيفًا كبيرًا قادم إلينا من جاو، لم أكن أعرف أنك أنت ذاك الضيف، فهلمّ إلى وقصّ علىَّ أخبار تلك الحرب."، فحكى له صيكون عن خطورة الأحوال ودقة الظروف التى تمر بها جاو وخطورة الموقف، واحتمال سقوط البلاد الوشيك، خصوصًا بعد اعتراض الملك على الأخذ بخطته لرد العدوان. " فسأله المحافظ : "ومتى سيدى الكريم، يمكن أن يحدث هذا السقوط، فى تقديركم ؟ " فأجابه: " لو تولّى القيادة العامة، القائد العسكرى المحنّك " ليمو" فسيستغرق الأمر عامًا كاملاً حتى تسقط البلاد، أما إذا اغتيل هذا القائد فلن يمر نصف العام حتى ينهار كل شيء فى جاو؛ وقد لاحظت أن هناك واحدًا من الوزراء اسمه " هانسانغ" يجيد التزلف إلى الملك ويحاول التقرب إليه مستخدمًا أخس الوسائل؛ فهو يثير الشك فى نفسه حول رجاله المخلصين، ويزيح من طريقه الأكفاء والنابهين، فإذا أصغى جلالته إلى مزاعم وافتراءات هذا الـ "هانسنغ"، فى ظرف عصيب تمر به البلاد، فلابد أن القائد العسكرى ملاقٍ حتفه. "

وبالفعل، فقد راح هانسانغ يوغر صدر الملك ضد قائد جيوشه " ليمو" بما يشيعه عنه من افتراءات وادعاءات كاذبة، حتى عزله الملك عن القيادة، فلما ذهب إلى القصر ومثل بين يدى الملك، قام هانسانغ واقفًا وتلا عليه الأمر الملكى بمعاقبته لارتكابه جريمة شنعاء؛ ذلك أنه:

" .. لما كان حاضرًا بالقصر الملكى أثناء أحد الاحتفالات الملكية، قدّم إليه جلالة الملك كأسًا من الخمر على سبيل التحية، فلما جثا على ركبتيه، امتنانًا وشكرًا للذات الملكية، إذا به يشير ناحية الملك وهو ممسك بخنجر فى قبضة يده؛ مما يعد جريمة يعاقب عليها بتوقيع أقصى العقوبة، وهى الإعدام."، وهنالك أجابه القائد: " كنت مصابًا بإعاقة فى ذراعى الأيمن، وتعذّر على أن أبسطه بصورة طبيعية؛ وبسبب ضخامة جسمى وطول قامتى فإن إعاقة ذراعى تبدو واضحة للعيان؛ مما يسبب لى حرجًا بالغًا، خاصة عندما أجثو ساجدًا لتحية الملك؛ حيث لاأستطيع أن ألمس الأرض بكلتا يدى فأتحّرج أن يظن جلالته بى سوء الأدب؛ فلهذا طلبت أن تصنع لى قطعة من الخشب على هيئة كفٍّ مضمومة ألصقها بساعدى وأتكئ عليها ساجدًا للملك، فإذا لم يصدقنى جلالته فهأنذا أخلعها كى تحملها إليه ليفحصها بنفسه. "، ثم إنه فك الرباط عن الكف الخشبى، وخلعه من مكانه، وأراه لـ "هانسنغ" ؛ فتطلع إليه فإذا هو يشبه مزلاجًا خشبيًا مزودًا بمفاصل حديدية وخيوط مدلاة مرتبطة بالذراع القصيرة، وعاد محدثه يقول له:" أرجوك أن تذهب بهذه الأشياء إلى القصر لتطلع جلالة الملك على حقيقة الموضوع بنفسك."، فأجابه هانسانغ: " بل قد صدر لى الأمر من جلالته بإنفاذ حكم الإعدام، وليس لى العدول عن تنفيذ ما أمرت به ولا أجرؤ أن أنقل عنك إلى الملك أى شيء مما تقول! " فما كان من ليمو، وقد شعر أن منيته قد أزفت، إلا أن نظر تجاه الجانب الشمالى (حيث موقع العرش الملكى!) وركع مرتين إجلالاً لمليكه وخضوعًا لإرادته، واستل سيفه ليقتل نفسه بيده، ثم استدرك قائلاً: "لايصح لمن تولى منصبًا وزاريًا أن يقتل نفسه داخل أروقة القصر. ثم إنه خرج من دهليز قريب وأسرع الخطى ناحية باب الغابة، ورفع السيف بيده اليمنى ليهوى به على رقبته، فلما لم تطاوعه يده بسبب الإعاقة المذكورة، أمسك المقبض بيده السليمة، وأدخل طرف السيف فى فمه ثم اندفع بثقل جسده ليرتطم طرف السيف بأحد الأعمدة الحجرية القريبة، فاندفعت ذبابة السيف الى حلقه وخرجت من قفاه فسقط ميتًا فى الحال، ولم تكد تمضِ على ذلك خمسة أشهر حتى بادت دولة جاو، وسقط ذكرها بين الذاكرين.

وصار محافظ إقليم بينوان - من بعد ذلك - يذكر تلك الوقائع أمام ضيوفه ويتكلم عن صيكون بنبرة ملؤها الحسرة والأسى لما أصاب ذلك الرجل الفاضل الحكيم، وكان يرى أن هروبه من تشين لم يكن عن سوء تقدير، ولا خروجه من دولة جاو خذلانًا للحق أو نكرانًا للجميل، ولئن كان ملك جاو قد سمح له بالرحيل فقد كان ذلك وبالاً على البلاد. ولم يكن ضياع الملك فيها وسقوط عرشها وهلاك أهلها بسبب ندرة الأماجد الكرماء النابهين من أبنائها، بل بسبب تجاهلهم وإغفال أهميتهم والتنكر لدورهم.

لما تحالفت الدول الأربع للهجوم على تشين

تحالفت الدول الأربع (تشو، وأو، ويان، وداى)، واستعدت لغزو تشين، فدعا ملكها الوزراء جميعًا بالإضافة إلى ستين من الشخصيات العامة لحضور اجتماع عام، وقال للجميع أثناء لقائه بهم: " تعلمون جميعًا أن الدول الأربع قد اتحدت تحت راية التآمر والحرب ضدنا، وسط ظروف بالغة الدقة والخطورة، إذ ينقصنا الكثير من الموارد المالية والبشرية، خاصة، بعد أن نزحت كثير من العائلات إلى خارج الحدود، وأريد منكم أن تشاركونى فى وضع تصور لمواجهة خطر الغزو الرباعى هذا." ولم يجب أحد بشىء بل ظلوا واجمين معتصمين بالصمت، إلا واحداً من بينهم وهو الوزير" ياوجيا" [من مواطنى وى، تنقّل فى البلاد واستقر فى تشين] تحدث إلى الملك بقوله: " أنا على استعداد أن أقوم بدور فعال لإحباط سعى التحالف الرباعى إذا سمح جلالة الملك بإيفادى مبعوثًا رسميًا إليهم، وسأبذل كل جهدى للحيلولة دون أى زحف عسكرى ضد تشين."

وهنالك أمر الملك بتجهيز سفارة إلى التحالف الرباعى بقيادة هذا الوزير، وزوّده بمائة عربة عسكرية وألف وزنة من الذهب وخلع عليه خلعة ملكية، بل قام ووضع التاج الملكى بين يديه، وقلده سيفه ومنطقته الذهبية، ولما حان السفر قام بتوديعه فى أبهة زائدة، وتجول الوزير "ياوجيا" بين البلاد وبذل مساعيه التى تكللت بالنجاح فى نزع

فتيل الحرب وصد مؤامرة التحالف الرباعي ضد تشين، ووقف زحف القوات المعتدية إليها، بل استطاع أن يقيم جسور صلات دبلوماسية مع الدول المعنية، وعاد من سفارته ليقدم تقاريره إلى الملك، يشرح فيها ما توصّل إليه من نتائج وغمرت السعادة قلب جلالته، وأهدى " ياجياو " واحدة من أحسن المقاطعات في البلاد وأنعم عليه برتبة " الوزير الإمبراطوري" الشرفية.

ويلغت هذه الأخبار مسامع " هان فيتس " [الفيلسوف السياسي الشهير ٢٦٠ - ٢٣٣ ق.م] فذهب والتقى بالملك، وقال له:" كنت قد أرسلت ياوجيا في مهمة رسمية فسافر وهو يحمل كميات هائلة من الذهب والهدايا الثمينة، فقصد جنوبًا إلى دولتي : "تشو" و"أو"، وسافر شمالاً إلى دولتي :"يان" و " داي"، وكمل له من الزمن في ذلك كله ثلاث سنوات. هذا بينما لم يكن التحالف المزعوم بين الدول الأربع محققًا أن يصل بها جميعًا إلى أية نتائج إيجابية، ففيم هذا الإسراف في توزيع الجواهر والذهب والنفائس الثمينة يمينًا ويسارًا؟!

والحقيقية أن " ياوجيا " استطاع أن يقيم العديد من الصلات الشخصية مع أمراء الممالك والدويلات مستغلاً ثرواتك، وسلطاتك بغير حدود، فأرجو من جلالتكم التحقق من ذلك الأمر بنفسك . واسمح لي بأن أذكركم بأن " ياوجيا " ليس إلا واحداً من أبناء دولة وي وكان أبوه يعمل حارسًا في القصور الملكية، وأنه أُتهم ذات مرة في جريمة سرقة بمدينة " واليانغ "، وأنه مطرود من أحد المناصب الوزارية بدولة جاو، ولاأدرى كيف يمكن لجلالتكم أن تتوقعوا أي إصلاح لشئون الدولة على يد لص قديم من وي، ومطرود من جاو، ولا أظن أن مثل هذه الطريقة في إدارة الحكم يمكن أن تشجع الوزراء على الإخلاص والتفاني. "

وأسرع ملك تشين باستدعاء ياوجيان، فلما مثل بين يديه ابتدره قائلاً: "بلغني أنك أقمت علاقات شخصية ودية مع أمراء الدويلات والممالك مستغلاً في ذلك ما منحتك إياه من أموال ونفائس، فهل هذا صحيح ؟ "، فلما رد عليه بالإيجاب، ودهش الملك وسأله:" وهل بلغت بك الصفاقة أن تتجاسر على المجاهرة بما اقترفت في

حضورى هكذا، ودون أن يطرف لك جفن ؟"، فأجابه ياوجيان قائلاً: " على رسلك يامولاى، ألا إن الابن البار بأبيه وأمه، قدوة طيبة ومثل رائع فى باب الولاء والعرفان، والخادم المطيع لسيده، نموذج يتمناه كل أمير أو صاحب ولاية، والفتاة الحائكة الماهرة فى فن التطريز، صورة حلوة فى خيال كل شاب يحلم بشريكة حياة، وقد صارحتك بكل إخلاص فوق عرفانى وولائى لجلالتك، وقد سافرت لأجلك ياسيدى وأقنعت الأمراء بالنزول على مشيئتك، ولمن تظننى أدعوهم بالخضوع وتقديم أسمى آيات الولاء والتقدير إن لم يكن لأجل مجدك وعزيز مقامك، وكيف تظنهم يأمنون لى ويمنحونى ثقتهم إن كنت خائنًا لك منكرًا لفضلك، وأنا أحدثك عن أربع دول كبرى متحالفة وليست مجرد دويلة صغيرة، وقد قيل قديمًا إن الإمبراطور شياجى (آخر أباطرة أسرة شيا) قد نكل بوزيره وقتله بسبب وشاية كاذبة، ففتح بذلك الباب لكل واشٍ وساعٍ بالبهتان وانتهى الأمر بمقتله هو نفسه وزوال ملكه، وأخشى إن أصغيت يامولاى لمثل هاتيك الافتراءات ألا يبقى لك خادم مخلص أو بطانة وفية."، وكلمه الملك قائلاً:" ويلغنى أنك فى الأصل ابن أحد الحراس وأنك متهم بجريمة سرقة فى وى، بالإضافة إلى أنك مطرود من وظيفة رسمية بدولة جاو، (فما قولك فى هذا كله) ؟" فأجابه:" إن شخصية تاريخية مرموقة مثل الحكيم الفاضل " لى وانغ " – وكان فى الأصل زوجًا فاشلاً فطردته امرأته – حاول أن يعمل قصابًا فلم يفلح، فسافر إلى بلدة جييجن للعمل أجيرًا، فلم يحالفه التوفيق، وأخيرًا، كان الملك أون حاكم " تجو " هو الذى صنع منه رجل دولة من الطراز الأول واستطاع أن يوحد به الممالك فى دولة كبرى. بل كان " كانشون " أحد (أشهر وزراء العصر القديم) يعمل فى الأساس بائعًا متجولاً فى وى، ثم انتقل للإقامة فى " نانيانغ " حيث عاش حياة مزرية بائسة، فلما ضاقت به الحال سافر إلى "لو" ، ولم يكن حظه هناك بأفضل مما سبق، إذ تورط فى محن ألقت به فى غياهب السجون زمنًا طويلاً ، وبرغم كل ذلك، فقد استطاع ملك تشى أن يستغل مواهب هذا الرجل، فضمه إلى سدة الهيمنة الإمبراطورية التى أخضعت تحت سلطانها أممًا ودولاً وإمارات.

وكان المدعو "بيليشى" يجوب الشوارع يستجدى لقمة العيش من مارة دولة "يو" ، وقيل إنه وقع فى العبودية وبيع بثمن بخس (خمس رقائق من جلد الضأن)، وغير أن الملك موكون (حاكم تشين، وأحد أعظم أباطرة العصر التاريخى المسمى بعصر الدول المتحاربة) تولى أمره، حتى بلغ فى عهده منصب الوزير الأعظم، فكان هو الذى استطاع أن يقهر الدويلات المتمردة فى أقصى غرب البلاد وأن يأتى بها صاغرة عند أعتاب القصر الإمبراطورى لدولة تشين. وليس سراً أن حاكم دولة جين، بسط رعايته لواحد من أعتى مجرمى زمانه ؛ أشهر لص فى تاريخ دويلة جونشان، وللعجب، فقد كان هذا الشقى قاطع الطريق هو الذى قاد جيش دولة جين إلى موكب النصر التاريخى على دولة تشين فى موقعة بوشينغ.

إذن، فهؤلاء الأربعة لم يكونوا من ذوى السمعة الحسنة، ولا المنبت الشريف، بل دمغت سيرتهم الأولى بخصال يندى لها الجبين، برغم ذلك كله، فلم يأنف الملوك الحكماء الأربعة من تقريبهم إلى مساحات القصور الحاكمة، بل قد استعانوا بهم فى تحقيق الإنجازات الكبرى التى سجلها لهم التاريخ بفخر وشرف، ولئن كان أولئك الرجال - برغم وصمة نشأتهم الأولى - قد حققوا المآثر العظيمة، فإنهم قد تفوقوا بذلك على آخرين ممن كانوا فى مواقع مرموقة لكن أصحاب الجلالة لم يجدوا لديهم بغيتهم، ففضلوا عليهم أصحابنا المشار إليهم آنفًا، فأقالوا عثراتهم وتغاضوا عما اقترفوه فى سابق الحال، فلفظوا ما خبث منهم واستصفوا ماطاب من حميد سجاياهم، لبلوغ أسمى الأهداف وأعظم الغايات، فلهذا درج رجال الحكم على أن يتخذوا مساعديهم ممن ينبغون فى رفعة شأن الأوطان وتحقيق أمنها واستقرارها، حتى لو كانوا موضع التندر أو الاستخفاف من الآخرين ذلك أن الوضيع الذى يبلغ بك إلى حضيض الكارثة. ومن ثم يبذل الوزراء أقصى جهدهم لاستحقاق الجدارة."

أما الملك فقد أعجب بمقالته واستصوب رأيه وأصدر قراره بتجديد الثقة فيه واستمراره فى منصبه، ثم إنه قضى بإعدام [الفيلسوف] هان فيتس.

سجل تشى الأول

لما تحقق النصر لقوات دولة تشو

تحقق النصر لقوات دولة تشو فى موقعة " شوجو " (إحدى مدن دولة تشى) وأراد الملك أن يتخذ من هذا النصر وسيلة للضغط على دولة تشى كى تقوم بإبعاد ولده الأمير تيانين المقيم لديها (مما يسهل للأمير العودة إلى بلاده بشروط تقبلها تشى) فلما علم هذا الأخير بذلك الأمر، تولاه الفزع والرعب ، وهنالك ذهب "جانغ شو" - رئيس وزراء تشى - لمقابلة حاكم تشو، وقال له: " إن من بين الأسباب التى عجلت بانتصاركم فى موقعة شوجو، أن دولة تشى أهملت شأن قائدها العسكرى المحنك " تيانيان " ولم تمنحه التقدير اللائق ولا المنصب الرفيع - شأن باقى رجال الدولة - هذا بالرغم من أفضاله ومآثره الجليلة فى خدمة وطنه والتى بلغت حداً كبيراً مما ألهج ألسنة الناس بالثناء عليه ، ومكن له الاحترام والحب فى قلوبهم حتى تمنوا له الترقى وتولى زمام القيادة العليا، ولكن وللأسف الشديد فإن الأمير تيانين (نجلكم المفدى !) لم يكن يحمل مثل هذا التقدير لهذا الرجل العظيم (المحبوب جماهيرياً) بل كان يفضل عليه قائداً عسكرياً آخر، هو " شن فو "، الذى لم يحظَ - لسوء حظه - بتقدير وإعجاب باقى رجال الدولة وكل الناس فى تشى؛ فبسبب هذا التمزق فى الولاءات حدث ما حدث، وكان لكم النصر كما سلف، أما إذا وقع الآن ما ترغبون فيه من إبعاد الأمير تيانين، فستكون النتيجة لذلك صعود نجم تيانيان، وارتقاءه سلم السلطة العسكرية هناك، وهو ما سيعنى قيامه بإصلاحات عسكرية شاملة للقوات بما يمكنها من منازلتكم بصمود واقتدار وشجاعة، وهو ما لن يكون فى صالح بلادكم بكل تأكيد."

وبالفعل فقد تراجع حاكم تشو عن محاولته التى تستهدف إعادة الأمير تيانين.

لما قررت دولة تشى منح إقطاع شودى للأمير

كانت دولة تشى قد قررت منح إقطاع " شودى " للأمير تيانين، فلما سمع حاكم تشو بهذا القرار استشاط غضبًا، وجهز قواته للقيام بحملة تأديبية ضد تشى، وهنالك بدأ حاكم هذه الأخيرة يفكر فى التراجع عن فكرة منح الإقطاعات المذكورة للأمير، وحدث أن التقى حاكم تشى برئيس وزرائه " كونسون هان " الذى قال له : " إن إتمام موضوع منح الإقطاعات للأمير تيانين لن يكون بيد تشى وحدها، بل سيتقرر وفقًا لما تراه تشو أيضًا، ولعلى أذهب للقاء حاكمها؛ كى أنصح له بأن يطالع مسألة منح الإقطاعات من منظور مختلف، حيث إن هذا الأمر يمثل لجلالتكم على المستوى الشخصى أهمية نفسية ووجدانية أكثر مما يهم تشى نفسها"، وهنا رد عليه الأمير تيانين قائلاً :" وأنا من جانبى أوافق تمامًا أن تتولى أنت تسوية هذا الأمر بنفسك ".

الجزء الثانى من الفصل نفسه

ذهب "كونسون" هان للقاء حاكم تشو، وتحدث إليه بشأن منح الإقطاع للأمير تيانين، وقال لجلالته:" إن السبب فيما تحرص عليه دولتى "لو"، و"سونغ" من تقديم فروض الولاء لـ "تشى" وليس لدولة تشو يكمن فى أن هذه الأخيرة دولة قوية يخشى بأسها، فهل يعقل يا مولاى، أن ترى فى موالاة هاتين الدولتين نصرة ودعمًا لك، بينما تقعد عن اقتحام حصون تشى التى تمثل بؤرة التهديد وعين الخطر، ثم إن إقدام تشى على منح الأمير تيانين مساحات كبيرة من الإقطاعيات سيضعف من مركزها ويقلل من عناصر تفوقها، وهكذا فمن الأصوب ألا نعترض يامولاى، على هذا الإجراء."

وهنالك وافقه حاكم تشو على وجهة نظره، فلم يحاول الاعتراض على قرار بمنح الأمير تيانين إقطاع " شودى ".

لما قرر الأمير تيانين بناء سور حول الإقطاعية

لما قرر الأمير تيانين بناء سور كبير حول إقطاعية شودى، فوجئ بعدد من أصحابه وتابعيه ينصحون له بالتراجع عن هذه الفكرة، لكنه مضى فى مشروعه ولم يأبه لهم، بل أصدر أمراً إلى ضابط الاستعلامات بحظر أخبار إنشاء السور عن النشر لتظل فى طى الكتمان دون أن يعلم بها أحد من الناس وخصوصًا التابعين والمقربين من الأصدقاء. وجاء من دولة تشى رجل يريد أن يقابل سموه فى أمر مهم للغاية، قائلاً : " أريد فقط أن ألتقى بالأمير لأقول له ثلاث كلمات لاأكثر، فإن زدت كلمة رابعة اقتلونى قتلاً ."، فلما أشار الأمير بالموافقة دخل الرجل إليه، وقال كلمات ثلاث هى:" أسماك ضخمة بالبحر" فما كاد يتفوه بذلك حتى استدار يريد أن ينطلق خارج القصر، فأمره الأمير بالبقاء مكانه، فقال له الرجل:" الموت أشق مصير يامولاى، ولاأريد أن ألقى حتفى عبثًا!" (= بسبب كلمات قلائل) فطمأنه الأمير وأعطاه الأمان على حياته إذا هو استمرفى كلامه ، كى يفسر ما يحيط به من ألغاز، فقال الرجل: " أما عرفت يامولاى" أن أسماك البحر الضخمة لاتعلق بسنارة صيد ولاتستقر فى جوف الشباك، فيتعذر اصطيادها إلا إذا غامرت هى نفسها بالقفز خارج الماء فحينئذ تموت على اليابسة وتصير طعامًا لأحقر حشرات الأرض، (ومقصدى من هذا أن أقول) إن تشى هى مياه بحرك العريض، فإذا كنت تسكن فى لجة هذا الخضم بأمان، فما حاجتك للاحتماء داخل أسوار " شودى " ذلك أنك خسرت ما تمنحك إياه تشى من حماية وأمان، فلن تجديك أسوار شودى نفعًا وإن طالت بك الأسوار إلى عنان السماء."

وبالفعل، فقد تراجع الأمير تيانين عن إنشاء السور المشار إليه.

لما تكلم الأمير مع ملك تشى

تحدث الأمير تيانين مع ملك تشى، فقال له: " من الضرورى جداً ياجلالة الملك أن تقوم يوميًا بمراجعة ملفات الوظائف الحكومية الخمس الكبرى بالإضافة إلى المراقبة الدورية لها من آن لآخر."، فأجابه الملك قائلاً : " لكنى لا أكاد أتابع وظيفة واحدة فى اليوم الواحد حتى أشعر فى باقى الأيام بالملل والفتور". فمن ثم آلت مهمة متابعة الملفات الوظيفية الكبرى إلى الأمير تيانين كى يفحصها بنفسه.

لما كانت العلاقة بين الأمير تيانين وتشيماو

كانت العلاقة بين الأمير تيانين وتشيماو بيان (أحد مواطنى تشى) مستقرة على الود والتفاهم فلما كان هذا الأخير - تشيماو بيان - يشتمل على كثير من الخصال السيئة والطباع الممقوتة، فقد كرهه الناس وأبغضه الندماء والتابعون، وذهب أحدهم (شيوى: أحد خلصاء الأمير تيانين) إلى تيانين ونصح له بالحذر من صديقه، إلا أن الأمير لم يحفل بالنصيحة، فاستقال التابع من وظيفته وآثر الابتعاد عن الأمير، ثم راح تيانون (ولد الأمير تيانين) ينصح لأبيه - فيما هما يتناجيان - باتخاذ الحيطة والحذر من تشيماو بيان فإذا بالأب ينفجر فى وجهه قائلاً فى غضب: " ينبغى أن تعلموا أنى راضٍ عن ذاك الرجل (تشيماو بيان) رغم أنفكم جميعًا، ولتغضبوا أو ترحلوا فلن أكترث إلا لما يرضيه هو."، ثم إن الأمير رتب له الإقامة فى أفخم جناح بالقصر الرسمى، وأوصى ولده الأكبر بالعمل على رعايته وتلبية أوامره، وتزويده بألين الفرش وأطيب الطعام.

الجزء الثانى من الفصل نفسه

لم يبقَ حاكم تشى - الملك وى - على عرش البلاد سنوات طويلة إذ لم تكد تمر عدة أعوام حتى توفى وانتقل الحكم من بعده إلى الملك شيوان. ولم تكن العلاقة بين

الأمير تيانين وهذا الملك طيبة بأى حال، فمن ثم تأهب الأمير للرحيل إلى إقطاعيته الكائنة بمنطقة شودى واستأذن جلالة الملك فى ذلك وأراد أن يصطحب معه صاحبه تشيماو بيان ليقيم معه فى إقطاعيته المذكورة، وما كاد يستقر بهما المقام هناك طويلاً حتى قام تشيماو بيان يعتذر عن البقاء مع صاحبه ويستأذنه فى العودة منفرداً إلى عاصمة البلاد يريد مقابلة جلالة الملك شيوان، فقال له تيانين: " لايخفى عليك ما يحمله الملك لى من ضغينة، وأخشى أن يكيد لك ليقتلك." فأجابه :" لاعليك، فما ظننت قط أنى أريد العودة إليك حيًّا، وإنى لذاهب حتمًا ! "، ولم يستطع الأمير تيانين أن يثنى عزم صاحبه عن الرحيل.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وبالطبع فقد ترامت إلى أسماع الملك شيوان أخبارعن وصول المدعو "تشيماو بيان" إلى العاصمة، فراح ينتظر قدومه وصدره يغلى بالغضب، فلما مثل بين يديه، ابتدره قائلاً:" بلغنى أنك أحظى الناس بحب تيانين، وأنك لاتنكر له فضلاً ولاتكذب له كلمة."، فأجابه:" فأما الفضل فلا أنكره، لكنى لست بالذى ينقاد لهوى صاحبه، وكنت قد تحدثت مع تيانين وأنتم بعد فى ريعان الصبا قبل توليتك عرش الملك، فقلت له: " يبدو لى أن الأمير شيوان فظ متحجر القلب، يحمل لك بين جنبيه أخبث النوايا، ولابد أنه كائد لك كيداً لن تفلت منه، فاسمع قولى واجعلها بى وانهض معى نثير سخط الملك عليه فلا يقرب سدة العرش أبداً ونجعل مكانه أخيه (من جهة الأب) الأمير شياوس، وعندئذ لم يتمالك تيانين أن فاضت عيناه بالدموع، وهو يقول لى:" مستحيل هذا لن يكون أبداً." فليته قد سمع كلامى وأراح نفسه مما هو فيه من شقاء تجاهلكم له وتنكركم لمكانته، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد حدث عندما وصلنا إلى إقطاعيته شودى أن عرض عليه جاويان (وزير بدولة تشو) مبادلة الإقطاعية الممنوحة له من والدكم الملك السابق بضعف مساحتها من أراضى تشو، وعندما علمت بهذا الأمر رجوته أن يوافق على الفور دون تردد، فقال لى:" قد قبلت

بكل فخر هذه الإقطاعية منحة كريمة من الملك السابق، ولن أفرط أبداً فيما أهدانيه الملوك برغم القطيعة التى منيت بها من قبل العرش الحاكم فى الوقت الحالى، ثم إنى لا أستطيع (أخلاقيًّا!) أن أبدد أرضًا تحمل فوقها المعبد الإمبراطورى الخاص بالملك الذى أكرمنى بعطاياه السخية ؟!"، وعلى هذا النحو فقد صم أذنيه عن نصيحتى وأنا أقرب الناس إليه."، وما كاد ينتهى الرجل من كلامه حتى نفث الملك زفرة جاش بها صدره طويلاً، وقد تغيرت تعبيرات وجهه، وقال:" أمعقول أن يكون تيانين على هذا النحو من النبل والولاء والعرفان! تبًّا لى إذ كنت أجهله وأنا فتى صغير، والآن يمكنك أن تنقل إليه، على لساني دعوة للعودة إلى العاصمة "، وبالطبع فقد أسرع تشيماوبيان بالإيجاب.

الجزء الرابع من الفصل نفسه

قام تيانين وارتدى الحلة الرسمية والقبعة المهداة إليه من جلالة الملك السابق وتقلد السيف الذهبى واستعد للقاء الملك شيوان الذى حضر إلى مشارف العاصمة ليكون فى استقباله، ثم إن الملك لمح فى عينيه الدموع وهو يدلف بجانبه من بوابة القصر الملكى المنيف، وكان أن قربه إليه وعينه رئيسًا للوزراء، فحاول تيانين الاعتذار عن قبول المنصب، لكنه اضطر إلى الموافقة، ثم لم ينقضِ أسبوع واحد حتى استقال متعللاً بسوء حالته الصحية واعتمد القصر استقالته بعد مرور ثلاثة أيام.

الجزء الخامس من الفصل نفسه

فى خضم تلك الأحداث، استطاع الأمير تيانين أن يقول بملء فمه أنه عاش تجربة أضاءت له سبيل فهم وإدراك طبيعة النفوس من حوله، وكان من نتيجة ذلك أنه صار أكثر اقتناعًا بما يراه من خصال شريفة يتميز بها النبلاء الأماجد، رغم أنف ما يتقول به وما يطعن به عليهم الآخرون، ذلك أن الماجد الأشرف تشيماوبيان قد ضرب

مثلاً ضحى فيه بحياته، إذ هان عليه الموت فى سبيل تفريج كرب صاحب،ه وحل ما ضاق على عنقه من وثاق الخوف والتهديد.

لما تهددت المخاطر العاصمة هاندان

لما أحاطت المخاطر بالعاصمة " هاندان "، وتقدمت دولة جاو إلى دولة تشى بطلب النجدة العاجلة، واجتمع الملك وى حاكم تشى مع الوزراء ورجال التخطيط السياسى وصارح الجميع بتردده وحيرته إزاء مسألة تقديم المساعدة العسكرية العاجلة لدولة جاو، وسألهم عما إذا كانوا يوافقون على هذا الأمر من عدمه، ورد عليه رئيس وزرائه تسوجى قائلاً:" الأفضل يامولاى، هو أن نمتنع عن تقديم المساعدة، وهذا رأيى "، لكن الوزير " توانكان لون " تدخل قائلاً:" ليس فى مصلحتنا الامتناع عن تقديم العون الفورى لدولة جاو "، ولما سأله الملك عن السبب فى ذلك ، أجابه بقوله: " لأننا سنخسر كثيراً فيما إذا تغلبت وى على تشى ودخلت بقواتها إلى العاصمة هاندان وضمتها تحت سيادتها."، وعلى إثر ذلك أبدى الملك موافقته على تقديم العون المطلوب، وتحركت قواته نحو هذه الغاية وقد أوصى جلالته بأن ترابط القوات على مشارف العاصمة هاندان، فقال الوزير " توانكان لون ":" ليس المهم الآن يامولاى تقدير الدعم العسكرى من زاوية ما هو مفيد أو ضار بمصالحنا، ذلك أن الدفاع عن هاندان بالمرابطة على مشارفها سيحول دون احتلال جاو لكنه أيضًا سيضمن لـ "وى" ميزة الاحتفاظ بقواتها الضاربة، وأرى من الأفضل أن نتقدم صوب الجنوب، حيث نقتحم بلدة " شيانلين" (تابعة لـ "وى") لإنهاك وى، حتى إذا وقعت العاصمة هاندان فى يدها تقدمنا على إثرها حتى بسطنا سيطرتنا الكاملة على أرض وى نفسها، وبذلك يتحقق لنا كسر شوكة جاو من ناحية، واستنزاف وى من ناحية أخرى (.. فما هو فى مصلحة تشى .. بالتأكيد !)."

وبالفعل فقد دفع الملك قواته صوب الجنوب لاحتلال بلدة شيانلين، وفى الشهر السابع وقعت العاصمة هاندان فى يد قوات وى، وانتهزت تشى الفرصة على أثر الإنهاك الذى أصاب وى، وقامت بهجوم كاسح على هذه الأخيرة حيث مزقتها وهزمتها شر هزيمة فى موقعة " كويلين ".

لما أحدقت المخاطر ببلدة نانليانغ

لما أحدقت المخاطر ببلدة نانليانغ (التابعة لدولة هان) [إشارة إلى الخراب الذى لحق بهذه البلدة على إثر هجوم وى عليها فى عام ٣٤٢ ق.م] تقدمت هان إلى تشى بطلب دعم عسكرى عاجل، وعلى الفور دعا الملك " وى " – حاكم تشى – الوزراء وكبار رجال التخطيط السياسى، وسألهم:" أى الأمرين أصوب وأنفع لبلادنا، الإسراع بإرسال الدعم العسكرى إلى هان أم تأخيره إلى أجل لاحق؟"، فرد عليه جانكاى – أحد وزرائه – قائلاً:" أرى أن تأخير إرسال الدعم المطلوب سيمكن هان من الالتفاف المفاجئ وضرب وى واحتلال جزء من أراضيها وهنا تكلم الوزير يتانجى قائلاً:" لاأوافق على هذا الرأى، بل أرى أننا فى الوقت الذى لم تصل فيه بعد قوات الدولتين المتحاربتين هان و وى إلى مرحلة الإنهاك التام، نقرر أن نرسل دعمًا عسكريًا لدولة هان (هذا خطأ لأنه) مما يمكن أن يعرض قواتنا لتلقى ضربة الهجوم ضد هان، وتضطر كذلك إلى طاعة الأوامر التى يمليها عليها قادة هان، فإذا وضعنا فى الحسبان عزم وتصميم وى على ضرب هان، فلابد أن نتوقع أن هذه الأخيرة سوف تهرع إلى الشرق من أراضيها، أى إلينا نحن، تطلب المساندة فى وقت المحنة الذى تتعرض فيه لخطر الإبادة على يد عدوتها اللدود، وحينئذ فقط سننتهز الفرصة لعقد تحالف سرى مع هان، يمكننا كلانا – نحن وهان – من صد هجوم وى فى وقت تكون قد بلغت فيه شدة الإنهاك والتعب، ساعتئذ نتمكن من حماية الأرض والعرض واغتنام الفرص والحفاظ على الهيبة والمكانة وسط الممالك."

ولم يلبث الملك أن وافق على هذه الخطة، وراح يرتب لتنفيذها سراً مع رسول دولة هان، وكلفه بالعودة إلى بلاده لإتمام المطلوب.

الجزء الثانى من الفصل نفسه

ودخلت دولة هان المعارك وفى ذهنها أن تشى ستمدها بالعون والدعم العسكريين وقت اللزوم وحدث أنها اشتبكت مع عدوتها فى خمس معارك، هزمت فيها جميعًا فهرعت صوب الشرق تستنجد بجارتها تشى التى أرسلت إليها القوات اللازمة لمواصلة القتال، وقد استطاعت هذه القوات - بالفعل - أن تكبد وى خسائر فادحة وتنزل بها الهزيمة فى موقعة مالين، وهكذا، سقط الطرفان صريعين، هذا مثخن بالهزيمة وذاك منهك على إثر القتال، ولم يجد حاكما البلدين وى وهان سوى أن يتفقا معًا على إيفاد مندوبهما الأمير تيانين إلى بلاط آل تشى؛ كى يمهد الطريق الذى سيتبعانه صوب الشمال (دولة تشى) حيث سيمضيان معًا إلى هناك ويركعان لدى الأعتاب الملكية علامة على الإذعان والولاء لسيد الممالك جلالة الملك ويه.

لما تولى تسوجى رئاسة وزراء دولة تشى

تولى "تسوجى" رئاسة وزراء دولة تشى، وكذلك تولى " تيانجى " منصب القائد العسكرى الأعلى، ولم تكن العلاقة بينهما على ما يرام، وقيل فى الحوادث أن " كونسون هان " ذهب إلى تسوجى، وقال له:" لماذا لم تبادر إلى تقديم خطة عاجلة لجلالة الملك بخصوص الهجوم على وى، فإذا ما كان النصر حليفك، وسطع نجمك وأشرق بالعز بهاؤك وأضفت إلى مآثرك ما لن تغفله الأيام، أما إذا وقعت الهزيمة، فهى فرصتك كى تعزو ذلك إلى إحجام تيانجى عن المبادأة لنقص كفاءته وقلة صبره على الصمود أمام أهوال القتال مما يجعله مسئولاً عن اندحار القوات ووقوع الكارثة الجسيمة بالبلاد، ولعله يدفع حياته ثمنًا لذلك، فيذهب الذهاب الذى لارجوع منه."

وبالفعل فقد اقتنع تسوجى بهذا الرأى وطلب إلى جلالة الملك - حاكم تشى - تكليف تيانجى بقيادة معارك الهجوم على وى.

الجزء الثانى من الفصل نفسه

واقتحم القائد المحنك تيانجى ساحات المعارك، وحقق انتصارات باهرة فما من راية فى سماء قتال، إلا وتبعها راية فى سماء المجد تشهد له بالتفوق والمهارة والنبوغ العسكرى، وراح الوزير تسوجى يقص تلك الأخبار على مسامع كونسون هان، ويسأله عما يجب فعله إزاء هذا الأمر، فما كان من هذا الأخير إلا أن أرسل أحدهم بكميات وافرة من المال إلى السوق الكبير قاصداً محل التنجيم والطوالع، حيث راح يسأل العرافين قائلاً: " أتيتكم موفداً من قبل القائد العسكرى الكبير تيانجى صاحب الانتصارات المعهودة التى ذاع صيتها فى الآفاق طالبًا إليكم استقصاء أنباء الغيب فيما إذا قرر سيادته أن يدير بنفسه الشئون العليا للدولة، فهل يزكيه فى ذلك يمن الطالع أو يرده عنه شؤم النذير؟"، ولم يلبث الوزير تسوجى أن أصدر أمراً بالقبض على العراف الذى قام بمطالعة البروج، وجمع حشداً من المسئولين وذهبوا جميعًا ومعهم الفلكى المقبوض عليه إلى القصر حيث طلبوا مقابلة الملك وأحضروا أمامه العراف ليذكر أمام جلالته وقائع ما حدث، وليشهدوا عليه بما قال، ولما علم القائد تيانجى بذلك فر هاربًا من البلاد.

كان تيانجى أثناء شغله منصب القائد

كان تيانجى أثناء توليه منصب القائد الأعلى لقوات تشى قد تمكن من أسر أمير دولة وى " الأمير شن " وقائدها العسكرى العظيم " بانشيوان "، ثم إن " سون تزو "(المفكر العسكرى الشهير صاحب كتاب " فن الحرب " ومستشار " تيانجى " فى الشئون الحربية) سأله قائلاً: " هل بإمكانك أن تقوم بمهمة جسيمة أدلك عليها؟"، فأجابه:

" هات ما عندك، وقل مـاذا يمكننى أن أفعل ؟"، وراح سـون تزو يشرح له الأمـر قائلاً :
" أرى أن تكرعائداً بقواتك وهى مـازالت بعد فى لباس الحرب إلى الوطن (دولة تشى)
وأن تستبقى عند مضيق "رندى "[ذى الأهمية الاستراتيجية] ، كبار السن والمنهكين
من جنودك؛ ليقوموا بمهام الدفاع فى هذه المنطقة التى يتميز الطريق الرئيسى المار
وسطها بوعورة مسلكه حيث لايكاد يسمح إلا بمرور عربة عسكرية واحدة فى اتجاه
واحد فلا تستطيع عربتان متجاورتان جنباً إلى جنب أن تعبرا منه بأى حال، ولابد أن
تختار الرجال القائمين على حراسة مدخل المضيق بحيث يكون الفرد منهم بمثابة
عشرة أفراد، وأن يكون العشرة بمثابة مائة ، والمائةُ ألفًا، ثم تعبر برجالك جبل " تاى"
فتسير بهم يساراً حتى تخوض نهر " جيشـوى "، وتمضى يمـيناً فتعبر منطـقة
" كاوطان " على أن تجعل من هذا الإقليم مركزاً للمؤن والذخيرة، ثم تدفع بالعربات
الخفيفة ونخبة من أمهر الفرسان على صهوات جيادهم باتجاه " يونمن " (المدخل
الغربى لعاصمة تشى)، وبهذه الطريقة تحقق غرضين: الأول: أن تهدئ من روع الملك
وتشيع فى نفسه الشعور بالأمان والطمأنينة، والثانى: أن تتخلص من الوزير تسوجى،
الذى سيفر هارباً من البلاد على الفور، وإلا فلا أظنك تستطيع أن تدخل تشى أبداً
بعد ذلك."، غير أن القائد تيانجى لم يأخذ بهذه الخطة، وبالتالى لم يتمكن من العودة
إلى تشى.

لما فر تيانجى هارباً من دولة تشى

لما فر القائد تيانجى هارباً من تشى إلى دولة تشو، فقد حل الوزير تسوجى محله
فى القيادة العسكرية وصار بذلك يمارس السلطتين: المدنية والعسكرية، ولما كان
يخشى فى قرارة نفسه أن يعود إليه تيانجى - خصمه اللدود - منافسًا فى سلطاته
ومزاحمًا لمكانته ونفوذه مستنداً فى ذلك على دعم ومؤازرة دولة تشو له (فقد ذهب
الوزير دوها - المهاجر من موطنه الأصلى: "تشو"؛ ليعمل فى بلاط تشى وسأله أن

يعينـه فى هذا الأمـر، فقال له دوهـا:) قال:" دع لى هذا الأمر، وسأعمل على أن يبقى " تيانجى " فى تشو مدى الحياة."

الجزء الثانى من الفصل نفسه

[سافر دوها إلى تشو] والتقى بجلالة الملك وقال له:" إن السبب فى عدم توطيد أواصر الصداقة والمودة بين جلالتكم وتسوجى يكمن فى أن هذا يخشى من أن يتخذ القائد الهارب تيانجى من قوة تشو عونًا له للعودة إلى تشى، وأرى أن تتكرم جلالتكم بالإنعام على تيانجى بمنحه إقطاع أرض " جيانان " مما يلمح بوضوح إلى مسعاكم لتوفير الأسباب الداعية له بالبقاء فى تشو مدى حياته، [وهو ما سيقابل بالتقدير البالغ من جانب تسوجى الذى سيرد الجميل مضاعفًا و..] ستحمل الرسل إليكم أثمن الهدايا من تشى، ولابد أن تيانجى بوصفه وصفته هاربًا من مسقط رأسه، سيلقى تفضلكم عليه بالمنحة الملكية ببالغ الامتنان والعرفان، فإذا أتيح له مستقبلاً أن يعود إلى وطنه تشى، فلن يتأخر عن أن يسدى إليكم خدماته على النحو الذى يرضيكم ويحقق مصالحكم، فتلك -إذن - هى الوسيلة التى يمكنكم بواسطتها استغلال كلٍّ من تسوجى وتيانجى معًا بطرق مختلفة لكن لمصلحة غرض واحد."، وقد تفضل ملك تشو بمنح الإقطاعات المذكورة للقائد الهارب تيانجى.

لما تفانى الوزير تسوجى

تفانى الوزير تسوجى فى خدمة ملك تشى، وقام بترشيح العديد من المؤهلين للعمل فى البلاط الملكى، لكن جلالته لم يرضَ عنهم وبدا عليه الاستياء البالغ، أما الوزير " يانشو "، فبرغم مكانته المرموقة ونفوذه المهيب، فلم يرشح للعمل فى القصر سوى قليل جدًا من الأفراد، [.. ومع ذلك فلم يجد اعتراضًا من الملك، بل ..] كان جلالته يبجله ويحبه كثيرًا، وذهب تسوجى إلى الملك وقال له: " بلغنى أن الناس تقول

إن ولداً باراً بأبويه لابأس به، لكن خمسة أولاد بررة أفضل كثيراً، فماذا لو زاد عدد من يرشحهم الوزير يانشو للعمل فى البلاط العتيد، أما ترى قلة عدد من يختارهم للعمل يامولاى ؟ "، فمن ثم وقع فى ظن الملك أن يانشو يحول بين نوى الكفاءة والمؤهلين وبين العمل فى القصر.

لما كان الوزير تسوجى ذا وسامة وملاحة

كان الوزير الأكبر تسوجى جميل الطلعة وسيمًا، حلو الملامح ذا طول فارع بلغ ثمانية أذرع (= حوالى مائة وتسعون سنتيمتراً)، وكان يرتدى فى الصباح أجمل ثيابه ويتلفع بالشيلان المزركشة الجذابة، ويضع على رأسه قبعته فينظر طويلاً فى المرايا، وكان قد قال ذات مرة لزوجته:" أينا الأجمل أنا أم "شيوكون " المقيم ببلدة "تشينى "؟"، فأجابته:" بل أنت الأكثر ملاحة ووسامة، فأين هو مما فزت به من جمال ورشاقة ، أما شيوكون المشار إليه والمقيم ببلدة تشينى، فهو من مواطنى دولة تشى. وذاعت شهرته بين الممالك لما تميز به من وسامة وجمال ملامح ورشاقة قد وتناسق بنيان، ولم يكن تسوجى يصدق أنه أجمل من شيوكون هذا، فراح يسأل محظيته الأثيرة لديه، قائلاً :" أينا أحسن وجهًا وأتم حسنًا أنا أم شيوكون؟"، فردت عليه:" وكيف يمكن لشيوكون أن يكون فى تمام بهائك وجميل ملامحك ؟!"، وفى اليوم التالى نزل عليه ضيف من سفر بعيد، فبينما هما يتسامران سأل ضيفه قائلاً :" أقسمت عليك إلا صدقتنى القول، أينا أشد جمالاً وجاذبية أنا أم شيوكون ؟"، فأجابه: "شيوكون لايدانيك فى الجمال شيئًا."

الجزء الثانى من الفصل نفسه

ومر يوم آخر، وتصادف أن نزل شيوكون نفسه على الوزير تسوجى، فراح هذا يتفحصه مليًا، غير مصدق أنه يمكن أن يكون أجمل من كل هذا البهاء والحسن الفائق

المجسد فى ذلك الفتن الرائع الأنور المسمى شيوكون، وأخذ يتطلع فى المرآة، وهو يشعر أنه أقل جمالاً من الرجل الآخر، وحل المساء وهو متكئ على فراشه يفكر فى هذا الموضوع، ثم تمدد راقداً وقد اقتنع بأنه أحقر حظًا من الحسن والوسامة، وراح يفكر فى نفسه قائلاً :" كذب من قال بأنى جميل تلك كلمة باطلة . لم تقلها الزوجة إلا مودة، ولا المحظية إلا خوفًا، ولا الضيف إلا نفاقًا."

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وذهب تسوجى إلى الملك فركع عند الأعتاب الملكية، وقال لجلالته: "إن خادمك المطيع ياMولاى يعلم أنه أقل جمالاً من شيوكون، ومع ذلك فقد زعمت الزوجة أنه الأجمل مرضاة له، وكذلك زعمت المحظية خوفًا، والضيف نفاقًا وطمعًا، واليوم أتطلع - أنا خادمك - حولى وأتأمل الأحوال فأجد أننا فى بلد محيطها ألف لى (= حوالى ألف ميل) تشتمل على مائة وعشرين مدينة، وليس بين القصر ولا وزرائه المقربين واحدا لايجامل الملك ترضية لخاطره، وليس بين رجال البلاط فرداً لايخافك يامولاى، وليس فى أركان الدنيا الأربعة التى حولنا مخلوقًا واحداً لاينافق سيد العرش طمعًا ورياء، ومن ثم فما أثقلها من غلالة تحجب عن ناظريك مرأى الحقيقة."، ولم يلبث الملك بعدئذ أن أصدر بيانًا ملكيًا هذا نصه:" (السادة) جمهور الوزراء ورجال الدولة، عموم الموظفين الرئيسيين المواطنين، قررنا (نحن ملك تشى) منح جائزة التفوق الأولى لكل من صرح إلى الملك شخصيًا (حرفيًا : وجهًا لوجه) بما يراه من عيوب وأخطاء، أما جائزة التفوق من الدرجة الثانية فستمنح لكل من كتب إلينا بانتقاداته ونصائحه، وستكون جائزة الجدارة من الدرجة الثالثة والأخيرة لكل من ناقش علنًا فى مراكزالمدن الرئيسية، مثالب الحكم وقدم رؤاه وانتقاداته."

الجزء الرابع من الفصل نفسه

فما أن نشر البيان علنًا حتى أقبلت وفود الوزراء بنصائحهم واقتراحاتهم وقد غصت بهم ردهات القصر وممراته حتى بدت مثل الأسواق التجارية المكتظة بالباعة والجائلين، فلما انقضت بضعة أشهر، كان يتوافد على القصر بين الفينة والفينة بعض أفراد قلائل يقدمون توصياتهم وانتقاداتهم، وبعد عام كامل، كان لايزال هناك البعض ممن يأتون ويحملون فى طيات صدورهم آراء مختلفة لكنها كانت تعليقات لاانتقادات ولانصائح. فلما ترامت تلك الأنباء إلى كلٍّ من دولة جاو، ويان، وهان، ووى ، فقد بادرت جميعها إلى القدوم لدى الأعتاب الملكية لدولة تشى حيث قدمت مواثيق الولاء لجلالة الملك وأذعنت لسلطانه، فكان ذلك إيذانًا لما سمى فيما بعد بـ "الانتصار على العدو من داخل فناء القصر".

لما تقدمت دولة تشين بطلب

تقدمت دولة تشين إلى كل من وى وهان بطلب السماح لها بالمرور عبر أراضيها فى طريقها للهجوم على دولة تشى (وفى تلك الأثناء) اجتمع الملك شيوان حاكم تشى إلى واحد من أعظم القادة العسكريين فى جيشه، القائد "جانزى"، وأمره بقيادة الجيش والاستعداد لملاقاة الهجوم القادم من دولة تشين، (وفى الموقع المحدد للعمليات) كان الجيشان يتخذان مواقعهما على خطوط متقابلة والمراسلات تترى بين البلاد، هذا بينما كان القائد جانزى يجرى تعديلاً على الرايات وملابس القوات ويتسلل بجنوده إلى داخل صفوف قوات تشين (المعادية)، وأسرعت (وحدات) الاستخبارات العسكرية؛ لتبلغ ملك تشى بأن قائده قد تقدم بقواته بين صفوف جيش تشين، فلم ينبس جلالته بكلمة وظل هادئًا دون مكانه لاينفعل ولايرد بشىء ، وظل هكذا حتى بعد أن انهالت عليه التقارير من الجبهة بنفس هذا المعنى، لدرجة أن واحداً من كبار الموظفين الرسميين دخل على الملك ، وسأله مندهشًا: "جاءتنا التقارير

يامولاى، بما يفيد أن جانزى قد خسر المعركة من أولها، وهو النبأ الذى أجمعت عليه كل المصادر،رغم تنوعها واختلاف مواقعها، فلماذا لاتسرع جلالتك بإرسال قوات الاحتياطى تحت إمرة أحد القادة الكبار لضرب جانزى الخائن وقواته العميلة ؟"

وأجاب الملك بكل هدوء وثقة:" ليس هناك خيانة ولا عمالة، ولا داعى لضربه، والموضوع كله يبدو لى مفهومًا تمامًا."

الجزء الثانى من الفصل نفسه

ولم يمضِ وقت طويل، حتى ترددت أنباء عن هزيمة قوات تشين أمام جيش تشى بقيادة "جانزى" وأعقب ذلك حدثًا مدويًا إذ تقدم حاكم تشين باعتذار رسمى إلى دولة تشى عما اقترفته بلاده من أخطاء فى حق جارتها. وراح الأمراء يتوافدون على بلاط تشى، ويهنئون جلالة الملك شيوان ويسألون فى دهشة عما جعل الملك يثق فى ولاء أمير الحرب جانزى بالدرجة التى أوحت إليه - برغم ما شاع أثناء القتال - بعدم خيانته لبلاده وللعرش الحاكم، فأجاب جلالته قائلاً :" كانت السيدة "شيه" أم هذا القائد البطل قد أتت فعلة لم يستطع زوجها والد جانزى أن يغفرها لها، فلم يتمالك إلا قتلها ودفن جثتها فى إحدى الزرائب المهجورة، ولما كبر ابنها جانزى وصار قائدًا مغوارًا وعينته فى منصب أمير الجيوش فقد حاولت أن أحثه على الإقدام والبلاء الحسن فى القتال، ووعدته إذا عاد بالنصر المبين أن أنقل رفات والدته إلى أكرم مدفن يليق بأم واحد من أنبل الأبطال، وأشجع الرجال، فإذا به يرد على قائلاً :"لست يامولاى، عاجزًا عن أن أهيئ لها مقبرة لائقة، لكنها كانت فى حياتها قد ارتكبت ما استحقت عليه عقاب والدى، ثم إنه لم يترك لى وصية إبان وفاته يذكر فيها ما ينبغى عمله إزاء رفات أمى وما إذا كان الواجب أن أنقلها إلى مدفن آخر ولست بالولد الذى يعق أباه حيًا أو يعصاه ميتًا، ولذلك فلن أحاول ما حييت نقل رفاتها إلى مكان آخر."
فهل لمثل هذا أن يعصى سيده الحى (وهو الذى يشق عليه خذلان ولى أمره الميت ؟) .

لما استعدت دولة تشو لمهاجمة تشى

لما أعدت دولة تشو العدة لمهاجمة تشى، وراحت دولة "لو" توطد علاقاتها بدولة تشو، مما أثار قلق تشى، وهنالك ذهب (الوزير) " جانكاى " وقال للملك: "ابعث بى يامولاى إلى دولة "لو" وسأسعى بكل جهدى أن أقنعها باتخاذ سياسة محايدة."وهكذا أوفدته دولة تشى إلى دولة "لو" ، حيث التقى بحاكمها جلالة الملك "كانغ " الذى ابتدره قائلا:" أحقًا أنكم فى تشى قد أصابكم الذعر والهلع لما بلغكم من أنباء ؟"، فأجابه جانكاى:" لا أدرى عن أى شىء تتحدث جلالتكم، لكنى موفد إليكم لمواساتكم." فاستغرب الملك قائلاً:" ولماذا، وفيم تواسينا؟" ، فأجابه : "فيما سيحيق بكم من هلاك، إذ تفشل خطتكم بعد أن تتحالفوا مع المهزوم وتهملوا المنتصر الفائز، دون مبرر معقول." ، فقال له كانغ:" ففى ظنك أى الفريقين غالب: تشو أم لو؟"، فأجابه:" لا أنا ولا الشيطان يستطيع أن يتكهن بذلك." فقال الملك:" فعلام إذن تواسينى على شىء يحدث لاحقًا فى قادم الأيام؟" فقال:" تعلم يامولاى، أن تشو وتشى متكافئتان فى القوة عدة وعتاداً ومن ثم فهما لاتكترثان بتحالفك مع أيهما تحالفت أثناء المعارك فإذا ما توثقت عرى صداقتك مع المنتصر منهما بعد انتهاء القتال فلن تتمكن من أن تحافظ على موقفك الحيادى بطبيعة الحال، فإذا انتصرت تشو فستبقى لديها قوات تتمكن من صد أية محاولة لاحتلالها، برغم ما سيكون قد أصاب تلك القوات من خسائر أثناء العمليات، أما إذا كانت تشى – على العكس من ذلك – هى الظاهرة على عدوتها، فلن تكون بحاجة إلى دعم من أى طرف خارجى، وهكذا فإن ذهابك إليها على رأس جيشك لتهنئتها وعقد التحالف معها سيصبح بمثابة كرم بالغ وفضل عميم من جانبكم." وتأمل الملك هذا الرأى فاستصوبه وقام على رأس قواته بنفسه وكر راجعًا .

لما قامت دولة تشين بمهاجمة وى

لما قامت تشين بمهاجمة وى، قامت الوحدة على الفور بين كلٍّ من هان، وجاو، ووى وعندئذ ذهب " شنجن" (أحد أبرز المناظرين السياسيين فى دولة تشى سابقًا، وهو

وقتئذ موظف كبير ببلاط دولة وى) إلى الجانب الشرقى ، فتوجه إلى دولة تشى والتقى بجلالة الملك "مين "، وقال له:" كان الحكماء والنبلاء فيما مضى، يشنون الغارات، يقودون الحملات بهدف إصلاح شئون الممالك والقيام على شئونها بما يضمن لهم اكتساب الألقاب الشريفة وتحصيل المآثر الطيبة والذكرى الباقية بعدهم يتوارثها الأحفاد عن الأجداد، أما ما يدور اليوم من قتال مرير بين الدول الست: تشى، تشو، يان، جاو، وى، ليانغ، فلايدع مجالاً لتحصيل أى شرف، إذ استهلكت الدول طاقاتها فيما يضعف قوتها ويدعم بالمقابل من نفوذ ومكانة وسيطرة تشين فوق الجميع، ولم تكن هى المصلحة العليا للدول الواقعة شرقى جبل هواشان، ذلك لأن الدولة الوحيدة التى يمكنها تهديد استقرار الدول الشرقية هى بالطبع " تشين الكبرى" ومع ذلك فلم تكلف الدويلات نفسها عناء التفكير فيما تمثله تشين لهم من تهديد، بل انخرطوا جميعًا فى منازعات ومواجهات قتالية أنهكتهم وكانت الخسارة من نصيب الجميع، بينما الفائز الوحيد هو تشين نفسها التى فتحت فمها الواسع لتلتهم الكل دفعة واحدة، فهذا هو ما يدفعنى للقلق على أحوال الدول الست الشرقية، فهاهى ذى الدويلات تزج نفسها بسكين دون أن تنحر تشين لها رقبة، وهاؤم المتسافكون يتقلبون فى إناء يغلى بالمشاحنات ويفور بالنزاعات من دون أن تشعل تشين فى ذلك لهبًا، فيالها من داهية صناع، ويالهم من غفل مناكيد، ليتك يامولاى تعى وتبصر."

الجزء الثانى من الفصل نفسه

وقد قيل قديمًا أن الأباطرة الخمس والملوك الثلاثة، والطغاة الخمس جميعهم قد جيشوا الجيوش وحاربوا الحروب (على تنوع واختلاف طبائعهم ونظمهم وأهدافهم) لكنها كانت حروب ضد الظلم والطغيان، أما الحرب التى تشنها تشين على الدويلات الآن، فهى تسلك طرقًا وتعلن أهدافًا مغايرة تمامًا، وهكذا تهلك (الشعوب) تحت نير الأسر والاحتلال، ويسقط الملوك فى حمأة الهوان، ولئن كانت دموع الأهالى فى وى وهان لم تجف بعد، فقد أعفت الأقدار مواطنى دولة تشى من ملاقاة نفس المصير

لابسبب تقرب تشي ونفورها من وي وهان بل بسبب ابتعاد تشي عن تشين وقرب الأخريين منها، واليوم فها هي ذي تشي توشك على الاقتراب من الدول الكبرى بينما تسعى هذه الأخيرة لغزو بلدتي "جيانغ "، " وآن" التابعتين لدولة وي، فإذا ما تم لها ذلك – إذن – لصارت تمد حدودها بمحاذاة النهر الأصفر، وتسيل مع مجراه جهة الشرق حتى تبسط نفوذها على جانبي النهر وتهدد تشي، فإذا بسطت نفوذها فوق كامل أراضي تشي، وتحقق سلطانها فوق الأرض الفسيحة الممتدة من شاطئ النهر إلى شاطئ البحر الكبير [وتصير تشين،"تسين، أو الصين" تحريفًا، إمبراطورية واسعة الأرجاء] فتظل جنوبيها على ثلاث دول معزولة هي : تشو، هانكو، وي، وترنو شماليها إلى اثنتين متباعدتين هما: يان وجاو، وهو الوضع الذي لن تجد معه تشي مخرجًا من عزلتها المحتومة، وكل ماأرجوه من جلالتكم هو أن تتأملوا الأحوال جيدًا."

الجزء الثالث من الفصل نفسـه

بالنظر إلى الوضع القائم الآن، نجد أن الدول الثلاث: هانكو، جاو، وي، قد اتحدت ثلاثتها فيما يشبه الرباط العائلي الوثيق، وقد جمعت بينها مشاعر الإخاء ومعاني التكافل، وقد اتفقت فيما بينها على إرسال أكفأ القوات المزوّدة بأمضى الأسلحة لحماية منطقتي آن، وجيانغ بدولة وي، وأرى أنه إذا لم تسارع تشي بالانضمام إلى تلك الوحدة الثلاثية، وبإرسال خيرة قواتها لتشارك في المجهود الحربي الجماعي فسوف تتعرض لعواقب وخيمة، ومن المعلوم أن تشين لم تعد تستطيع مهاجمة وي بعد حصول الاتحاد الثلاثي المشار إليه، وهكذا فسوف توجه تهديدها ناحية الجنوب إلى دولة تشو، وعندما يقع القتال بين تشين وتشو ستنظر دول الوحدة إلى موقف تشي السلبي نظرة ملؤها الغيظ والارتياب، ولابد أن ثلاثتهم سيدفعون بقواتهم صوب الشرق لمهاجمتها؛ فلذلك أشرت آنفًا إلى احتمال تعرض تشي لمتاعب جمّة في المستقبل، إذا لم تبادر – وعلى الفور – إلى الانضمام لدول الوحدة الثلاثية والمشاركة بقواتها في التشكيلات القتالية الموّحدة." وبالفعل فقد وافق جلالة ملك تشي على هذا الاقتراح وشارك بقواته تحت قيادة دول الوحدة التي أعلن انضمامه رسميًا إليها.

لما ذهب سوتشين إلى دولة تشين

لما أخذ " سوتشين " على عاتقه دعم ومساعدة انضمام جاو إلى دول المحور الشمالى / الجنوبى، توجه على الفور للقاء الملك " شيوان" - حاكم تشى - لمناظرته ومحاولةإقناعه بهذا الأمر، فلما التقى بالملك، قال له: " فلنتأمل يامولاى، حدود مملكتك، ففى الجنوب تحدّها جبال " تاى "، وفى الشرق جبال "لان شان "، وإلى الشرق يوجد نهر " جى "، وفى الشمال بحر " بوهاى"؛ فالحدود فى الجهات الأربع تتميز بما يطلق عليه " الموانع الدفاعية الطبيعية "، فأما المساحة الإجمالية فيبلغ محيطها ألفى لى، وعدد الجنود لابسى الدروع يزيد على المائة ألف مقاتل، والرصيد الحالى من الحبوب يملأ المخازن والغلال، كما أن العتاد العسكرى من العربات والمركبات [فى أتم استعداد] بحالة ممتازة، بالإضافة إلى ماتحظى به تشى من دعم عسكرى من الدول الخمس، وهو مايجعل انطلاق قواتكم العسكرية [فى حالة نشوب القتال] أمضى من مروق السهم إلى المرمى، فهى فى الكرّ أشد من هدير الرعود، وفى الفرّ أسرع من الريح وأخف من زخات المطر، ولا يفزعها دخول العدو الى أراضيها، لأنه لن يقدر على التمركز مستنداً إلى جبال منيعة وراء ظهره، أو يعبر نهر" جى " بسهولة، أو يتجاوز بحر "بوهاى " [بغير خسائر فادحة فإذا أخذنا فى اعتبارنا أن] مدينة " لين تزى " - العاصمة - يسكنها نحو سبعين ألف أسرة، وقد أجريت تقديراً مبدئيًا بحساب ثلاثة ذكور على الأقل فى كل أسرة، وهو مايعنى أن العاصمة وحدها يمكن أن تهيئ للخدمة العسكرية مائتى وعشرة آلاف مقاتل، بخلاف الحراس والمدافعين عن الأماكن النائية، مع ملاحظة أننا نتحدث عن واحدة من أكثر عواصم الدول ثراء ورفاهية حيث الحياة الرغدة، الهانئة التى تنعم الأسر وسط مظاهر الترف التى ترفل فى ثياب ناعمة، بينما تتهادى فى الأسماع أصوات المعازف، وصدح القيثارة ورنة العيدان، وفى كل ركن تجد الناس موفورة النشاط، تملأ الحياة صخبًا فى الطرقات والأسواق حتى لكأنى إذا حللت المآزر والقمصان من فوق الأبدان استطعت أن أصنع بها خيمة

تحجب نور الشمس فوق الكون كله، أو أصنع منديلاً أجفف به العرق السائل فوق الجباه وأيادى العاملين، لكثرة ما احتشد فى النفوس من طاقة وطموح ولشدة ما عمرت به الحياة من كد وعمل. هذا وقد استقر العرف بين الممالك والدويلات [المجاورة] أنكم بما تتصفون به من حكمة وسؤدد وشرف، أقدر من يُجار به، ويُستند عليه فى المحن والشدائد، فالكل يعيش فى كنف مجدل مستظلاً بفىء عزتك وجلالك، ولهذا أكاد لاأصدق أنكم تفكرون فى الذهاب إلى تشين تعظيمًا لشأنها بين الأمم، وخدمة لمصالحها، ولاأخفى على جلالتكم مدى شعورى بالخزى لو قُدّر لى أن أقف اليوم موقفكم. "

الجزء الثانى من الفصل نفســـه

" واسمح لى يامولاى، أن أوضح لجلالتكم أن سبب خشية هان، و وى من تشين، يرجع إلى أنهما تقعان على حدودها، فتتلاصق جميعها بحكم الجوار، فإذا ماحدث صدام عسكرى مسلحٍ بينهم، فسوف تُحسم احتمالات النصر أو الهزيمة خلال بضعة أيام فإذا تمكنت كلٌ من وى وهان من النصر على تشين، فستكونان كلتاهما قد خسرتا نصف قوتهما الضاربة، بينما تنكشف حدودهما؛ لضعف دفاعاتها حتى إذا عجزتا عن تحقيق النصر فستضطران إلى مواصلة الشوط القتالى إلى آخره وتسقطان مع آخر ضربة سيف فى المعركة؛ فلذلك تترددان فى الاشتباك مع تشين خشية أن ينتهى بها الحال إلى السقوط تحت جحافلها، والخضوع لسطوتها. "

الجزء الثالث من الفصل نفســـه

"أما إذا قامت تشين اليوم بمهاجمة تشى، فالأمر يختلف تمامًا؛ لأنها [تشين يعنى] فستتقدم ووراءها أرض وى وهان، وأمامها منطقة " يانجين " (التابعة لدولة ويه) التى سيتحتم عليها عبورها ؛ كى تمر عبرالمانع الطبيعى المتمثل فى ممر" كانفو "

حيث تسير العربات فرادى فى موكب تتبع إحداها الأخرى، وكذلك تركض الخيول واحداً فى إثر الآخر، لأنه يصعب أن يمر منه فرسان متجاوران، ويصبح أقل عدداً من جنود الحراسة المكلفين بالدفاع عن تلك الموانع الطبيعية يشكل تهديداً هائلاً لأكبر الجماعات المتقدمة من جيش تشين الذى سيقع فى براثن الخوف وتستولى عليه الهواجس فى كل خطوة للأمام، ويصير مثل ذئب مسعور يخشى أن تنقض عليه وى وهان من خلفه، وينظر أمامه عاجزًا عن التقدم؛ وهكذا لايمكن لـ "تشين" أن تهدد تشى بأى حال، وهذا واضح ومفهوم [على النحو الذى بينته] غير أنى لا أستطيع أن أتكهن بدقة حول ماتعجز تشين أن تفعله بنا، وقصارى مايمكن التأكد منه الآن هو القول بأن خطة رجالك القائمة على الذهاب إلى الغرب لتقديم الولاء لدولة تشين، تعد من قبيل الخطأ الفادح، ولئن كانت خطتى المقترحة على جلالتكم تخلو من هذا البريق اللامع الذى يسطع بأنوار التحالف مع تشين، إلا أنها تشتمل على احتمالات مثمرة لتحقيق أهداف البلاد فى الازدهار والقوة والمجد، وكل ما أرجوه من جلالتكم هو توخى الدقة والانتباه عند وضع الخطط السياسية. "

الجزء الرابع من الفصل نفســه

ثم إن الملك شيوان – حاكم تشى – تكلم قائلاً :" ما أشد غفلتى وقلة تبصرى! إننى بعد إذ وعيت نصحك لى اليوم ياسيدى، سأقبل باسمى وباسم شعبى ومملكتى ما ترونه من خطط وتوجيهات."

لما ذهب تشانغى إلى الملك شيوان

ذهب" تشانغى "إلى الملك "شيوان "حاكم تشى، لمناظرته (ومحاولة إقناعه) بشأن تصورات تشين للانضمام إلى المحور الرأسى (الشمالى الجنوبى)، فقال لجلالته: "لايوجد بين الممالك من تطاول تشى عزة ومجداً ومكانة، وليس بين رجال

الدول فى الممالك المختلفة ولا بين المواطنين ولا القبائل كلها أو العشائر، من ينعم بالرخاء والاستقرار مثلما يتمتع وينعم أهل تشى، ومع ذلك يأتى إلى بلاطكم الأفخم من لايفقهون شيئًا فى أمور التخطيط السياسى، ويخبطون خبط عشواء فى مجاهل لايجيدون مسالكها، وبالتالى يعجزون عن تقدير المصالح على نحو سليم، خاصة على المدى البعيد، ولابد أن المخططين الذين اقترحوا فكرة الانضمام إلى المحور الشمالى الجنوبى قد ذكروا - لجلالتكم - (تدعيمًا لوجهة نظرهم) إن الحدود الغربية لبلادكم تقع بمحاذاة الدولة القوية جاو، وفى الجنوب تتماس مع وى وهان، وأنها تستند إلى موانع طبيعية أهمها بحر" بوهاى"، بالإضافة إلى اتساع المساحة ووفرة السكان وشجاعة وكفاءة المقاتلين، وإن مائة دولة فى حجم تشين لاتقدر أن تمسسكم بشىء، هذا وقد أخذتم فى اعتباركم بهذه التصورات وصدقتم عليها دون المراجعة الدقيقة لنتائجها الحتمية وآثارها الفعلية.

الجزء الثانى من الفصل نفسه

"إن الذين يقترحون فكرة الانضمام تحت لواء المحور، يتكتلون حول الاقتناع بإمكانية قيام التحالف المحورى، وقد بلغنى، فيما بلغنى من أنباء الزمان يامولاى، أن القتال قد نشب ثلاث مرات بين دولتى تشى ولو، وكانت هذه الأخيرة هى المنتصرة فى المرات الثلاث، إلا أنها - فى نهاية المطاف - وقعت فى دائرة المخاطر حيث ساءت أحوالها ثم هلكت وبادت تمامًا، وهكذا نجد أنها حصلت من النصر على قناعه الزائف، بينما أخذت من الهزيمة جوهرها الدفين فهل تعرف السبب فى ذلك، يامولاى ؟. السبب أن "تشى" كانت تحوز القوة الفعلية بينما كانت "لو" أضعف منها كثيرًا، فإذا ماقارنا بين جاو وتشين [وجدنا الحال] مثل مابين تشى ولو؛ إذ قامت الحرب بينهما فى موقعة نهر " جانغ " وانتصرت جاو على تشين مرتين، ثم تجدد القتال بينهما مرة أخرى فى موقعة " بوهو" [مدينة بدولة جاو]، وانتصرت جاو على تشين مرتين أيضًا؛ وبعد هذه المواجهات الأربع، كانت حصيلة القتلى من جنود جاو

قد جاوزت عشرات الألوف، وقد احتفظت هذه بالعاصمة هاندان، بشق الأنفس، وبرغم انتصارها البادى على تشين، إلا أنها تخربت وانهارت بصورة مفزعة، فما السبب فى ذلك ياترى؟، السبب بوضوح أن تشين دولة كبرى، قادرة وقوية، بينما جاو أصغر وأضعف [ثم دعك من هذا كله وتعال نتأمل الحال] اليوم حيث تم عقد قران أميرة من آل «تشين» على حاكم تشو؛ وبهذه المصاهرة تصبح الدولتان أختين شقيقتين، [أضف إلى ذلك أن] هان قدمت مدينة " إيانغ" هدية لعرش تشين الكبرى، تقرباً ومودة بينما أهدت إليها دولة وى جزءاً من الأرض الواقعة جنوب النهر الأصفر، أما مواطنى جاو فقد توافدوا إلى مدينة " ميان شى " تحية وإجلالاً لدولة تشين بينما أهدى البلاط الحاكم مساحات من الجزر النهرية إلى حاكم تشين فإذا لم تظهر لدى جلالتكم أية نوايا لتعظيم شأن تشين وإبداء الولاء والطاعة لها، فسوف تلجأ إلى الوسائل الكفيلة بدفع كلٍّ من وى وهان لمهاجمة الحدود الجنوبية لبلادكم وتطلق قوات جاو لعبور نهر " تشينغهاى " بحيث تقتطع من سلطانكم المدن الثلاث: بوكان، لين تسى، جيمو؛ فإذاما قدر لبلدكم أن يسقط تحت هجوم الغزاة، فلن يستطيع حينئذ، حتى لو أراد فى طواعية أن يسعى بأى وسيلة لاستمالة تشين إلى صفه؛ ولذلك فإنى أرجو من جلالتكم أن تأخذوا بعين الاعتبار المراجعة الدقيقة لمجمل هذه الأمـــور. "

الجزء الثالث من الفصل نفسه

قال الملك شيوان: " إن بلادنا، تشى، تقبع فى قطعة نائية من الأرض بمحاذاة البحر الشرقى " دونهاى "، وقد بقيت هكذا دهوراً طويلة، ولم نسمع فى حياتنا عن شىء اسمه خطة سياسية "لتحقيق المصالح على المدى البعيد" ولئن كان من المصادفات السعيدة أن توافينا بما جئت به اليوم من نصح وتدبير- إكراماً لمكانتك ضيفا جليلاً علينا – فإنى أتقدم ببلادى كلها لبلاط تشين الأفخم."، ثم إن الملك أهدى تشين ما مساحته ثلاثمائة لى من أغنى الأراضى بالأملاح والمزارع السمكية. "

سجل تشى الثانى

لما تحالفت دولتا تشى وهان

لما تم التحالف بين تشى وهان، قام " تشانغى " على رأس قوات تشين و وى لغزو هان، وعندئذ قال الملك شيوان، حاكم تشى: " لن أتأخر عن دعم ومساندة هان حليفتنا أمام الهجوم الذى تتعرض له من تشين." وتحدث رئيس الوزراء " تيان شنس" (لقب تيانجى الرسمى) قائلاً: " ليس هذا بالتدبير السديد يامولاى، وكان أجدر بجلالتك أن تترك الأمور تسير وفق مجراها، وقد كان الأمير " تيسيكواى" - أمير دولة يان - (فى بدء الحال) تنازل عن العرش لرئيس وزرائه " تسيجى " ثم إن الناس فوجئوا بهذا الوضع الجديد على غير رضى، وبالتالى فقد تراجعت عن مساندته [وأعرف كذلك] أن الأمراء غير متحمسين لتوثيق العلاقات معه، وهكذا فإذا ماقامت تشين بمهاجمة هان، فسوف تلقى هذه دعمًا من دولتى جاو وتشو، وهو مايعنى أن دولة يان ستسقط فى أيدينا ثمرة يانعة (هدية من السماء) دانية القطف. "، وهنالك وافقه الملك شيوان على رأيه وراح يتظاهر أمام مبعوث دولة هان باستعداده للقيام بالمساندة المطلوبة ، ثم ودعه عائدًا إلى بلاده.

الجزء الثانى من الفصل نفسه

أخذت دولة هان فى حسبانها جدية مابينها وبين دولة تشى من علاقات دبلوماسية، واطمأنت إلى هذا الاعتبار، ودخلت فى سجال قتالى مع دولة تشين، فأسرعت تشو وجاو إلى تقديم العون لها، أما دولة تشى فقد انتهزت فرصة القتال

الدائر بين تشين وهان وقامت بمهاجمة دولة يان، فما انقضى شهر واحد حتى كانت قد استولت عليها بالكامل.

لما مات جلالة الملك هوى حاكم تشين

مات جلالة الملك هوى حاكم تشين، فخلفه على العرش الملك " أو " [كما تنطق فى المسئولية] وكان تشانغى مستشارًا ورئيسًا لوزراء الملك الراحل، وظل يعمل فى منصبه إبان ولاية الملك الجديد، وكان كبار الوزراء والمقربين إلى العرش يبغضون تشانغى فراحوا يوغرون عليه صدر الملك " أو" بزعم أنه لم يكن جديرًا بثقة الملك الراحل فيه لخيانته وغدره، فمازالوا يحثون الملك على عزله حتى جاءت إلى القصر رسالة من حاكم تشى يعترض فيها على بقاء تشانغى فى منصبه ، وينتقد الملك الجديد لتقاعسه عن اتخاذ الإجراء اللازم.

الجزء الثانى من الفصل نفسه

فلما بلغت تلك الأنباء مسمع تشانغى ذهب إلى الملك " أو " وقال له: " قد هدانى تفكيرى إلى خطة متواضعة يامولاى، أرجو أن تتكرم علىَّ بمناقشتها معى" ، فلما أجابه الملك إلى ما أراد، قال له تشانغى:" لما كان من المتوقع أن تحدث تغيرات هائلة فى الأحوال العامة للدول الست الشرقية، فقد فكرت فى أن المصلحة العليا للبلاد تقتضى انتهاز فرصة حدوث تلك التغيرات لاقتطاع المزيد من الأراضى وضمها تحت (السيادة الوطنية) لبلدنا، وبما أن الملك "مين " حاكم دولة تشى يبغضنى ويناصبنى العداء، فلن يتورع عن أن يلاحقنى أينما حللت، ولن يتوانَ عن أن يصوب نيران حربه على البلد الذى أقطن به، لذلك فإنى أفكر فى الذهاب إلى دولة وى بصفتى وزيرًا سابقًا بغير سلطات، مما سيدفع تشى إلى الهجوم على وى وإعلان الحرب عليها، فإذا ما احتدم القتال بين البلدين ووصل إلى مشارف العاصمة " داليان "، أصبح السجال

ضرورة حتمية بدرجة تفرض على الطرفين المتصارعين الاستمرار فى نزيف الدم المتبادل، وعندئذ تسنح الفرصة أمامكم للهجوم على هان، والاستيلاء على منطقة "سانشوان " ثم الخروج من مضيق " هان" بغير التورط فى أية عمليات قتالية، فإذا ما تم ذلك وأصبح الجيش على مقربة من عاصمة دولة جو الشرقية أمكن الاستيلاء على ودائع القربان المقدس التى تخص أمير الدولة المذكورة على أن يتم تقييد الأمير نفسه تحت الأمر؛ تمهيداً للاستيلاء على الخريطة الرسمية وسجلات قيد السكان والخزانة المالية والودائع لتصبح جميعًا تحت تصرف جلالتكم، وهو ما يعنى إرساء القاعدة الأساسية للهيمنة الإمبراطورية الكبرى."

وعندئذ وافق الملك على هذه الخطة فوراً، وأمر بإعداد القوات وتوفير العدة والعتاد اللازمين (لحملة عسكرية هائلة)، كما أصدر مرسومًا يقضى بإرسال تشانغى إلى دولة وى.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

وبالفعل فقد بادرت دولة تشى بالهجوم على وى، فلما استولى الذعر على الملك شيانغ حاكم الدولة المعتدى عليها راح تشانغى يقول له:" على رسلك يامولاى، ودع لى هذا الأمر وأنا كفيل بأن أدوخ جيش تشى وأرغمه على الانسحاب "، ومن ثم فقد قام تشانغى بإيفاد أحد أقاربه المدعو" فنشى" إلى دولة تشو حيث استخدم أحد الأعوان من أبناء تلك الدولة للذهاب إلى تشى بصفته رسولاً قادمًا من تشو، وبالفعل فقد أنجز الرسول مهمته وقبيل مغادرته البلاد انتهز فرصة لقائه بحاكم تشى ليقول له:" بالرغم من كراهيتك الشديدة لـ "تشانغى" إلا أنك تركت مسألة تعذيبه وعقابه تحت تصرف حاكم تشين، الذى بالغ، على عكس ما نظن جميعًا فى إكرامه ومساندته."، فرد الملك قائلاً :" لاشك أنى أبغض ذلك المدعو تشانغى بغضًا لايتصوره أحد، لدرجة أنى على استعداد لمهاجمة البلد الذى يأويه، لكن بأى سند يزعمون أنى أوكلت أمره إلى ملك تشين ؟"، فأجابه رسول تشو قائلاً:" أنا الذى زعمت ذلك يامولاى، لأن تشانغى كان

قبيل مغادرته تشين قد التقى بملك البلاد واتفق مع جلالته على تنفيذ خطة سرية تقوم على استغلال التغيرات التى تمر بها الدول الست الشرقية، بحيث ينتهز ملك تشين الفرصة للاستيلاء على أجزاء من أراضيها، واستأذن تشانغى فى الذهاب إلى وى بصفته وزيراً مهاجراً بغير مناصب رسمية، وهو يعلم تمام العلم أنكم ستضربون وى التى اختارها من دون البلاد جميعًا ليقيم فيها، وقال ما معناه أن كراهيتكم له لن تمنعكم من ضرب البلد الذى سيحل به أيما كان، ومن ثم وعندما ينشب القتال بين تشين ووى ينتهز ملك تشين الفرصة ويهاجم هان ويستولى على منطقة "سانشوان" ويعبر مضيق هان بغير قتال، ثم يستولى على الأوانى المقدسة عند مشارف دولة جو الشرقية، ويقوم بأسر الأمير ويستولى على الخرائط الرسمية وسجلات السكان ودفاتر الودائع والخزانة العامة، باعتبار ذلك كله نواة (لتحقيق مشروع) الإمبراطورية، وهو ما اقتنع به ملك تشين تماماً، فأوفد تشانغى إلى وى على رأس سفارة عسكرية هائلة، وهأنتم قد بادرتم إلى الهجوم، وهو ما يعنى استهلاك القوة الذاتية وإنهاك النفس إلى الحد الأقصى - داخل الحدود - لأجل تأمين هجوم خارجى على دول متحالفة مما سيؤدى إلى زيادة رقعة العدو المجاور للحدود، ويرهن مصير البلاد تحت أقدار الغزو المدمر وهو ما يدعم ثقة ملك تشين فى تشانغى أكثر من ذى قبل، فذلك هو مغزى قولى لجلالتكم من أنكم أوكلتم أمر تشانغى إلى ملك تشين حيث سيغدق عليه من كرمه البالغ." وهنالك أصدر ملك تشين أمراً بالعدول عن مهاجمة وى.

لما تحركت قوات وى للاشتباك مع تشى

لما وضعت قوات وى تحت قيادة كونسونيان وتحركت للاشتباك مع جيش دولة تشى فى موقعة " تشين كوانغ " (بلدة كانت تتبع سونغ ثم انضمت إلى وى) فإنها لم تحرز النصر المأمول وعندئذ ذهب تشانغى إلى الملك شيانغ حاكم وى وحذره من مغبة تعريض البلاد للخطر إن هو لم يأخذ برأيه ويعتمد خطته لإنقاذ الموقف، وهنالك أصدر أمراً بتعيينه رئيساً للوزراء، واستطاع تشانغى فى ظل منصبه الجديد أن يعقد

تحالفا وديًا باسم كلٍّ من وى وتشين مع دولة تشى، إلا أن الوزير الأعظم كونسيان وقف بكل قوته ضد هذه الخطة، وسارع إلى القائم على عرش دولة "ويه " ليقول لجلالته [من بين أشياء كثيرة] :" ... ليست عندى أى حساسيات أو ضغائن ضد تشانغى، سوى اختلاف وجهات نظرنا حول بعض السياسات الإصلاحية الداخلية،فكلانا يتمسك بطريقته الخاصة فى إدارة هذه السياسات،وكل ماأرجوه من جلالتكم أن توضحوا له موقفى هذا."

ولم يتوانَ الوصى على عرش " ويه " أن ينقل هذا التفسير إلى تشانغى مقرنًا بالنصح لتفهم الموقف، وبالفعل فقد وعد تشانغى بالاستجابة الودية للوساطة الكريمة، وحضر الرجال الثلاثة إلى بلاط " ويه " ومثلوا بين يدى الملك الجديد، فسارع كونسيان إلى الركوع أمام جلالته معلنًا قبوله للود والتآخى مع تشانغى ودعواته له بطول البقاء، فلما تجهز تشانغى للمغادرة صباح اليوم التالى، اصطحبه كونسيان مودعًا حتى منطقة الحدود الملاصقة لدولة تشى، فلما وصلت الأنباء بذلك إلى مسامع ملك تشى، احتد هياجه واشتد غضبه على تشانغى وأخذ يهدر ثائرًا:" إذا كان تشانغى يمشى هكذا متأبطًا ذراع كونسيان – ألد أعدائى – فلابد أنهم جميعًا يتآمرون ضد بلادى فى الخفاء ويضمرون السوء لنا"، وبعدها فقد تلاشت من أفكار ملك تشى آخر احتمالات الثقة فى أقوال وأفعال تشانغى.

لما تحركت دولة تشو تحت قيادة جاويان

ذهب "جاويان " (قائد قوات تشو) على رأس قوات دولة تشو لمهاجمة "ويه"، فنشب القتال بين الجيشين، واستطاعت قوات تشو أن تهزم جيش "ويه" وتقتل قائدها وتستولى على مدن كبرى من أراضيها، بل أخذت الفرق تتهيأ لضرب دولة تشى. فأوفدت هذه مبعوثها " شنجن" إلى تشو، حيث التقى بالقائد المظفر قائلاً:" قل لى ياسيدى – من فضلك – ما الدرجة الوظيفية والرتبة الاجتماعية اللتان يحصل عليهما

القائد الذى انتصر على القوات المعادية، وكبدها خسائر فادحة وقتل قائدها الأعظم ؟"، فأجابه جاويان قائلاً:" أما المنصب الذى يترقى إليه فهو (ركن الدولة الأعظم) ، وأما الرتبة الفخرية فهى " شان جيكوى" (حائز الوسام الأثمن)." وعاد شنجن يسأله:" فما هو أرقى منصب وأرفع رتبة فخرية ؟"، فأجابه:" إنه منصب ودرجة "القائد الأعلى"، فرد عليه شنجن قائلاً:" من المعلوم أن منصب " القائد الأعلى " هو أرفع المناصب والدرجات الفخرية، لكنى لا أظن أن جلالة ملك تشو يوافق على أن يمنحه لرجلين اثنين فى وقت واحد، واسمح لى أن أضرب لك مثلاً فى هذا، ذلك أننا لو تصورنا أن أحد المتقدمين بالقرابين المقدسة قد أهدى أحد أقربائه كأسًا من خمر فرغب باقى الأقارب فى الشرب من الكأس نفسها، فتجادلوا وتخاصموا فاقترحوا أن تكون الكأس لواحد منهم فقط على أن يتمكن الفائز من أن يرسم على الأرض تنينًا تام الهيئة، كامل المنظر فوفى أحدهم بما طلبوا، وما كاد يرفع الكأس إلى فمه بيده اليسرى حتى مد يده اليمنى قائلاً إنه يستطيع أن يضيف إلى جسد التنين المرسوم قدمين كاملتين، فلما هم برسم القدمين ، كان قريبه الآخر قد انتهى من رسم صورة تنين ثانية، واختطف الكأس من يده يريد أن يتجرعها وهو يقول لصاحبه إن التنين أصلاً حيوان زاحف بغير قدمين، فمن ذا يتصور أن يرسم له أقدام يسعى بهما." وصب الكأس فى فمه فأفرغها كلها فى جوفه، فكان الرجل الذى أجهد نفسه بإضافة القدمين إلى صورة التنين قد خسر الكأس والشراب جميعًا، ومغزى هذا المثل أنك وقد لاقيت العناء كله إلى جوار الملك لمساندته على ضرب دولة" ويه"، حتى حققت له ما تمناه وأجهزت له على القوات المعادية وقائدها فى وقت واحد ثم اقتطعت له من أرض أعدائه ثمانى مدن كبرى بأقل تضحيات وأدنى خسائر، بل تجهزت للإغارة على دولة تشى فأوقعت الرعب فى قلوب أهلها فأصبت من جراء ذلك كله شهرة ومجداً لامزيد عليهما،حتى صرت جديراً بما هو أرفع من رتبة" القائد الأعلى "، ولما كان هذا اللقب لايحوزه اثنان فى وقت واحد (الملك وأحد رعاياه) فقد اخترت لنفسك أن تكون واحداً من أولئك القادة الذين لايوقف زحفهم هزيمة ولايعوق تقدمهم عائق، فهم أكبر من

النصر وأعلى من الأقدار، بحيث يتحتم أن يمنعوا أنفسهم من مزاحمة المجد بأيديهم، ولذلك فهم ينتحرون فى آخر المطاف، بينما يفوز بالأوسمة والألقاب الفخرية آخرون غيرهم، فهذا أشبه ما يكون بإضافة قدمين زائدتين لجسد التنين المرسوم فى الأمثولة السابق ذكرها."، ولم يجد جاويان ما يقوله، فسكت اقتناعًا بما سمع وأصدر أوامره بالعدول عن الزحف والعودة فى أسرع وقت ممكن.

لما قامت دولة تشين بمهاجمة جاو

قامت دولة تشين بمهاجمة جاو، فقامت هذه بإيفاد رئيس وزرائها " لوهوان" إلى دولة تشين يعرض عليها قبول هدية عبارة عن ثمانى مدن كبرى لتسوية النزاعات وإقرار السلام وتمهيداً للتحالف مع تشين لمهاجمة تشى، فلما وصلت هذه الأنباء إلى مسامع ملك تشى أصابه الفزع، وأرسل بدوره إلى تشين يعرض عليه قبول هدية مماثلة من جانبه تعبيراً عن الصداقة وطلبًا للمصالحة والسلام، وهنالك استولى الرعب على قلب " لوهوان" وقرر أن يهدى إلى تشين أربعًا وعشرين محافظة من ولاية " شواندانغ " وأوفد جاوتسو (أحد مواطنى جاو المناصرين للمصالحة مع تشى) إلى دولة تشى ليقول لحاكمها:" إذا كنت تفكر فى تسوية نزاعاتك مع دولتى تشين وجاو ، فالأفضل فى كل الأحوال التحالف مع جاو للانضمام إلى محور الحلف الشمالى الجنوبى ، وهو ما سيدفع جاو إلى نقض تعهداتها لدولة تشين، فإذا ما تحقق ذلك، زالت على الفور كل مخاوف دولة تشى، وحل محلها الهدوء والطمأنينة."

لما نشب القتال فى منطقة تشواندى

لما نشب القتال فى منطقة "تشوانداى " بين دولتى تشى، وجاو ، قامت دولة تشين بإيفاد رئيس وزرائها " رانخو" إلى جاو لحثها على دفع بعض قواتها إلى دولة

" يان " للمساعدة في مجهود الإغارة على تشي. وفي تلك الأثناء، كان شوكون رئيس وزراء هذه الأخيرة، قد أوفد الوزير الأعظم "ويتشو" إلى جاو، حيث التقى بالوزير الأعظم هناك (اسمه ليدوى)، وقال له:" إذا قمت بمساندة دولة "يان" فى ضرب تشي، فستعرض هذه الأخيرة لأعظم خطر، مما سيدفعها إلى السعى بكل وسيلة للمصالحة مع يان ولو كلَّفها ذلك التنازل عن بعض أراضيها، ثم تستدير لتواجهكم بحربها وهو الأمر الذى سيصل بكم فى آخر المطاف أن تقوم قواتكم بالحرب نيابة عن دولة "يان" فى قتالها الدائر جهة الشرق، فتقوم باحتلال الأراضى كى تسلمها إلى دولة "يان "، وهكذا فلا أرى مصلحة حقيقية لكم فى الأمر كله، والأفضل حقًّا ، هو أن تجمدوا تحركات قواتكم تمامًا في مثل هذه الظروف. ولابد أن التوتر السائد فى أوضاع دولة تشي سيخف لفترة وبعد أن ينخفض التوتر قليلاً تتجدد المعارك مع دولة "يان" فإذا ما انتصرت هذه الأخيرة، فستكون قواتها قد بلغت حداً من الإنهاك يسمح لدولة جاو بانتهاز الفرصة للاستيلاء على منطقتى "تاندى "، "وتشونى" (منطقتان تابعتان لدولة "جونشان") أما إذا لم يكن النصر حليفها ، فستصبح أقدارها معلقة بيد دولة جاو، وهكذا وعلى ضوء هذه الأحوال فالموقف الأمثل بالنسبة لكم هو أن تلتزموا بالحياد الصارم الذى سيمكنكم من الاستفادة بأقصى حد من دولة تشى فى ظل محنتها العثرة، والاستفادة أيضًا من دولة "يان" تحت ضغط الإنهاك الذى يهدد أوصال قواتها، وذلك باقتطاع أجزاء مهمة من أراضيهما، وباستلاب سلطاتهما السيادية والهيمنة من ثم على قراراتهما المصيرية.

لما قامت دولة تشين بالهجوم

لما قامت دولة تشين بالهجوم على منطقة "شاندانغ" التابعة لدولة جاو، فقد هبت كلٌّ من تشى وتشو لنجدتها، وراح ملك تشين يدبر فى ذهنه خطة مناسبة لمواجهة هذا الموقف وهو يقول:

" من الواضح تمامًا أن تشى وتشو تبذلان جهدهما لتقديم المساندة لدولة جاو، فإذا ما ظهر أن العلاقات بين ثلاثتهم تزداد عمقًا واقترابًا مع تطور الحوادث، فسأبادر إلى سحب القوات المهاجمة، أما إذا لم تكن العلاقات على النحو الذى أتصوره، فلن أتوانى عن ضرب "تشانغ بين " والاستيلاء عليها".

الجزء الثانى من الفصل نفسه

لما نقصت كميات الطعام المخصصة لتموين قوات دولة جاو، فقد تقدمت السلطات إلى دولة تشى بطلب إعارتها كميات زائدة من الحبوب، إلا أن هذه لم تستجب إلى طلب جارتها، وعندئذ ذهب "جوتسى" - أحد خبراء التخطيط السياسى بدولة تشى- إلى جلالة الملك، وقال له:" أرى من الأفضل - يامولاى - الاستجابة إلى طلبهم وإعارتهم الكميات المطلوبة من الحبوب لعل فى هذا ما يساعد على التصدى لهجوم تشين وإلا داهمتنا بقواتها كأسراب الجراد، وهو ما تسعى خطط دولة تشين لتحقيقه، بينما تغفله وتتشاغل عنه خطط كلٍّ من "يان" و"تشى"، ناهيك عن أن دولة جاو هذه (بموقعها ودورها) تمثل السور الحديدى أو الحاجز الواقى الذى يدرأ الخطر عن "يان" و"تشى" تمامًا، كما تحمى الشفة الخارجية مجموعة الأسنان داخل الفم، فإذا انفرجت الشفتان، تسربت إلى الفم كل ألوان المخاطر، فكذلك إذا زالت دولة جاو من الوجود، فسيأتى الدور غداً على تشى وتشو لتقتلعهما من جذورهما حوادث الأيام أضف إلى هذا كله أن تقديم المساعدة إلى جاو يجب أن يكون (محوطًا ببالغ الحذر والدقة والحساسية فكأنه) بمثابة المشى فى طريق وعر بيدين مرفوعتين تحملان إناء ثقيلاً مملوءًا بالماء ولكنه مثقوب، أوبمثابة سكب الماء البارد داخل إناء خارج لتوه من فرن التجفيف، ثم إن مساندة دولة جاو (وسط هذه الظروف) يعد إظهاراً للعزم الأصيل والإرادة الشجاعة وتقديراً لمعنى التآخى وقوة المساندة بوصفها عناصر دافعة تدعم الانتصارعلى تشين، وهكذا ، فالمطلوب حقًّا هو إظهار قوة الإرادة الشجاعة بمساندة جاو، وإبراز عناصر القوة الدافعة للانتصار على تشين بدلاً من الانكفاء على سياسة قاصرة وخاطئة تكتفى بمنع توريد الحبوب ".

لما ذهب أحد المسئولين إلى ملك تشى

ذهب أحد المسئولين إلى ملك تشى، وقال له: "إذا تأملنا الخرائط ألفينا دولة تشين الكبرى تقع إلى الغرب من دولتى جو، وهان بينما إلى الشرق من تلكم الدولتين تقع كلٌ من جاو، ووى، فإذا ما قامت دولة تشين بمهاجمة الجانب الغربى لـ "جو" وهان فستبقى وى وجاو فى مأمن من الهجوم بينما يمكن لتشين أن تستولى على مساحات من أرض جو وهان، حتى إذا انسحبت هان من خطوط المواجهة فسينصب الخطر الأكبر على جو فإذا ما تحقق انسحاب هان وفقدت جو مساحات من أراضيها. أصبح خطر زحف تشين على وى وجاو وشيكًا وصار التهديد بالهجوم أمرًا محتومًا، ولنتصور أن تشين وتشى قامتا بمهاجمة وى وجاو، فالأمر إذ ذاك لن يختلف كثيرًا عما حدث إبان قيام تشين بالإغارة على جو وهان، ثم إذا اقتحمت دولة تشى الخط الحدودى لدولة تشين وهاجمت كلاً من جاو، وى، واجتاحتهما تمامًا حتى خسفت بهما الأرض وأزالتهما من الوجود، فسوف تلتفت إليها أنظار تشين التى ستتجه على الفور لمهاجمتهما، وعندئذ يثور السؤال الحاسم، كيف يمكن لدولة تشى، وسط تلك الظروف، أن تحصل على دعم ومساندة الدويلات والممالك المتناثرة فى بقاع الأرض المختلفة ؟"

سجل تشى الثالث

لما مات ملك تشو بعيدًا عن أرض الوطن

لما مات الملك "هوى" حاكم تشو، أثناء نزوله ضيفًا على دولة تشين، وكان ولده الأمير "هنغ" مقيمًا فى دولة تشى رهينة لضمان السلام الدائم بين البلدين، حدث أن ذهب سوتشين إلى شوكون، وقال له:" لاأدرى ما الذى يمنعك من احتجاز وتحديد إقامة أمير دولة تشوالمقيم بأرضكم وذلك بهدف المساومة على الجانب الشرقى من تشو والملاصق لحدود تشى ؟"، فأجابه:" ليس هذا برأى سديد، لأنى لواحتجزت الأمير، فلن تتوانى إينغ – عاصمة تشو – عن تنصيب أحد أمرائها ملكًا على البلاد، وبذلك نكون قد احتجزنا الأمير بلا طائل، وظهرنا أمام الدويلات والممالك بمظهر الجائرين الغاشمين " ، فقال سوتشين :" ليس الأمر هكذا، لأنه لو تم تنصيب أحد الأمراء ملكًا فى تشو – حسب تصورك – فيمكنك أن تنتهز الفرصة لتطالب الحاكم الجديد بالتنازل عن أجزاء من الأراضى الواقعة على الحدود شرق البلاد بين تشو وتشى، على أن تقوم من جانبك بالتخلص من الأمير (الرهينة) المقيم عندكم فى تشى، فإذا لم يقبل منك هذه المساومة، فلك أن تهدده بإمكانية لجوئك إلى الاتفاق مع الدول الثلاث: هانكو، وى، تشين على تنصيب الأمير (الرهينة) ملكًا لدولة تشو، بإجماع الأطراف على ذلك، ولاشك أنك ستجد تلك المنطقة الحدودية من أرض تشو قد آلت لسيادتكم بكل سهولة".

الجزء الثانى من الفصل نفسه

كانت خطة سوتشين فى التحفظ على أمير دولة تشو(الأمير الرهينة) تقبل العديد من الاحتمالات، أولها المطالبة بتقيذها بادئ ذى بدء أو مطالبة ملك تشو الجديد بسرعة تسليم دولة تشى مساحات من الأراضى الواقعة إلى الشرق بمحاذاة المنطقة الحدودية مع تشى، بالإضافة إلى احتمال المطالبة بمساحات أكبر (كلما لاحت بوادر الموافقة المبدئية من جانب تشو)، وكذلك احتمال ممارسة الضغوط على تشو للتنازل عن الأراضى دون المساس بكرامة الأمير الرهينة بل مع الإبقاء على المستوى الكريم واللائق فى التعامل معه، هذا مع احتمال طرد الأمير الرهينة من تشى وإعادته إلى بلاده، حيث يجد نفسه وجهًا لوجه مع الملك الجديد، وكذلك احتمال إكرام الأمير الرهينة، بل المبالغة فى إكرامه على نحو يدفعه هو نفسه للإسراع فى العودة إلى وطنه بل المحتمل أيضًا إفساد العلاقة بين سوتشين وشوكون، مثلما يمكن التقدم إلى تشو (باسم سوتشين) بالتفضل والتكرم عليه بمنحه إقطاعًا يليق بمكانته، ويبقى من الممكن أيضًا إيفاد وسيط إلى شوكون لإقناعه وحثه على تعميق عرى الود والصداقة بينه وبين سوتشين نفسه إلى تصفية الأجواء وتنقية ما شاب علاقته مع شوكون من سوء فهم ".

الجزء الثالث من الفصل نفسه

(ثم التقى) سوتشين بشوكون، وقال له:" بلغنى فيما يضرب الناس من أمثال أنه لافلاح لمن أفشى الأسرار، ولانجاح لمن تقاعس عن تنفيذ خططه بعد إمعان التدبير والتروى، إذا كان هدفك من التحفظ على أمير تشو هو مساومة بلاده على التنازل عن منطقة الأراضى الواقعة عند الحدود الشرقية، فكيف تقعد عن إتمام هذا المسعى ولشد ما أخشى أن تبدل تشو خططها: إذ إنك – لوحدث هذا – لن يجديك مما تخطط شيئًا سوى الخسران والظهور أمام الدويلات بمظهر الرجل المتجبر غليظ القلب الذى ينتهك المواثيق والعهود ولايراعى حقوق الرهائن المقيمين ببلاده."

ورد عليه شوكون قائلاً :" قل لى – إذن – كيف أعالج هذا الأمر الآن ؟" ، فأجابه:" كل ما أرجوه منك أن تفوضنى بالذهاب إلى تشو وللتحدث هناك بموجب هذا التفويض، نيابة عنك، حيث أطلب من ملك تشو سرعة تسليمك الأراضى الواقعة عند الحدود الشرقية والمتاخمة لحدودكم، فإذا ما استطعت تسوية هذه المسألة معهم (فى تشو) فسوف يثبت مقامك ويتحصن جانبك " وهنا وافقه شوكون على رأيه وأنفذه إلى تشو بغير إبطاء، فذلك هو مايشار إليه بأن الخطة المذكورة آنفًا تنطوى على احتمال المطالبة الجادة بسرعة تنفيذها.

الجزء الرابع من الفصل نفسه

قال سوتشين لحاكم تشو:" إن دولة تشى تسعى جديًا فى التعاون مع سمو الأمير الرهينة، بل تبذل جهدا لتنصيبه ملكًا، وقد أدركت جدية هذه المساعى مما لمسته من إصرار شوكون على بقاء سمو الأمير الغائب لدى بلاده، ويبدو أنه يريد بذلك أن يساوم جلالتك للتنازل عن الأراضى المتاخمة لدولة تشى عند حدودكم الشرقية، وفى حال رفض جلالتكم لهذه التسوية، فإن سمو الأمير المقيم فى تشى سيسارع إلى التنازل عن مزيد من الأراضى للعرش الحاكم، هناك رغبة منه فى استمالة تشى إلى جانبه وحثها على مساندته." وعندئذ أجابه ملك تشو قائلاً :" إنه ليشرفنى أن أوافق على توصياتكم الجليلة فى هذا الشأن. وهكذا فقد تم التنازل عن المناطق الواقعة شرق دولة تشو المطلوبة لدولة تشى. فذلك هو المقصود بالاحتمال المشار إليه فى الخطة المذكورة من دفع دولة تشو للإسراع بتسليم الأراضى المطلوبة.

الجزء الخامس من الفصل نفسه

قال سوتشين لـ "شوكون":" إن الأوضاع التى اطلعت عليها فى تشو تسمح باقتطاع المزيد من الأراضى منها "، فلما سأله شوكون عن كيفية تحقيق ذلك،

أجابه :" يمكنك أن تبلغ الأمير المقيم لديك عن السبب الذى دفع تشو إلى سرعة التنازل عن أراضيها الشرقية لكم ، واطلب منه تحديد مقابلة عاجلة لتعرب أثناءها عن تعظيم تقديركم وإخلاصكم لسموه، فإذا بلغ هذا الخبر مسامع ملك تشو، فسينشأ لديه استعداد للتنازل لكم عن مزيد من الأراضى." فذلك هو المغزى فى الاحتمال الوارد بالخطة الأصلية، ومفاده أنه من الممكن الحصول على مزيد من أراضى دولة تشو.

الجزء السادس من الفصل نفسه

قال سوتشين للأمير:" إن دولة تشى ترى من دواعى حرصها على التعاون معك أن تقوم بتنصيبك ملكًا على عرش تشو، وخلع الملك الآخر القائم الآن على العرش الذى تنازل طواعية لدولة تشى عن أراضى الحدود الشرقية سعيًا لاكتساب ثقة المسئولين فى تشى وحثهم على استبقائك أطول فترة ممكنة، ولاأدرى ما الذى يمنعك من أن تتبرع أنت لدولة تشى بمساحات مضاعفة من الأراضى، فتحظى أنت دون الرجل الآخر بالرضا والمساندة ؟"، وبالفعل فقد سارع سمو الأمير إلى التبرع بمساحات مضاعفة (عما قدمته تشو) من الأراضى لدولة تشين أملاً فى أن تعدل هذه عن الانسياق وراء مطلب تشو باستبقائه وتقييد حرياته، لكن ملك تشو أصابه الفزع الشديد عندما علم بأمر هذا التنازل من جانب الأمير، وبالتالى فقد عرض التنازل عن مزيد من الأراضى لدولة تشى، خشية أن تتراخى قبضتها أو تتراخى قيودها المضروبة حول الأمير الرهينة، لذلك فقد ورد ضمن الاحتمالات الممكنة فى الخطة سالفة الذكر أنه من الممكن دفع حاكم تشو إلى التنازل عن المزيد من الأراضى.

الجزء السابع من الفصل نفسه

ثم إن سوتشين قابل حاكم تشو، وقال له:" إن السبب الأساسى فى أن دولة تشى تستطيع أن تقطتع (من بلادكم) المزيد من الأراضى يرجع إلى ما تملكه من سلطة تقييد واستبقاء الأمير الرهينة على أرضها، وبالطبع فإن مطالبها لن تقتصر على أراضى الحدود الشرقية، وستظل تستغل بقاء الأمير عندها وإمكانية تنصيبه ملكًا وسيلة للضغط والتهديد، وإنى لقادر على تسهيل خروج الأمير من دولة تشى، مما يفوت الفرصة على كل من يريد أن يستخدمه على هذا النحو المشار إليه، وينزع من يد تشى الأداة التى تهددكم بها وتمكنها من الغدر بكم، وأرى أن تبادر جلالتكم فورًا إلى التحالف وعقد أواصر الصداقة مع تشى، وهو الأمر الذى سيفرض عليها فتح أبواب الحوار معك والإصغاء إليك، وهكذا تزول الشحناء بينكما ويحل الود وتتوطد عرى الصداقة والإخاء، وهنالك تهلل ملك تشو فرحًا ، وأجاب:" اسمح لى ياسيدى أن أعرب لك باسمى، وباسم بلادى عن عظيم سعادتى واستعدادى للأخذ بنصحك ومشورتك."، لذلك، فقد ورد فى الخطة احتمال التعاون مع ملك تشو فى إعادة الأمير الرهينة من تشى إلى بلاده.

الجزء الثامن من الفصل نفسه

قال سوتشين لأمير دولة تشوالمقيم بصفته رهينة سلام فى تشى:" إن ملك تشو هو المسيطر الفعلى على الأوضاع فى البلاد الآن، أما سموك فلا يزيد دورك عن مجرد القيام بحلقة اتصال واهية وشكلية (بين تشى ومصالحها فى تشو) وهو ما يفقدك المصداقية لدى تشى ويعزز – بالمقابل – من فعالية وإيجابية ماهو ملموس وعملى فيما تؤديه تشو، فإذا ما قام التحالف بين البلدين فسيتهددك الخطر من كل ناحية ، فلابد أن تراجع موقفك، وتحدد قرارك"، وعندئذ أجابه الأمير قائلاً :" قل لى، أسمع منك فأنا على ما تشير به."، ثم إنه جهز عربة فاخرة وخرج وسط الليل متسللاً حتى غادر تشى فهذا هو ما أشارت إليه تصورات الخطة الأساسية من احتمال دفع الأمير الرهينة إلى سرعة الخروج من تشى.

الجزء التاسع من الفصل نفسه

أوفد سوتشين إلى شوكون من تخابث عليه قائلاً لئن كان سوتشين هو الذى نصح لك باحتجاز أمير تشو وتحديد إقامته، فقد أخذت النصح من لئيم وصدقت ما أشار عليك به أسوأ الناس بك ظناً وأخبثهم لك طوية، فقد كان يهدف بكل ما قاله أو فعله إلى شيء واحد فقط، ألا وهو مصلحة تشو وما يعود عليها وحدها بالنفع، ولما كان يخشى أن يفتضح لديك سره، فقد اتخذ من مطالبة تشو بالتنازل عن المزيد من الأراضى ستاراً يدارى به خباياه الدفينة، وقد كان هو الذى أوعز خفية إلى أمير تشو بالتسلل هارباً تحت جنح الليل من تشى، وهو ما لم تكن تفطن إليه أو يخطر لك على بال، فإنما قد جئت إليك لأكشف لك عما حجبته ستر الظنون راجياً أن تحتاط للأمر."، وثارت ثائرة شوكون وتميز غيظاً مما ارتكبه سوتشين وتغيرت نفسه من ناحيته، وهذا بالضبط هو ما ورد فى الخطة من إمكانية إفساد العلاقة بين شوكون وسوتشين.

الجزء العاشر من الفصل نفسه

كما أوفد سوتشين إلى ملك تشو، من همس له قائلاً :" اعلم أن سوتشين كان هو الذى أوعز إلى شوكون باحتجاز الأمير وتحديد إقامته فى تشى، ولئن كان يبدو أمامك بمظهر الحريص على رفعة شأنك والتعاون معك، فهو يقف - فى الوقت نفسه، وللعجب! - موقف المساند والمؤيد لتنصيب الأمير الرهينة ملكاً على تشو، بينما كان هو أيضاً يحث بلادكم على التنازل عن أراضى الحدود الشرقية إلى تشى، ويدفعكم دفعاً للتحالف معها، هذا وبرغم ولائه لسيده ملك البلاد، فلم يتورع أن يسهل للأمير الهروب ليلاً من تشى، وهناك الآن من يسعى فى إفساد العلاقة بين شوكون وسوتشين متعللاً بما يبديه سوتشين من تعظيم الاهتمام بمصالح تشو مقابل التقاعس عن خدمة تشى، فالمرجو من جلالتك النظر بعين الاعتبار لمجمل هذه

الأحوال."، فعندئذ أجاب الملك بقوله:" أنا على استعداد للتصرف وفق ما تشيرون به." وكان تكرم جلالته على سوتشين بمنحه اللقب الفخرى "أوجن " وكذلك ورد من بين احتمالات الخطة المشار إليها (فى بدء هذا الفصل) احتمال الإيعاز إلى ملك تشو بالتفضل على سوتشين بمنحه أثمن المنح الملكية.

الجزء الحادى عشر من الفصل نفسه

وقام سوتشين بإيفاد "جينلى " - رئيس وزراء تشو - إلى شوكون ليقول له: "لئن كنت قد أصبحت فى المكانة التى تحتلها الآن، حيث الكل يرنو إلى تألق نجمك وعزيز سلطانك، فقد تم لك الأمر على هذا النحو بفضل تزكية ذوى الفضل والعلم والرياسة لك، فمن ثم حزت موقع السيادة فى دولة تشى وتقلدت مقاليد السلطة بموجب ما قد علمت، أما سوتشين فهو أفضل وأمهر الخطباء والمخططين السياسيين فوق الأرض، وليس له فى ذلك المجال نظير، وأرى أن الأجواء الملبدة المحيطة بالعلاقة بينكما ستخنق كل الفرص المواتية أمام الخطباء والمخططين الأكفاء، واعلم أن علاقة سوتشين بملك تشو طيبة للغاية على العكس منك لأنك بدلاً من أن تحاول التودد إليه وإزالة ما بينكما من جفاء، تزيد الهوة اتساعًا والشحناء بغضًا مقيتًا، فلذلك تفوتك الكثير من الفرص التى تسنح لك ، ولا أرى إلا أن تبادر أنت إلى تبجيله والعرفان بمكانته وقدره، فذلك أول الطريق إلى اكتساب مودته وضمان مساندته وتأييده."، فمن ثم صفا ما تكدر بين سوتشين وشوكون، فعادت المياه إلى مجاريها، وتبدل الجفاء وداً موصولاً، حسبما ورد فى الخطة الأولى من إمكانية مد جسور الصداقة بين سوتشين وشوكون.

لما ماتت قرينة حاكم دولة تشى

ماتت قرينة ملك دولة تشى، وكان لدى جلالته سبع محظيات صغيرات السن، وكن هؤلاء هن الأثيرات لديه من بين الأخريات، وذلك لحظهن الوافر من الجمال والشبابهن، وأراد شوكون أن يميز من بينهن، الأكثر قبولاً لدى الملك والأوفر حظًا فى الترشيح للاقتران بجلالته، فأهدى الملك سبع أزواج من الأقراط الذهبية الثمينة، وجعل من بينها زوجًا واحدًا تميز عن الباقين ببديع زخرفه وبراعة تكوينه ودقيق سبكه وصناعته، وراح يتحين الفرصة فى اليوم التالى ليتطلع إلى المحظيات السبع؛ كى يرى أيهن قد تزينت بهذا القرط البديع، فيشير على جلالة الملك بالاقتران بها رسميًا.

لما عزم شوكون على السفر إلى دولة تشين

لما اعتزم شوكون السفر إلى دولة تشين، تقدم إليه الكثيرون ينصحون له بالعدول عن ذلك، دون جدوى، ثم حضر إليه سوتشين ليحاول إقناعه بعدم السفر فابتدره شوكون قائلاً :" كل ما صار إلينا من أمور البشر فنحن أدرى به، أما ما خفى عنا من مجاهل الشياطين فلا نملك لمعرفته وسيلة." فأجابه سوتشين، قائلاً : " ما كان لى أن أحضر إليك لأكلمك فى مسائل البشر ، بل سعيت إلى هنا كى أحدثك عن أمر الشياطين."

الجزء الثانى من الفصل نفسه

قال سوتشين لـ "شوكون" فى معرض كلامه:" مررت فى طريقى وأنا قادم إليك بنهر " تسى " ففى أثناء عبورى النهر، لمحت بقرب الشاطئ منظر تمثالين على هيئة البشر أحدهما مصنوع من الطين والآخر منحوت من جذع شجرة، وبدا لى كأنهما

يتحادثان، فقال المحفورعلى جذع الشجرة للآخر الطينى:" أنت مصنوع من الطين الذى على الضفة الغربية للنهر ولست إلا مجرد تمثال على هيئة آدمى، قد صنعك البشر بأيديهم، فانظر حتى إذا جاء الشهر الثامن وهطلت السماء مطرًا مدرارًا، وطفا الماء بين ضفتى النهر أسالت المياه صحيح بدنك (فتآلفت أعضاءك وفرقتك بددًا) وهنالك أجابه التمثال الصلصالى قائلاً :" كلا، بل إذا امتلأ النهر وطمرنى الموج وبددنى السيل، فلست إلا من طين الشطآن وإلى الطين أعود فكيف بك وأنت ابن الغصن النابت عند الضفة الشرقية، فانظر كيف تصنع إذا انسكب السيل وفاض النهر فتقاذفك الموج وسبح بك، تغطس تارة وتطفو تارة أخرى، لاتدرى لك مثوى ولامصيرا!" فاعلم أنك قاصد إلى بلد [تشين] عالى الأسوار منيع الحصون، الداخل إليه كالمطأطئ رأسه بين فكى النمر الرابض فهو يملك أن يمد عنقه، لكنه لايدرى كيف يخلص من بين أنياب مكشرة، فلئن كنت تعرف طريق الذهاب إلى تشين بكل ثقة فلا أظنك تعرف يقينًا متى وكيف تسلك طريق العودة."، وكان أن تراجع شوكون عن فكرة السفر إلى تشين.

لما كان شوكون مقيماً بأرض شيودى

كان شوكون مقيمًا بإقطاعية شيودى (الإقطاعية المهداة إليه)، عندما قامت دولة تشو بمهاجمة هذه الإقطاعية فأوفد ملك تشى صهره النبيل" تشونيّون " إلى دولة تشو (بهذا الخصوص) فلما كان النبيل فى طريق عودته من سفارته فقد مر على الإقطاعية المذكورة، وكان شوكون فى استقباله بنفسه فأكرم وفادته بترحاب بالغ مقيمًا له مراسم التبجيل اللائقة بمكانته الرفيعة، وقال له أثناء اللقاء: " لاتشغل نفسك كثيرًا بمسألة هجوم تشو على إقطاعية شيودى، إلا أنى لن أستطيع فى قادم الأيام أن أقوم على خدمتك (كما كان الحال فيما مضى)." فأجابه تشونيون:" لك السمع والطاعة بكل ما وجب على من تقدير واحترام لشخصكم الكريم ".

الجزء الثانى من الفصل نفسه

لما عاد تشونيون سالمًا إلى تشى، كتب إلى الملك تقريراً وافيًا (حول سفارته إلى تشو، فاستدعاه الملك) فسأله:" كيف رأيت الأحوال فى تشو؟" ؛ فأجابه: " القوم هناك عنيدون جداً وعازمون على أمر لا أراهم يتراجعون عنه، بينما الأهالى فى إقطاعية شيودى غير عابئين بما يتهددهم من خطر ولايدركون ضآلة قوتهم مقابل ما أعدته لهم تشو من بأس شديد." فسأله الملك عما يعنيه بقوله هذا، فأجابه :" الأمر على ما ذكرت لجلالتك، ذلك أنى وجدت أهالى شيودى لايأبهون بالزحف الذى يتهددهم برغم قلة عددهم وضعف قوتهم، ولايشغلون أنفسهم إلا بإقامة المزيد من المعابد الملكية باسمك واسم أجدادك المعظمين، ولو إن مثل تلك المعابد لن تصمد طويلاً تحت سنابك خيول تشو ورماحها المعاندة العازمة على تهديد قلة مغلوبة على أمرها لاتريد أن تخضع أو تعترف بعدم تكافؤ المواجهة بينها وبين الغزاة الجبارين."

وعندئذ تبسم الملك فاهمًا وهو يتمتم فى خشوع:" فنعم الأمر إذن، ما دامت المعابد الملكية قائمة هناك على حالها." وأسرع الملك" مين " حاكم تشين بإرسال حملة عسكرية عاجلة لمساندة إقطاعية شيودى.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

رغم أن شوكون هرع إلى طلب المساندة وراح يستجدى العون مطأطئ الرأس بكل احترام وتبجيل لكل يد تبذل له المساعدة، فلم يحصل إلا على النذر اليسير منها، ذلك لأن رجلاً مثله يملك لسانًا ذربًا وإدراكًا جيداً وفهمًا عميقًا للخطط والحلول (الممكنة) كان جديراً بأن يؤثر فى الآخرين بدرجة هائلة تجعلهم يشعرون كما لو كانوا هم أنفسهم أصحاب المحنة وأطراف الأزمة المستعصية (بحيث يصيرون مطالبين بالدفاع عن أنفسهم بالدرجة الأولى)، وبالتالى فلم يكن هناك داعٍ أن يمنحوه الكثير من المساعدة [ماداموا سيقومون هم بالجانب الأكبر من مهمة الدفاع!].

لما قام شوكون بالإنفاق على أحد أقاربه

أنفق شوكون على أحد أقاربه (والملقب بـ "شياهو جان") ما يوازى مرتب مائة موظف من كبار رجال البلاط، وقرر له أربعة خيول مسرجة، فلما تحقق من أحسن معاملته والترفق به على هذا النحو داخله شعور بالطمأنينة والسعادة، إلا أن شياهو جان - وبرغم ذلك - لم يكن يفتأ يقدح فى شوكون ويروج عنه الوشايات كلما سنحت لذلك المناسبات والظروف، فذهب البعض وأبلغوا شوكون بذلك الأمر، فقال لهم: "لاعليكم من هذا كله، فقد عزمت على أن أترفق به وأحسن إليه فى كل الأحوال." ومن ثم فقد ذهب " دونشى فان" - أحد موظفى دولة تشى - إلى شياهو جان وتكلم معه فى هذا الشأن ؛ فأجابه قائلاً:" ليس شوكون بالرجل الذى ينظر بعين الإكبار والتبجيل إلى النبلاء والأمراء، ومع ذلك فها هو ذا يتكرم علىَّ بتخصيص راتب رسمى يساوى ما يحصل عليه مائة موظف دفعة واحدة بالإضافة إلى الخيول والركائب المسرجة، وقد حظيت بتلك المعاملة الكريمة دون جدارة من ذكاء أو فطنة، أو فم ينطق بقول سديد، فلئن كنت أتناوله بلسان قادح فيه بهتانًا وزورًا فإننى بهذا أرفع من قدره وأعظم من شأنه فى واقع الأمر، ذلك أن جزءًا كبيرًا مما يحظى به شوكون بين الناس من نبل أخلاق وعظيم خصال مستمد من واقع الحال الذى يشهد بإساءتى إليه وافترائى عليه، ويشهد له بالتغاضى عن ذلك بقلب رحيم وصدر واسع، إلا أنى فى الحقيقة، أقدم له خدمة جليلة تساوى عمرى وسمعتى وكرامتى كلها بينما لايكلفه ذلك الشيء الكثير."

لما كان شوكون جالساً

كان شوكون جالسًا فى بعض ساعات فراغه من العمل، يتحدث إلى ثلاثة شيوخ متقدمين فى السن، فقال:" ليت كل واحد منكم يدلنى على طريقة أتدارك بها نقائصى وأصلح بها من شأنى."، فأجابه أحدهم:" إنى على استعداد أن أدافع عنك ضد من

يتهمك بأى عيب سـواء من النبلاء أو من الأمراء (ذلك إنى أراك بغير عيوب) حتى لو اضطررت أن أنثر فى وجه مبغضيك دمى."، ثم قال له الشيخ" تيانماو " أحد مواطنى دولة "جنغ": " أما أنا ياسيدى فلن يعضلنى أن أسافر معك إلى أقصى البلاد (إلى أبعد مكان تصله كل عربة مسرعة " هكذاحرفيًا ") كى أوارى عنك كل نقيصة وأمتدح فيك كل منقبة، حتى يسعى إليك كل ذى سلطان عريض، (يطلبك لمنصب ذى شأن) ويحث الخطى إليك كل ذى سلطة (من رؤساء الوزرات) يرجو تشريفك له بالعمل معه."

وأخيراً تحدث إليه الشيخ العجوز " شنغ" فقال:" تمنيت لوكانت لى مفاتيح خزائنك، كى أغترف منها (المال) وأغدق على كل ذى علم وأجمع إليك صفوة الحكماء ليعينوك على حل كل المعضلات والتدبر لكل حادث، مثلما كان للملك "ونهو" – حاكم وى – (حكيمان يرشدانه ويجنبانه مواضع الزلل) هما: "تيان زيفان"، "توانكان مو"، فتلك هى الوسيلة التى أرتئيها من أجل صلاحك."

لما كان أحد أقارب شوكون على علاقة

لما كان أحد أقارب شوكون قد أقام علاقة سرية مع زوجته الحسناء، وجاء أحدهم يبلغ شوكون بهذا الأمر، قائلاً له:" إن الرجل الذى هو قريبك، المقيم فى بيتك شوهد فى وضع مخل مع امرأتك، فهو انتهك بذلك حرمة البيت والحق والكرامة، ووجب عليك قتله." فأجابه:" إن للجمال سلطان على القلوب ، والعشق طبع وفطرة، فلا عليك من ذلك، لاتشغل نفسك بهذا الأمر ولاتعاود محادثتى فيه."

الجزء الثانى من الفصل نفسه

فلما مر عام، استدعى شوكون ذلك الرجل ذا العلاقة السرية مع الزوجة، وقال له:" دامت صحبتك معنا سنين كثيرة، ولاأراك أفلحت فى الحصول على منصب ذى

شأن، ولارضيت حتى بالمناصب البسيطة (المتواضعة) التى عرضتها عليك، فدعنى أهيئ لك سفارة فخمة وأعد لك الركائب وجلود الأيائل والمنسوجات الحريرية (الهدايا التقليدية للوزراء والملوك قديمًا) تحملها إلى حاكم دولة"ويه" ودًا وكرامة، وسأوصيه بك خيرًا، وأعرف أنه سيكرم ضيافتك لأجل خاطرى، فالود ما بيننا قديم."، وبالفعل فقد لقى الرجل الذاهب إلى دولة "ويه" كل حفاوة وتقدير.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

لما ساءت العلاقات بين دولتى تشى، وويه وتعرض التحالف القائم بينهما للانهيار دعا حاكم "ويه" قوات الدويلات والإمارات إلى القيام بهجوم موحد على دولة تشى، وعندئذ ذهب الرجل المبعوث من قبل شوكون (صاحب الزوجة الخائنة) للقاء حاكم "ويه" ، وقال له:" الآن تحققت يامولاى أن شوكون لم يكن يدرك طوال الوقت أن مواهبى محدودة للغاية وأنى أكاد لا أصلح لشىء، فأرسل بى إلى جلالتك على سبيل الخديعة والدهاء، إلا أنى كنت قد سمعت أن الملوك السابقين لدولتى ويه، وتشى قد عقدوا ميثاق الحلف [ذبحوا الشياه والخيل وشربوا دماءها على سبيل التحالف الأبدى] فيما بينهم وتعاهدوا على ميثاق الدم إذ أقسموا على ألا تقع حرب بين الأبناء والأحفاد فى الدولتين المتعاهدتين، وأن يراق دم الآثم المخالف للعهد كما تذبح الشاة الذليلة "، فلئن كنت تدعو قوات الدويلات الآن ياجلالة الملك ؛ لمحاربة تشى، فإنك تبرهن على مخالفتك للعهد التليد، وتخون ميثاق الصداقة مع شوكون، لذلك فإنى أرجو أن تصرف النظر عن فكرة مهاجمة تشى، فإذا أخذت بنصيحتى ووثقت بى فما ظلمت، أما إذا عدلت عن ذلك فما تظن أن ينالك من أحمق مثلى إلا أن أنثر دمائى فوق قميصك." فمن ثم تراجع حاكم "ويه" عن فكرة الهجوم على تشى.

الجزء الرابع من الفصل نفسه

فما أن بلغ ذلك الخبر دولة تشى، حتى أشاد الناس بدهاء وألمعية شوكون؛ ذلك أنه استطاع تصريف الأمور على نحو بارع فتمكن من تحويل البذرة الفاسدة إلى ثمرة طيبة واعدة بالخير.

لما وقعت الكراهية فى قلب شوكون

وقعت الكراهية فى قلب شوكون تجاه أحد أقاربه، فصار ساخطًا عليه وأراد إبعاده ونفيه خارج البلاد، فجاء " لوليان " (أحد مواطنى تشى، أراد القيام بالوساطة سعيًا للمصالحة) إلى شوكون، وقال له: " ماظنك بقطيع من القردة ترك أغصان الشجر ليعيش فى الماء، أما تراه عاجزًا عن مجاراة أدنى سلحفاة برمائية فى الغوص والطفو والسباحة، أما تجده قد فزع إلى المنحدرات الصخرية فتسلق النتوءات وحواف الصخور، وكذلك لن تفلح الجياد الأصيلة أن تحيا حياة الثعالب، ولئن كان المقاتل المظفَّر " تصاومو" قد ضرب بسيفه البتار فهزم وأسر الأمراء والنبلاء بقبضة يد ودرع واحد، إلا أنه ماكان ليصلح أن يتناول فأسًا ليزرع الأرض ويجنى الحصاد كأى فلاح بسيط، لذلك فإن الاهتمام بالجانب السلبى للأمور دون الوجه الإيجابى فيها لايليق بمن أراد انتهاج الحكمة والسبيل القويم، فتكليفك الناس بما لايقدرون عليه إجحاف يبرز لك تقصيرهم وعجزهم، ونصحك لهم بما لايفقهون تحامل بغيض، يصور لك جهلهم وغباءهم، ثم إنك من بعد ذلك تبادر إلى طرد المقصِّر وإقصاء الجاهل، فإذا قام كل واحد من الناس بنفى وإبعاد من لايحسن صحبته، أصبح الناس فريقين متباغضين تنهشهم الكراهية وتبيدهم الثارات. أفلا يجدر بنا أن نتواصى بالموعظة ونقر المبادئ التى يستقيم بها شأن الناس جميعًا! "

وهنالك أقرَّه شوكون على رأيه وتراجع عن قراره باستبعاد الشخص المشار إليه.

لما خرج شوكون يجوب البلدان

خرج شوكون يجوب البلدان، فلما دخل دولة تشو أهدوه سريرًا من العاج وكان " دنتو " وهو أحد المكلفين بحمل الهدية إلى شوكون مقيمًا بمدينة "اينغ" (عاصمة تشو) فلما تقرر إرساله ضمن الأفراد الموفدين لحمل الهدية إلى شوكون انزعج وتردد وأراد الاعتذار عن القيام بهذه المهمة، فقصد إلى واحد من أتباع شوكون (اسمه " كونسون شو ")، وقال له: " أنامقيم بالعاصمة اينغ، واسمى دنتو، وقد تقرر تكليفى مع آخرين بحمل السرير العاج وهو من أغلى الهدايا كما تعرف، وأخشى إذا مسَّه سوء أن أعجز عن دفع قيمة التعويض المطلوبة حتى لو أنفقت فى ذلك كل ماأملك، فإذا أعفيتنى من هذا الأمر، فسوف أهب لك سيفًا من السيوف الأثرية النادرة التى خلفها لى أجدادى. " ووافقه كونسون شو على هذا الاقتراح.

الجزء الثانى من الفصل نفسه

وذهب كونسون شو للقاء شوكون، ثم قال له: " أيمكن أن تقبل حقًّا ذاك السرير العاجى هدية من تشو إليك؟ "، فلما رد عليه بالإيجاب، عاد يقول له: "لكنى أرجو منك ألا تقبل تلك الهدية."، فلما استفسر منه شوكون عن السبب فى ذلك أجابه قائلاً: " ماكان لدولة صغيرة مثل هذه أن تهديك هدية ثمينة على هذا النحو إلا لأنها تعرف جيداً مدى تفانيك فى دفع أسباب البلاء عن المنكوبين، وتعرف استقامتك وحرصك على وصل ماانقطع من طقوس القرابين إلى المعابد، وإقامة ماتداعى من أركان الدولة المهددة بالتآكل والانهيار، وإذا كان النبلاء والأماجد فى الدولة الصغيرة ينزلون على رأيك فيما يمس أخطر قضايا دويلاتهم؛ فلأنهم يكبرون فيك نزاهتك وشرفك وصدق إخلاصك، وعندما تنزل اليوم ضيفًا على تشو وتقبل إهداءها السرير العاجى إليك، فإنك تربك وتحيِّر باقى الدول التى فى طريق زيارتك عما ينبغى أن تهديك هى الأخرى، وأرى أن تريح نفسك وتريح الآخرين وترفض قبول الهدية." وعندئذ وافقه شوكون على رأيه.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

ومشى كونسون شو خارجًا، فما كاد يصل إلى بوابة القصر حتى ناداه شوكون ليكلمه، فرجع إليه، فقال له: " كنت نصحت لى منذ قليل بعدم قبول الهدية، فهذا أمر مفهوم ولابأس به، لكن غير المفهوم عندى هو أسلوب مشيتك وأنت ذاهب منذ لحظة؛ إذ بدت قامتك أكثر شموخًا وبدت هيئتك أشد ثقة، فما السبب ياترى؟"، فأجابه: " هى ثلاثة أشياء أسعدتنى للغاية، بالإضافة إلى شىء ثمين اقتنيته وهو عبارة عن سيف قديم أُهدى لى."، فلما أمره شوكون أن يفصح عما يريد قوله، أجاب: " هناك أكثر من مائة رجل وراء بابك كلهم حكمة ونجابة ومع ذلك فلم يجسر على الدخول عليك والنصح لك غيرى هذا هو أول ماأسعدنى، أما الشىء الثانى فهو أنك قد أخذت بنصيحتى، وثالثًا فإن شعورى بأنى قد جنبتك الوقوع فى خطأ، كان أكثر شىء أدخل الفرحة على قلبى، (وأريد أن أخبرك بأمر آخر هو أن) أحد مواطنى العاصمة ويدعى دنتو، كان راغبًا عن الاشتراك فى قافلة إرسال السرير العاجى إلى جنابكم الكريم، وقد بلغ الأمر أن وعد بإهدائى أحد السيوف النادرة من مقتنياته القديمة." فسأله شوكون: " وهل قبلت تلك الهدية ؟ " فأجابه بأنه لم يجسر على القبول، فعاد شوكون يقول له: "لكنى أقترح عليك سرعة القبول دون تردد !" وتناول شوكون فرشاة وكتب لوحة كبيرة علَّقها عند مدخل الباب، نصها كالتالى: [من أحب أن يعظم شأنى بين الناس، فليخلص لى النصح، ويقيل عثرتى، وليكن أسرع الناس إلى انتقادى هم الذين وعدونى فى الخفاء بأثمن الهدايا .]

لما قام النبيل تشونيو بترشيح سبعة موظفين

قام صهر الملك شيوان (حاكم تشى) النبيل تشونيون بترشيح سبعة أشخاص (للعمل بالقصر الملكى) وقد جاءت هذه التزكية للأشخاص السبعة فى يوم واحد، فقال له الملك: لو كنت جئت وأبلغتنى أن أحد العلماء المبرزين يقيم على مبعدة ألف لى

لما ظننت مسافة بعيدة نظرًا لندرة أعداد العلماء بشكل عام، ثم إن ظهور واحد فقط من أمثال أولئك الحكماء العباقرة كل قرن من الزمان، لايعد بالشىء القليل (إنه نادرًا ما يتعاقب مثل هؤلاء الناس إلا بعد قرون ولكنك تأتى اليوم وترفع لى طلب استخدام سبعة منهم دفعة واحدة !!) أو لا تظن أن فى الأمر شىء من المبالغة ؟! فأجابه ليس هناك أدنى قدر من المبالغة، فمن منا ينكر حقيقة أن الطيور ذات الأجنحة المتشابهة تجتمع فى أسراب متجانسة كل واحد منها يشبه الآخر ويتكامل معه (وكذلك) السباع والوحوش التى تتماثل مخالبها وحوافرها تتكتل فى قطعان كبيرة تقيم وترتحل مع بعضها بعضًا، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فأنت إذا ذهبت لتجمع جذور نباتات (تشايخو)، (جية قنغ) [نباتات طبية قديمة] من المستنقعات، فلن تعثر على أثر منها، بينما إذا بحثت عنها فى تلال " شوشان "، و"ليانفو" فستجد منها ما تنوء به الأحمال، فالعالم ملئ بأعداد لاحصر لها من الأنواع المتماثلة فما من شىء إلا له عشرة آلاف نظير، ولئن كنت أنا واحدًا من المتعلمين النابهين فلابد أن هناك آلافًا من النظراء، وعندما طلبت جلالتك إلىَّ ترشيح من أراه مناسبًا من الأكفاء، كنت كأنك أمرتنى بجلب المياه من البحر الزاخر، أو البحث عن قبس من نار فى جوف التنور، فلا تعدن أولئك السبعة كل ما فى الجعبة، بل هناك المزيد وسأوافيك بالمزيد إذا شئت".

لما استعدت دولة تشى لمهاجمة وى

كانت دولة تشى قد أعدت العدة لمهاجمة وى، وذهب النبيل "تشونيون " إلى ملك تشى وقال له:" بلغنى يامولاى أن هناك نوعًا من الثيران فى دولة هان يطلق عليه الثور الأسود، ويتميز بسرعتة الشديدة فى الجرى مسافات طويلة على نحو غير مسبوق، وقيل أيضًا أن أسرع الأيائل فى الجرى هو ذلك النوع الذى يعيش فى جبال " دونقو " وتحكى الحكايات أن أحد الثيران من الفصيلة المذكورة راح يعدو خلف أيل بجبل دونقو، وبلغ من سرعة عدوهما أنهما دارا حول الجبل ثلاث دورات ثم انطلق الأيل

صـوب الجبال الخـمـس فعبـرها جـمـيعًا والثور وراءه الأول يتقـافـز دون كلل والآخر يتبـعه بغير عناء، وظلا كذلك حتى أدركهـمـا الإعيـاء وانحلت قوتهـمـا ومـاتا فـى بعض الطـريق، فرآهمـا أحد المـزارعين فـكـانت له الغنيـمـة كاملة دون أدنى مشـقـة؛ وأرى اليوم دولتى تشى ووى تتنازعان وقد ركبـهمـا العناد حتى انحلت عزيمة الجند وخارت قوى الناس، فلشـد مـا أخشـى أن تنتـهـز دولتى تشـين وتشـو القويتـين هذه الفـرصـة فتنقـضـا بهـجـوم لايبقى ولايذر، فـتغنمـان غنم المزارع المذكور آنفًا ووقع الفـزع بقلب حـاكم تشى، [فـعـدل عن الهـجـوم] فـعـزل القـائد العـام، وأمـر بالتـرفـيه عن الجنود لتخفيف حالة التوتر.

لما قال الحكيم كوزى

قال الحكيم كوزى (من مواطنى دولة تشى):" إن دولة تشين استطاعت أن تهزم قوات القـائد جاوكو (دولة جاو) وحاصـرت العاصـمـة هاندان، ثم إن دولتى تشى و وى قدمـتا المسـاعدة لدولة تشـين فى محـاولة الهـجـوم على العاصـمـة وقـامت تشى بمـهاجـمـة منطقة" زيشـو" (التـابعـة لدولة جاو) وأغـارت على مـدينة "إيشـى"، وسـارع أحـد النبـلاء بدولة وى، وهو المدعو "شين لينغ جون " بوضـع خطة سياسـية بارعة (جرى بمقتضاها) قتل القـائد العسكرى "جين بى " (قائد قوات وى) ثم قاد بنفسـه القوات لفك الحـصـار المفروض حـول العـاصـمـة "هاندان"، ممـا أعـاق مـحـاولة تشين للهـجـوم على العـاصـمـة، وأحبط التـأييـد الشـعـبى الجـارف الذى كان يؤيدها فـى تـحـركاتها الهـجـومية، وكـان الأمـر كله نتيجة غير مباشرة لما قـامت به تشى من احـتـلال لأراضـى وى، لأن الذى حدث هو أن الاحتلال كان الباعث على ظهور المخطط السياسى الداهية " شين لينغ جون " وهو الرجل الذى تمكن من حـمـاية ومـسـاندة العـاصـمـة " هـاندان" [وفـى ذلك الوقت كـان التقسيم الإدارى للأقاليم يسـجل المدن الثلاث الرئيسية كالتالى] مدينة "آن" عاصمة دولة وى، ومدينة "جين يانغ "عاصمة دولة جاو، أما مدينة "يانينغ " فقد كانت عاصمة دولة تشـو، وكـانت الدول الثـلاث تشـتـرك فـى حـدودها جـمـيعًـا مـع دولة تشـين، [كـان

معنـــى ذلك أنه] إذا أغــارت هذه الأخــيرة على وى، فســوف تسـتولى على العاصمة " أن"، فإذا هاجمت جاو، احتلت عاصمتها جين يانغ، وكذلك إذا ضربت تشو، انتزعت منها العاصمة يانينغ ، ومن ثم تفرض نفوذها وتملى إرادتها على ملوك الدول الثلاث، وتستـولى على أراضى دولتى جـو الشـرقـيـة والغـربيـة، ثم تهاجم دولة هـان وتحـتل أرضها، وبهذه الطريقة تتمكن تشين من الهيمنة على نصف الممالك التى تحت السماء [ولا أظنهـا تكتـفى بذلك فـهى] اليـوم تمارس ضـغـوطًا على وى وجـاو للخـروج على مـيـثـاق التـحـالف مع مـجـموعـة دول السـهـول الوسطى، وقـد سـبق لهـا أن اقـتطعت مساحات هائلة من الحدود الشرقية لأرض ويه، واستولت على منطقة "خينان " وعزلت إقليم "دونيـانغ " عن دولة جـاو، وهو مـا يعـرض كـلاً من وى وجـاو لخطر بالـغ، وهو الخطر الذى يضر بمصالح دولة تشى أيضًا، ومن ثم فالمغزى الذى تقصد إليه كلٌ من: هان، وى ، وجاو، وتشو يتمثل فى إحباط مسعى قوات تشين فى الاستيلاء على الدول كلها وتخفيض مرتبة ملوكها إلى مجرد وزراء عاديين تحت سلطانها، ذلك أن الخطر الذى تتعرض له الدول الثلاث المتاخمة لدولة تشين من جراء اشتراكها مع هذه الدول العاتية فى خطوط حدودية، أشد وطأة وأقرب احتمالاً مما يمكن أن يصيب دولة تشى البعيدة عن مناطق التماس الحدودى معها فلذلك وعلى ضوء هذا الوضـع؛ فإنه ينبغى على كل الإمـارات والدويلات أن تهـتم بمصـالحـهـا مع تشى وإذا تمكنت تشـين من أن تحـصل على مـسـاندة وتأييـد تشـى فـسـوف يتـعـاظم نفـوذها وسلطانهـا فى منطقـة السهول الوسطى. أما إذا سارعت كلٌ من جاو، وى، وتشو بكسب تشى إلى صفوفها، فسوف تقدر جميعها على صد محاولات الهيمنة من قبل تشين (سواء فى ذلك أكانت تشـين أم جـاو أم وى) سـتكون هـى السـبـاقـة إلى نيل الحظوة والمكانة والنفـوذ بين الإمارات والدويلات، بينما يتوارى الأخرون فى ظلال الإهمال فتسقط هيبتهم ويتقلص نفـوذهم. والسـؤال إذن هو: كـيف تعـجز تشى عن أن تحـصل على مـا تسـتحـقـه من اهتمـام وإكبـار مـادامت تملك هذه المزايا ؟، والإجـابة هى أنهـا (فـيمـا يبدو) تتبع خططًا سياسية خاطئة."

سجل تشى الرابع

لما كان فى دولة تشى رجل فقير

كان فى دولة تشى رجل يدعى "فنغ شوان" وكان فقيراً، عاجزًا عن اكتساب الرزق، فطلب من الناس أن يدلوه على بيت شوكون عساه أن يجد عند بابه ما يتقوت به، (فكان له ما أراد) فلما سأله شوكون عما يطيب له من هوايات مسلية، أجابه بأن ليس له شيء من ذلك، فسأله عما يجيد من مهارات أو حرف وقدرات، فأجابه بالرد نفسه، فضحك شوكون ووافق على استضافته، ووقع فى ظن الحاضرين [التابعين والعاملين فى منزل شوكون] أن سيدهم قد أبدى الموافقة استصغاراً لشأن ذلك المعدم، فألقوا إليه بأردأ الطعام.

الجزء الثانى من الفصل نفسه

وما كاد "فنغ شوان" يستقر بصحبة أتباع شوكون، حتى صار يقف مستنداً إلى الأعمدة الضخمة فى فناء المنزل متقلداً سيفًا قديمًا، يهزه عاليًا ويرفع صوته بالغناء الصادح. (.. عودى بنا أيتها الأيام، عد بى أيها السيف السقيم نفرش الطرقات، ونطعم طعامًا أزكى فلا خير فى وليمة لاتسد رمقًا!)، وراح الخدم إلى سيدهم شوكون يقصون عليه ما حدث من أمر الغناء المذكور، فأمرهم بأن يقدموا له أطيب الطعام على نحو ما يفعلون مع كل النازلين فى دار ضيافته العامرة، وما هى إلا أيام قليلة حتى أصبح فنغ شوان ذات صباح ممسكًا بسيفه مردداً صوته بأغنية

يقول فيها: (إيه ياسيفى القديم، أما آن لنا أن نعود، لكن كيف نعود راجلين حفاة، وليس ما يحملنا من عربات مطهمة وجياد!) فسخر منه السامعون، وعجبوا من أمره وأبلغوا سيدهم شوكون بما تغنى به "فنغ شوان" فأمرهم أن يجهزوا له عربة فخمة تقله إلى أى مكان يشاء شأنه فى ذلك شأن كل ضيف كريم.

فلما ركب الضيف العربة رفع سيفه عاليًا وساق إلى منزل أحد أصدقائه القدامى حيث التقى به، وقال له:" قد نزلت على شوكون فأكرمنى وأحسن إلىّ كما يصنع مع أكرم ضيوفه."، وما هى إلا بضعة أيام حتى وقف ثانية وسط الدار ورفع سيفه، يتغنى بصوت مسموع:(أما قلت لك عد بى أيها السيف ... فما النفع إذا شبعت وجاعت عيالى!) فلما سمعه الحاضرون ضجروا وقاموا عنه استياءً ونفوراً مما بدا من جحوده وجشعه، وسألهم شوكون عما إذا كانوا يعرفون له أقارب أو ذوى صلة فأجابوا بأن ليس له سوى أم أقعدها العجز والكبر، فأرسل إليها شوكون طعامًا وكسوة وأجزل لها العطاء فلم يدع لها حاجة إلا قضاها، وهنالك أمسك فنغ شوان عن الغناء وهجره بالكلية.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

فلما كان صبيحة ذات يوم علق شوكون إعلانًا كبيرًا على جدار دار الضيافة، يطلب فيه إلى النزلاء الكرام أن يتقدم من له معرفة بالحسابات التجارية وذلك لعمل تصفيات للديون بمنطقة "شودى" فذهب فنغ شوان ووقع باسمه أسفل الإعلان موضحًا مقدرته على القيام بهذا العمل، فلما اطلع شوكون على التوقيع أخذته الدهشة وسأل عمن يكون صاحب هذا الاسم ؟"، فأجابه خاصته قائلين بأنه ذلك الرجل صاحب "السيف القديم" المقيم عندك المتغنى بأغنيات (عد بنا أيها السيف، عودى أيتها الأيام ..) فضحك شوكون قائلاً :" فالرجل صاحب علم ومهارة إذن، وقد أسأت إليه دون حتى أن أعرف له وجهًا [لم أقابله مرة واحدة !]، ثم استدعاه فلما مثل بين

يديه قام إليه شوكون معتذراً، قائلاً :" قد شغلتنى عنك المشاغل، أرهقتنى لواعج القلق وألوان الهموم، فقد انغمست فى شئون العمل حتى تغافلت عمن يقتضى الواجب صلتهم، والحفاوة بهم، فلا تحملنَّ علىَّ إصراً لما بدر من إساءة، ولاتحجبنَّ عنى أمراً لسابق جفوة بيننا، واصدقنى القول إن كنت راضياً بالقيام على جباية الضرائب المقررة على منطقة شودى." فلما أقر فنغ شوان أمامه برغبته المخلصة فى القيام بهذه المهمة أوكل إليه شوكون إتمام الأمر وهيّأ له عربة وجهزه بما يلزم من كسوة وأغطية وفرش، ودفع إليه مستندات الديون، فلما حانت ساعة توديعه وقد خرج إلى السفر، سأله فنغ شوان، قائلاً :" فماذا تريد أن أشترى لك بعد تصفية الديون ؟"، فأجابه:" أترك لك تقدير هذا الأمر، فتدبر وانظر ما الذى ينقصنى من متاع فابتعه لى."

الجزء الرابع من الفصل نفسه

وانطلقت العربة براكبها فنغ شوان إلى منطقة شودى، فما أن بلغت الرحلة نهايتها حتى أوفد فنغ شوان إلى الأهالى بعض الكتبة والموظفين ليبلغ المطالبين بسداد الديون بالحضور إليه فلما اجتمعوا لديه أمر بمراجعة سندات الديون وصكوك القروض، فانشغلوا بذلك وقتًا غير قليل، حتى إذا فرغوا من المراجعة [وأبلغوه بالحصر الشامل لجميع المستندات] نهض واقفًا وأعلن باسم شوكون التنازل عن جميع المستحقات المالية من ديون وقروض وخلاف ذلك [باعتبارها] منحة لاترد، ويسقط عن الأهالى - بموجب ذلك - واجب السداد، ثم إنه جمع الصكوك والسندات وأشعل فيها النار حتى احترقت عن آخرها، وانطلقت أفواه الناس بالهتاف والدعاء بطول البقاء!

الجزء الخامس من الفصل نفسه

ركب فنغ شوان عربته، وأسرع عائدًا إلى عاصمة تشي، فبلغها مع انبلاج الصبح، وذهب من فوره لمقابلة شوكون الذى أخذته الدهشة من سرعة إنجازه للمهمة الشاقة الموكولة إليه، وأسرع ليرتدى أبهى حلله، وتناول قبعته وخرج إليه، فسأله عن سر ذهابه وعودته بهذه السرعة الفائقة، وعما إذا كان قد حصل الدّيون المستحقة، فرد عليه بالإيجاب، فعاد شوكون يسأله عما اشتراه لأجله بقيمة ما تم تحصيله، فأجابه فنغ شوان قائلاً :" كنت قد تركت تقدير ماينبغى شراءه من متاع ضرورى لبيتك، فلما تأملت الأحوال جيدًا، نظرت فوجدت لديك أكداس الذهب والفضة، وفى حظائرك مالايحصى من الخيل والجياد، بينما قد ملكت يمينك صفوفًا متراصة من السرائر والمحظيات والجوارى الحسان، ولم يعد ينقص بيتك من المتاع شيئًا سوى البر والعدل والإحسان، فاشتريت لك منه الشيء الكثير."، فسأله شوكون: " ماذا يعود علىَّ من ذلك؟"، فأجابه:" قد نظرت فوجدت إقطاعك بمنطقة شودى ضئيلاً للغاية [كأنه بيت عائلة قليل المساحة متواضع الأركان ومع ذلك] فأنت لاتبذل للمقيمين هناك مايليق من الرأفة والعناية الواجبة بوصفك الأب الحانى والسيد الحامى حمى قومه، بل تتعامل معهم بمنطق التاجر الساعى وراء الربح، ولكى أصحح مفهوم العلاقة قررت أمرًا من تلقاء نفسى لكنى تحدثت باسمك فأمرت بحرق المستندات والصكوك وتنازلت عن الديون المطلوبة، وجعلتها منحة للأهالى، فتهللوا وهتفوا لكم بدوام العز والبقاء، فكانت تلك أحسن وسيلة للفوز بخير متاع وهو العدل. " فابتأس شوكون، وقال ساخطًا: " فالأمر إذن، ماقد حصل! "

الجزء السادس من الفصل نفسه

فلما دارت دورة الأيام، وانقضى من الزمان عام، حدث أن التقى شوكون بملك تشي، فقال له جلالته أثناء اللقاء بأنه لم يعد من المقبول أو اللائق [حسب الأصول]

بالنسبة له وهو الرجل الجالس على عرش تشى بأن يستبقى إلى جواره الرجل نفسه الذى عمل رئيساً للوزراء إبان حكم والده الملك الراحل [وكان المقصود من ذلك تنحية شوكون عن منصبه!] فلم يكن أمام شوكون إلا أن يذهب إلى إقطاعيته الكائنة بمنطقة شودى، فبينا هو على الطريق وقبل أن يبلغها بحوالى مائة لى تقريباً، خرج الأهالى واصطفوا على جانبى الطريق يحملون صغيرهم ويسندون كبيرهم فى انتظار وصوله، ومال شوكون على فنغ شوان وقال له:" هاقد رأيت بعينى رأسى اليوم ماشتريته لى بالأمس من الرحمة والعدل."، فأجابه قائلاً:" الأرنب الماكر يحفر لنفسه ثلاثة جحور، لينجو من خطر الموت مرة واحدة، وليس لك إلا جحر واحد، فلا أظنك تهنأ بالأمان يقظاناً أو تحلم بالهناءة نائماً، فائذن لى أن أهيئ لسيادتك الجحرين الباقيين." وهكذا أعطاه شوكون خمسين عربة وخمسمائة (جين) [مائتى جنيه] من الذهب والفضة وأوفده إلى دولة وى [الواقعة غرب البلاد] ليقوم بالمناظرات والدعايات السياسية اللازمة لاتمام خطته، فلما التقى فنغ شوان بجلالة الملك هوى – حاكم وى – قال له:" قد بلغك أن دولة تشى قامت بإبعاد رئيس وزرائها شوكون ونفيه فى البلاد، فأول من تستضيفه من الدول ستتمكن من تحقيق موارد مالية وفيرة وتأسيس جيش قوى." وبالفعل فقد استجاب ملك وى لهذا التصور وقام بإخلاء أرفع منصب قيادى فى حكومته وذلك بنقل رئيس الحكومة من مكانه ليتولى منصب قائد عام القوات المسلحة، وأوفد بعثة تحمل مائة عربة فخمة وهدايا ثمينة إلى شوكون، بالإضافة إلى خطاب تكليف رسمى له من قبل الملك، وأسرع فنغ شوان بالسفر إلى شودى ليقول لـ "شوكون": " إن ألف جين من الذهب [خمسمائة وزنة] هدية لها قيمتها بمناسبة تكليفك لدى البلاط الملكى وكذلك فإن مائة عربة تجرها جياد مطهّمة تعد صلة كريمة وسفارة راقية، ولابد أن دولة تشى قد بلغتها أنباء ذلك [الكرم ذائع الصيت] ." وتردد الرسل ذهاباً وإياباً بين ملك وى والسيد شوكون دون أن يبدى هذا الأخيرأية موافقة على التكليف الموجّه إليه، أما ملك تشى فقد أحس بالارتباك هو ورجال دولته عندما بلغتهم هذه الأخبار، وأسرع جلالته بإيفاد " تايفو " [أحد كبار الموظفين] إلى شوكون محمّلا بأكثر من ألف جين ذهباً، وعربتين مزخرفتين على نحو

بديع، وسيفًا بحمالة وخطاب اعتذار من جلالته شخصياً، موقعًا عليه بإمضائه، ونص الخطاب، جاء فيه .. [اعلم أنه قد جانبنا الصواب فيما قررناه بشأنك، ولئن كنت قد أسأت إليك فقد حلّ عليَّ سخط الأسلاف، ووقعت فى شرك الضلال بما دبره حسّادك ومبغضوك، وبعد، فحاضر صفحك أنبل من سابق إساءتى إليك، وأرجو أن تحضرك ذكرى من تقدست أضرحتهم من سادتنا الملوك الأقدمين (وأستحلفك بتلك الذكرى) أن ترجع إلى بلدك، لتقوم على شأن الآلاف المؤلفة من بنى وطنك] هنالك أسرع فنغ شوان إلى شوكون لينصح له بأن يبادر إلى تقديم طلب عاجل للملك يرجوه فيه أن يرسل إليه بأوانى القرابين المقدسة الخاصة بأضرحة أجداده من الملوك السابقين؛ كى يلحقها بما ينوى أن يشيده من معابد ملكية فى شودى، فلما تم بناء المعابد ذهب فنغ شوان إلى شوكون ليقول له:" قد صارت لك الآن ثلاثة جحور، فطب نفسًا واهدأ بالاً ونم قرير العين! "

الجزء السابع من الفصل نفسه

ويقى شوكون فى منصبه رئيسًا لوزراء البلاد فوق العشر سنوات، مرت بغير أدنى قدر من القلاقل أو الاضطرابات فكان الفضل فى ذلك لما سار عليه من انتهاج السياسات والخطط التى وضعها فنغ شوان.

لما شرع شوكون فى تنفيذ سياسة التحالف

لما شرع شوكون فى تنفيذ سياسة التحالف مع المحور الشمالى الجنوبى، حضر إليه "كونسون هونغ " (أحد مواطنى دولة تشى) وقال له:" أرى ياسيدى أن من الأحسن أن توفد أحد رجالك إلى دولة تشى ليقف على طبيعة [سمات شخصية] حاكم البلاد هناك (الملك جاو) فإذا ما أشارت الاستنتاجات إلى ميوله الإمبراطورية التوسعية، فلعلك تدرك من الآن استحالة قبولك للعمل تحت إمرته وزيراً فى دولة

التحالف، وبالتالى يتضح لك عدم جدوى السعى لتنفيذ السياسات الرامية إلى عقد التحالف، أما إذا كشفت الاستطلاعات عن ضعفه وسقوط همته، فلابأس من أن تواصل لتنفيذ سياسات التحالف حتى وإن أعضل بك الأمر معه ولن يكون قد فاتك من الوقت الكثير."، فرد عليه شوكون قائلاً: " لامانع عندى، وأرجو أن تبادرفوراً بالسفر لتقوم أنت بمراقبة الأمور عن كثب."

الجزء الثانى من الفصل نفسه

فلما أذعن "كونسون هونغ " وتهيأ للرحيل، قام وأشرف على قيادة عشر عربات فسافر بها إلى تشين، وما أن بلغ نبأ ذلك إلى حاكمها جلالة الملك جاو، حتى فكر فى أن ينتهز فرصة اللقاء به ليوجه إليه إهانات لفظية، وعندما مثل "كونسون هونغ" بين يديه، سأله الملك قائلاً :"ما مساحة إقطاعية شودى ؟"، فأجابه بأن محيطها يبلغ مائة لى فقال له الملك بتهكم:" إن محيط الأراضى التابعة لى تبلغ ما يزيد على الألف لى، ومع ذلك فلا أجسر على أن أعادى أحداً فما بال شوكون يريد أن يعادينى ولما تزد أرضه عن بضعة الأميال التى ذكرتها لى؟"، فرد عليه "كونسون هونغ " قائلاً من المعروف عن شوكون أنه يصادق الحكماء والنابهين، أما جلالتكم فلا يؤثر عنكم شيئًا من ذلك". فسأله الملك عما يقصد بميل شوكون إلى الحكماء، وماهى صفاتهم ، فأجابه:" إنهم أولئك النفر الذين يتمسكون بما هو حق وصدق وعدل، دون خضوع لصاحب نفوذ، ولايتملقون ذوى السلطان، والذين إذا علت أقدارهم صاروا السادة والملوك عن جدارة ،فإذا تردّت مكانتهم، استنكفوا أن يذلوا أعناقهم للناس، وعمومًا فليس بين الناس جميعًا من تتحقق فيهم هذه الخصال سوى ثلاثة فقط، [هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن] النابهين القادرين على إدارة شئون الممالك على أساس من العدل، حسب وصايا وتعاليم (الحكيمين) "كوانجون " و"شانيانغ " فهم الذين يخططون للسياسات التى ترفع من قدر أمرائهم إلى مرتبة الملوك، وترقى بمكانة ملوكهم إلى مصاف الأباطرة العظماء، وليس هناك من هذا النوع من النابهين سوى

خمسة فقط، وعندما يلجأ سادة الممالك من ذوى الهيبة والسلطان والملك الواسع إلى إهانة الرسل، فلن يملك هؤلاء إلا أن يقتلوا أنفسهم بأيديهم ويلوثوا بدمائهم القمصان الملكية الناصعة، فأنا واحد من أولئك الذين يبلغ عددهم عشرة أفراد." فضحك حاكم تشين وقال لكونسون هونغ ـ فيما يشبه الاعتذار ـ لاأدرى ما الذى يثيرك إلى هذا الحد، فإنما قد أردت أن أتجاذب أطراف الحديث معك، وليس بينى وبين شوكون سوى الإخاء والمودة الصادقة، وكل ما أرجوه منك هو أن تنقل إليه أصدق مشاعرى وأخلص تحياتى."، وهنالك أومأ كونسون هونغ برأسه علامة الطاعة والإيجاب.

الجزء الثالث من الفصل نفسه

ويستحق كونسون هونغ أن يعرف بين الناس بصفته كريمًا ، عفيفًا، عزيز النفس، مثلما يستحق ملك تشين أن يوصف بأنه الرجل القوى الذى يحكم دولة قوية أما شوكون فلم يزد عن كونه واحداً من كبار الموظفين [من ذوى الأملاك والثروات الطائلة] أما ما يؤثر عنه من إقرار لأصول المعاملات ومراعاة للعدل والكرامة والإباء، فقد كان الفضل فيه لما قام به كونسون هونغ من دور نشيط، وهذا بالضبط هو ما يؤهل هذا الأخير للقيام بدور المبعوث الذكى بكل جدارة وتفانٍ .

لما تكلم لوجون ليان مع شوكون

تحدث "لوجون ليان " إلى شوكون، فقال له : " هل تحب الحكماء حقًا ؟، قد كان فى قديم الزمان واحد من الوجهاء يدعى يونمن [تحدثت عنه سير التاريخ بأنه ...] كان يتكفل بأمر النابهين [فمن ذلك أنه] قام برعاية "جياوتش" [أحد التابعين له]، وكذلك فعل الشيء نفسه الوجيه الأمثل "يانغ ديتس" الذى أخذ على عاتقه رعاية الأكفاء والموهوبين، حتى أنه كان يطعمهم ويكسوهم مما يأكل ويلبس، فحفظوا له جميل صنيعه معهم. وكادوا يبذلون له أرواحهم لرد الجميل، فأنت أوفر مالاً وأعز

جـاهًا من "يونمن " و"يانـغ ديتس" ومع ذلك فليس هناك من يبـذل لأجل خـاطرك أدنى جـهد."، فأجابه: "هذا لأنى لـم أجد بعد مثل أولئك النابهين، فلو كنت قد عثرت عليـهم، لفزت بولائـهم وتفانيـهم من أجلى."، فرد عليه لوجـون ليان قائلاً :" فى حظـائرك مـائة جواد من أفضــل الســلالات لكل جــواد كـسوة من الكتان وقد امتلأت الآنية بالذرة والأعلاف [فـهل أغدقت على أحـد مثلما فـعلت مع جيـادك ؟] ولئن كان فى قـصـرك عشـر مـحظيـات، لكل واحـدة منـهن ثوب مطرز، بـأبهى زينـة وخـادمـات تطفن عليـهن بأطباق شهية وأكواب أصفى شراب [فهل أنعمت على أحد بمثل هذا الكرم ؟] ثم إنك ـ فى كل ذلك ـ ابن زمانك الحاضـر الذى تقتنى فيه الجياد وتعشق فيه المحظيات، ففيم انتظارك لحكمـاء مـضـى زمانـهم، فمن ثم أقـول لك إن مـا تبديه من حب وإكبـار لأهل الحكمة محض كلمات جوفاء."

لما كان شوكون فى طريق عودته

لما كان شوكون عـائدًا إلى تشى التى سبق لها أن لفظته، فقد وجد فى استقباله رجـلاً يدعى " تان شـيـتس" تقـدم منه وحـيـاه قـائلاً :" لعلك تجد فى نفـسك شـيـئًـا من الضغينة تجاه الحكماء والنابهين بدولة تشى!" فأجابه:" هذا صـحيح تمامًا."، فقال له "تان شـيـتس ":" وهل يشـفى غليلك أن تثـأر لنفسك بقتلهم جـميـعًـا ؟"، فلمـا رد عليـه شوكون بالإيجـاب، قال له:"[يقـال فى الأمثـال ..] للأمور عـواقب لا راد لهـا وللطبـائع مـبـادئ لامـحـيد عنـهـا أتفـهم مـعنى هـذا القول ؟"، فلمـا أجابه شـوكون بالنفى، وراح يوضح له المغـزى قـائلاً:" إن العـاقـبـة التى لاراد لهـا هـى الموت، وأمـا الأسـاس الذى لايتبدل فى جوهر الطبـائع فـهو مـحـاباة الناس للغنى القـادر ومـجافـاتهم للفقير المعدم [ذلك هو مـغـزى مـا ذكرته لك آنفًـا!] فـإن شـئت أن أضـرب لك مـثـلاً بما يجـرى فى الأسـواق والمتاجر فـانظر كيف يكون السـوق مزدحمًـا فى أول النهـار ثم يصـير بلقعًـا خـاليًـا من البـاعة الجـائلين فى آخـر الليل، أترى السـبب فى ذلك أن الناس تقـبل على الشراء نهارًا وتمقته ليلاً، كلا، بل إنهم إذا رغبوا فى الشراء قـصدوا المتاجر صـباحًـا،

حتى إذا مر الوقت بين بيع وشراء وجاء الليل، نفدت السلع وخلت الحواصل من البضائع وهجر الناس الأسواق زرافات ووحدانا، [فتأمل ذلك .. وتبصر] وانزع ما في قلبك من ضغائن." وبالفعل فقد تناول شوكون قصاصات الأوراق التي سطرعليها أسماء مبغضيه والمتحاملين عليه، فمحا الأسماء كلها، ولم يعد يطرق باب الحديث حول هذا الموضوع بعد ذلك أبداً.

لما التقى الملك شيوان بالزاهد الحكيم

لما التقى الملك شيوان – حاكم تشي – بالزاهد الحكيم " يانشو "، قال له: "تعال هاهنا أمامي يا "يانشو" !"، ورد عليه يانشو باللهجة نفسها آمراً:" بل أقبل أنت ياجلالة الملك وقف أمامي!، فتغير وجه الملك من الغضب، وضج الحاضرون جميعًا وصار المتحلقون حول جلالته يقولون للرجل:" ما الذي دهاك حتى ترد على الملك الذي أمرك أن تمثل أمامه بأن يذهب هو إليك ويقف قبالتك؟! أما عرفت أنه الملك «سيد الناس جميعًا، وما أنت إلا مجرد واحد من الرعية! ،"فأجابهم يانشو قائلاً : " إن ذهابي إليه (لو ذهبت) تملق وطمع في جاه بينما إن امتثاله بالوقوف بين يدي تواضع ومودة للحكماء."فزاد غضب الملك واشتد هياجه وهو يجيب قائلاً :" من الأكثر استحقاقًا للتوقير والإكبار الملوك أم الحكماء ؟"، فلما رد عليه يانشو بأن الحكماء هم الأجدر بذلك سأله الملك عن السبب في هذا وعلى أي أساس يبني ذلك التقدير، فانطلق "يانشو"يقول له:" هناك، بالطبع منطق يحكم مثل هذه التقديرات [لكن دعني أقص عليك حكاية قصيرة، فقد] قامت دولة تشين، فيما مضى بمهاجمة تشي، وأثناء القتال، أصدر حاكم تشين أوامر تقضي بإعدام كل من يحاول أو يشرع في قطع الأشجار المحيطة بمدفن المفكر والفيلسوف الراحل" ليو شياوي " بحيث يعد الحكم بذلك نهائيًا غير قابل للطعن أو النقض على أي نحو كان، وفي الوقت نفسه أصدر حاكم تشين أيضًا قراراً آخر متزامنًا مع الأمر السابق ذكره وينص على "مكافأة من يأتيه برأس

ملك تشى بمنحه عشرين ألف أوقية ذهبًا خالصًا، وإلحاقه بمركز وظيفى مرموق فى الدوائر الحكومية العليا؛ ففى ذلك ما يدل على مدى التبجيل والتقديس والاحترام الذى حظيت به رفات رجل حكيم مما لم يتوافر لرأس ملك على قيد الحياة." وهنا أطرق الملك بوجه عابس ولم ينطق بشىء.

الجزء الثانى من الفصل نفسه

وتحدث المجتمعون حول الملك إلى الزاهد الحكيم يانشو قائلين له: " تريث فى أحكامك أيها الزاهد (الفيلسوف)، أما قد علمت أن جلالة الملك يمد سلطانه فوق أراضٍ شاسعة [تحوطها ألوية وكتائب وتحرسها آلاف مؤلفة من العربات العسكرية] وأن له المعابد المشيدة [وله تدق النواقيس بأجرامها الهائلة المعلقة] وأن كل من تحت السماء من أهل الحكمة [بما فى ذلك أشهر المجادلين والمتناظرين] والداعين بين الناس بالحق والعدل،جميعهم بغير استثناء قد قصدوا أعتابه الملكية ولم يستنكفوا أن يهتدوا بنصحه وإرشاده، كما لم تأبَ دولة من الدول التى فوق الأرض أن تخضع لنفوذه وتأتمر بأمره [وتأتيه طوعًا بما يحتاج أن يفرضه عليها قسرًا] ، فالكل مستجير به ملتجئ إلى عونه ومساندته، أما الحكماء [الذين تتحدث عنهم] فإن أعلاهم قدرًا يمشى بين آحاد الناس على قدميه ويقيم بأطراف الحقول والمزارع، أما أدناهم مكانة، فيسكن الأحراش ويهيم فى البرية، أو يقبع عند مداخل الأزقة والحوارى الضيقة [وضيع الشأن، حقير المنزلة] فليس الحكماء، والزهاد على شىء مما يستوجب التوقير والإكبار!"

الجزء الثالث من الفصل نفسه

ورد يانشو قائلاً: " مال بكم الرأى وجانبكم الصواب؛ أما عرفتم أن الأمراء

والحكام فى زمن الإمبراطور الأكبر "يو" [مؤسس عرش أسرة "شيا" الحاكمة] كانوا يقومون على شئون إماراتهم ودويلاتهم مهتدين فى ذلك بمبدأ "مراعاة التقاليد الأخلاقية النبيلة " ومستندين إلى ماشاع بين الجميع من تبجيلهم لرجال الحكمة والأماجد والنبهاء، وهكذا [فقد كان ذلك هو المبدأ الذى بواسطته] جرت ترقية الملك شون من مجرد عامل زراعى يجوب المزارع والمحلات البعيدة إلى مرتبة الإمارة. وقد بلغ عدد الحكماء [من هذا النمط [فى زمن الملك تانغ] أسرة شانغ الملكية] ثلاثة آلاف فرداً، أما فى زماننا هذا فلم يعد هناك من الملوك الجنوبيين الذين تسبق أسماءهم ألقاب: " المتواضع"، "المسكين "، " الخادم الفقير" سوى أربعة وعشرين حاكمًا فقط، وهذا فى حد ذاته دليل واضح على أن التسويات والمساوامات السياسية قد جاءت بأوخم العواقب،حتى صار الملوك والأمراء يتقاتلون ويزاحمون بعضهم بعضًا فى الاستئثار بحكم الدويلات أو الاستيلاء على عروش الأباطرة؛ فأبادوا الديار وشتتوا الناس وأفنوا القبائل والعشائر، ولم يعد هناك – من الأمراء – من يفكر فى أن يذهب ويقبع بجوار بوابات الأزقة والشوارع [كالحكماء والزهاد ، فيما مضى] وهو المعنى الذى نطالع شيئًا منه فى " كتاب التغيرات" حيث يرد النص التالى:" إذا ماتولّى المرء منصبًا مرموقًا دون جدارة أو استحقاق بموجب مزايا أو مواهب أصيلة ثم راح يتباهى بين الناس فخوراً بما أوتى من جاه وشرف ومكانة، فسوف يتطبع بطابع الصلف والغرور، وهى صفات قريبة من معانى النفاق والنذالة والكبر والهمجية، ومن ثم فالساعى إلى المجد بغير امتلاك لأسباب المجد قمين بالانكسار والمذلة، وكالباحث عن لذيذ العيش دون سند من خصال أو أخلاق، فدربه وعر، ومسالكه عسر ومصيره محتوم، بعد اللين، بالضيق والشدّة، ومن كسب مالاً أو جاهًا بغير جهد أو فضل، فالهوان قدره المقدور؛ ونكبته النكباء لاتزول .." [فمن ثم كان] المتشدّق بالفضل ليس له أى فضل، والراجى من دون سند للرجاء لايُنال له رجاء "؛ وكان الحكماء قديمًا حريصين على أن ينالوا المجد بما يبذلون من جهد حتى أن الملك " ياو" اضطر [لكثرة ماتراكم عليه من مشاغل] أن يستعين بتسعة من المساعدين،أما الملك شون الحكيم، فقد كان له سبعة من المعاونين، وكان للإمبراطور العظيم " يو"

خمسة من المعاونين، بينما تضاءل العدد إلى ثلاثة فقط فى عهد الملك تانغ ولم يحدث على مر الزمان أن ترقى إلى أوج المجد من لم يتزود بزاد الحكمة، فمن ثم لم يرَ الملوك عيبًا فى طلب العلم والنصح والمشورة، ولم يتحرجوا عن استصواب آراء العامة والدهماء إن نطق فيهم ناطق الحكمة؛ فكان سلوكهم هذا هو سبب ذيوع شهرتهم وبلوغهم آفاق المجد بما وطدوا أنفسهم عليه من مبادئ سامية وما اكتسبوه من أخلاق وفضائل، ومن بين الملوك والأباطرة الذين ساروا على هذا النحو: ياو، شون، يو، تانغ، أون.

ولقد كان يقال دائمًا [فى مأثور الأمثال] :" إن الخفى الباطنى من الأمور هو الذى يحدد ويسود على الظاهر الملموس منها، وكل مالايعلم له بداية يصبح هو الأساس لكل بداية." إن كل من يسبر غور الأشياء ويعى منطلقاتها، هو وحده الذى يفهم مسار تطورها، ويبلغ فى ذلك مابلغه القديسون والعلماء من تمكن وفهم أسرار العلم وبواطنه، [... وإن كنت أعجب لشىء] فإنى أعجب لمن ينكر الخير والصواب لمن يسلك ذلك السبيل! ومما يذكر عن [الفيلسوف الحكيم] لاوتسى فى هذا الصدد، قوله:" لا [بلوغ لـ...] رفعة وتوقير بغير [سابق عهد ومقام فى] مذلة وتحقير، ولامجد لمن لم يسقط فى قاع الحضيض." وهكذا يطلق الملك "خو" على نفسه لقب "الضعيف "، "المسكين"، "الحقير" انطلاقًا من مبدأ التوسل بالضعة والمذلة بلوغًا لأرفع مقام شريف؛ ذلك أن جلالته يختار لنفسه لقبًا لايطلق إلا على من تدنت مكانته من العامة والبسطاء، أو ليس ذلك دليلاً على استعداده للنزول إلى أدنى موقع اجتماعى يمكنه من التطلع بعين التبجيل إلى مرتبة الحكماء الزهاد ؟، إن ذلك هو ميراث العلم والحكمة والزهد من " ياو" إلى "شون" ومن بعدهما إلى "يو" والملك تشنغ حاكم "جو" وأخيه الأصغر الذى خلفه على عرش البلاد والملك "كندان"، فأولئك هم الملوك الحكماء، الذين أشاد الناس على مر الأجيال بسيرتهم وفضلهم، وفى هذا ما يكفى لتبيان مدى ما يناله الحكماء الزاهدون من احترام وتقديس ".

الجزء الرابع من الفصل نفسه

تنهد الملك شيوان عميقًا، وهو يقول: "كيف يمكن لملك أن يقف هذا الموقف غير اللائق ؟! لكنى أنا الذى جلبت على نفسى كل ذلك، وكنت جديرًا بالذم والتوبيخ، وقد سمعت منك اليوم يا " يانشو" ما بصرنى بحقائق الأشياء، وأرجو أن تقبلنى منذ اللحظة واحدًا من تلاميذك وحوارييك، وسيطعم كلانا، أنا وأنت طعامًا واحدًا، وتركب فى تجوالك عربة تجرها الجياد، وتلبس زوجتك وبناتك أفخر الثياب".

الجزء الخامس من الفصل نفسه

اعتذر يانشو بأدب، قائلاً : " إذا كانت تصفية الشوائب عن حجر الماس تستوجب تغيير ملامحه وإعادة تشكيل حالته الخام الطبيعية فهى لاتعنى فقدانه لقيمته، بل تعنى تغيير شكله الظاهرى، وإذا قدر للحكيم الزاهد المقيم فى القفار الوحشية أن [يلتحق بوظيفة مرموقة] ويحظى بدخل هائل وثروة وافرة فسيسعد بذلك كثيرًا؛ لأنه لايكره الشهرة والثروة والنفوذ – أصلاً – لكنه سيخسر روحه ويبدّل جوهره، [وكل ما أرجوه يامولاى، أن ..] أعود إلى بلدتى، وأمضغ طعامى على مهل، كأنى أتلذذ بالتهام أصناف من اللحوم، وأمشى على الطرقات هانئًا سعيدًا كأنى أركب عربة فارهة، وتمتلئ روحى بالثقة والرضا، كأنى صاحب ثروة وجاه عريض، أعيش حياة سعيدة هادئة، لايراجعنى أحد فى آرائى سوى جلالة الملك، الذى لن أتوانى عن أن أبذل له كل الإخلاص والصدق (والآن) وقد فرغت من ذكر أهم مافى جعبتى من الكلام، فأرجو أن يأذن لى الملك فى العودة إلى مسقط رأسى حيث أرجع إلى بيتى وحجرتى الصغيرة." ثم انحنى بجسده راكعًا، واستأذن الملك فى الانصراف.

الجزء السادس من الفصل نفسه

كان يانشو صادقًا فى رضاه مخلصًا فى قناعته، وقد آب أويًا حسنًا إلى نقى طبعه وأصيل جوهره، فسلم من الخزى طوال حياته.

لما وقف السيد واندو أمام القصر الملكى

وقف السيد "واندو" أمام القصر الملكى يريد مقابلة جلالة الملك شيوان حاكم تشى، فأرسل إليه جلالته من اصطحبه إلى داخل القصر، [فلما سئل الرجل عما يريده من المقابلة] قال:" أريد أن أسأل أولاً إن كان جلالة الملك يفضل أن يلقانى وأنا أسرع إليه الخطى كأنى طالب منفعة أوساعٍ لمآرب ذاتية، أم يتكرم جلالته بالإسراع نحوى (بوصفه) تكريمًا لى كأنى واحد من الحكماء والنابهين ؟ ، فراح الحاجب يسأل الملك فى هذا الشأن فأجابه:" دع الرجل يتقدم إلى على مهل وسأستمع إليه [مثلما أستمع إلى العلماء] وآخذ بمشورته ورأيه." وأسرع جلالته بنفسه للقاء السيد واندو عند بوابة القصر، فاستقبله وأدخله معه، وهو يقول له:" إن شخصى المسكين لن يتوانى عن التفانى فى خدمة الأحياء والأموات جميعًا، فأنا أتقدم بالقرابين والنذور لأجدادى [عسى أرواحهم ترضى عنى] مثلما أدافع عن وطنى وأحمى عرضى، وقد بلغنى أنك آتٍ بصادق الرأى وخالص النصيحة فقل ما شئت ولا تثريب عليك." فرد الرجل، وقال:" لاتصدق يامولاى ما يصل إلى أسماعك لأنه لايذاع عندك إلا أكاذيب ملفقة، ولئن كنت أنا واحدًا من الأحياء فى زمنك، فإنما قد شهدت أيامًا مضطربة وفوضى عارمة، وخدمت تحت إمرة الحمقى والخبالى، فكيف أصدقك القول وأخلص لك النصح!" وعند هذا الحد تغير وجه الملك من الغضب وتكدرت نفسه للغاية.

الجزء الثانى من الفصل نفسه

وسكت "واندو" قليلاً ثم قال:" كانت أحب الأشياء إلى قلب جلالة الملك الأسبق "هوانكون" الاجتماع إلى الأمراء وكثرة التودد إليهم، فاستطاع [بهذه الطريقة] أن يضبط أمور الممالك فأقطعه الأمراء الكثير من الأراضى، ونصبوه ملكًا عظيمًا وسيداً حاميًا للدويلات كلها، وللحق يامولاى، فإن جلالتك تتشابه مع الإمبراطور "هوانكون" فى أربع خصال.": فسر الملك شيوان كثيرا وقال: "وأين أنا من ذلك الإمبراطور العظيم وأنّى لى أن أشترك معه فى أربع خصال وأنا قليل العلم بليد الذهن خامل الفطنة والذكاء، أحاول قدر جهدى أن أصون بلادى وأحميها من المخاطر وأشعر أنى مقصر حتى فى القيام بحق هذا الواجب الأساسى" ، فرد عليه واندو قائلاً :" على رسلك يامولاى، بل إنك تجمتع مع جلالة الإمبراطور فى أربع خصال حقًا، ذلك أنك تحب تربية الخيول وتقتنى الكلاب وتعاقر الخمر، وتهوى النساء مثلما كان يفعل تماماً، لكن الفرق الوحيد بينكما أنه كان يجالس الحكماء ويقربهم إليه وليس هذا من جملة عاداتك."، فأجابه:" وماذا أصنع إذا كان زماننا خلواً من الحكماء؟"، فقال واندو: "وزماننا أيضًا لم يعد فيه ذلك الصنف الجيد من الخيول التى كان يربيها الإمبراطور المذكور ومع ذلك فحظائرك تمتلئ بالجياد التى تجر عربتك الملكية ولديك العديد من الكلاب برغم أن السلالات الجيدة التى اشتهر الإمبراطور بتربيتها لم تعد موجودة اليوم، وفى قصرك السرائر والمحظيات أشكال وألوان وليس من بينهن ربات الحسن أو صاحبات الصون والعفاف مثل أولئك اللائى كن يقمن فى الخدور فى سالف الزمان وكل ما فى الأمر يامولاى أنك لاتحب الحكماء، فلماذا تشغل نفسك بأمرهم؟" ، فرد عليه بقوله:" إن "شخصى الضعيف " يحب بلده وشعبه ويهتم بكل شئونه، ويرى من ثم أن الحكماء هم خير سند لسياسة أمر البلاد."، فقال له محدثه:" لكن اهتمامك يامولاى بشئون بلدك وحبك لشعبك يكاد لايرقى إلى درجة اهتمامك وحبك لقطعة من الحرير طولها ذراع واحدة.: فدهش الملك وسأله عما يقصد بذلك فأجابه:" أريد أن أقول لجلالتك أنك إذا أردت أن تصنع لرأسك عمامة قصدت الحائك ليصنعها لك، وأعرضت

عن كل أوفيائك وأصدقائك المتحلقين حولك، وذلك لأنك تعلم أن الحائك هو الوحيد الذى يقدر على إتمام ما كلفته به بحكم تخصصه وتجربته ومهارته، فإذا ما عرض أمر من أمور الحكم ومسئولياته، قصدت إلى حاشيتك وأصفيائك، فاتخذت منهم الوزراء دون غيرهم من الناس، فلهذا قلت إن ذراعًا من الحرير [تصنع به عمامة ..] أهم عندك من الدولة والأهالى" وهنا خفض الملك رأسه، وقال معتذرًا:" قد جانبنى الصواب،إذن!" ثم إنه تخير خمسة من الحكماء وولاهم مناصب رسمية (كبرى)، فاستقرت أحوال دولة تشى وسارت الأمور فيها سيرًا حسنًا.

لما أوفد ملك تشى رسولاً

أوفد الملك شيانغ رسولاً من طرفه إلى سيدة القصر الحاكم بدولة جاو [زوجة الملك هوى حاكم جاو ووالدة الملك شياوتشين الذى تسلم العرش صغيرًا فصارت الأم وصية على العرش وحكمت البلاد] ليبلغها التحية وأطيب الأمنيات، فلما مثل الرسول بين يديها بادرته قبل أن يفض الرسالة بوابل من الأسئلة:" كيف أحوال موسم الحصاد هذا العام؟ وهل أضرت الفيضانات الموسمية بالمحاصيل أو الأهالى ؟، وكيف صحة جلالة الملك ؟" فاستاء المبعوث وتكدر خاطره للغاية وقال لها " قد تم إيفادى إلى جلالتك تنفيذًا لتكليف رسمى من قبل ملك تشى، ومع ذلك لم يكن السؤال عن أحوال الملك هو أول مشاغلك واهتمامك ،بل بدأت بالاستفسار عن أحوال الحصاد والمزارعين،فهل من المقبول أن يفتتح السؤال بذكر السفلة والدهماء، ويتذيل بالإشارة (العابرة) إلى الأماثل والعظماء ؟"، فأجابته:" ليس الأمر على ذلك النحو،بل ما أقصد إليه أن كمية المحصول السنوى إذا تعرضت للنقصان، فلن يجد القصر الحاكم وسيلة لإعاشة الأهالى، وإذا أصيب الأهالى بنكبة هائلة من جراء ذلك، فكيف تثبت أركان العرش الحاكم ؟ ؛ لذلك فمن المعقول أن نبدأ شجرة الاستفسار بما رسخ من جذورها وليس بما تشعب من فروعها." ثم إنها استدركت تسأل المبعوث:" كيف أخبار العالم الزاهد "جون ليتز" المقيم لديكم بدولة تشى؛أهو بخير؟، وإنه واحد من ذوى السلوك

المتفرد بين الناس؛ فهو يطعم الجائع الذى يعدم القوت، ثم إنه يطعم الشبعان أيضًا، ويمد رداءه فوق العرى المسكين مثلما يكسو المتأنق فى رداء من حرير وإنى لأعجب كيف يقصى مثل هذا الرجل عن الموقع الجدير به!حيث يستطيع أن يكون خير عون لجلالة الملك فى إعاشة الأهالى وسياسة شئون حياتهم.

وأسألك أيضًا عن الزاهد الحكيم بأرضكم، ذلك المدعو "إيانزى " ما أخباره؟، وما كان لى أن أستفسر عن مثل هذا الرجل لولا ما عرف عنه من خصال مثالية، إذ إنه يؤنس وحشة البائسين، ويواسى المنكوب ويعين المكروب ويجدد الثوب الخلق لمن تهرأت أسماله ويمد الأسمطة وينصب الموائد لكل ذى مسغبة، فلماذا لايقربه البلاط الحاكم ويجعله ضمن خاصته؟!، لعله يعين الملك على تنفيذ خططه الرامية إلى الارتقاء بالأحوال العامة [وزيادة الحرث والنسل] وماذا عن ابنة بلادكم البارة الزاهدة "بايكون إينر" التى نزعت أقراط أذنيها وأضربت عن الزواج حتى بلغت من العمر عتيًا لتبقى خادمة وفية لأبويها العجوزين، ولا أدرى ما الذى يمنع القصر الحاكم عندكم من أن يتكرم عليها بالإنعام اللائق ويمنحها لقب ومكانة" السيدة الملكية الجليلة " عساها تدعم سياسة الحكم التى تستهدف إشاعة روح البر والطاعة بين الأهالى. ولئن كان اثنان من الحكماء يستبعدان من شغل المناصب الرسمية؛ وواحدة من أشهر الفتيات برًا ووفاءً، تحرم من شرف الدخول فى معية الصفوة المقربة من البلاط الملكى، فما الذى تستندون إليه فى إدارة سياسة البلاد، وما الذى يضمن لكم القيام بواجب القيادة والرعاية لمصالح شعبكم ؟ [قل لى بهذه المناسبة ..] أما زال العالم الزاهد "زيكون" على قيد الحياة، ويعيش أيامه فى مقر إقامته ببلدة "أولينغ" أمازال كعهده زاهدًا فى الجاه والسلطة والنفوذ [مما لدى الملك] مترفعًا عن الدعوة إلى الإصلاح وضبط الأحوال [بين الناس] متجافيًا عن مواثيق التحالف مع أمراء الدويلات. [ذاهلاً عن الدنيا بأسرها] مما يجعله مثالاً [فاسدًا] للامبالاة وسقوط الهمة والاستخذاء ، ثم إنكم تتركونه حيًا إلى الآن ولا تزهقون روحه ؟! ".

لما ذهب رجل من تشى وقابل أحد الدعاة

ذهب رجل من تشى وقابل أحد دعاة المذاهب الفكرية، الملقب بـ "تيان بيان"، ثم قال له: "بلغنى ياسيدى أنك رجل فاضل ذو خلق وعلم ومكانة وضمير حى لايقبل الضيم، فإن كنت قد قررت [كما أشيع، وحسب ماتروج له من أفكار..] أن تهجر الوظائف العامة، فمرحى! وإنى ليشرفنى أن أقوم على خدمتك [تعظيمًا وإكبارًا] . فسأله تيان بيان: " من أين لك بهذه الأقاويل؟ "، فأجابه: " ابنة جارى هى التى أبلغتنى بذلك." فسأله:"، فلما استفسر منه الداعية عما يقصد أجابه الرجل قائلاً: " إن أحد جيرانى له ابنة جميلة، كانت قد أشاعت بيننا أنها نذرت ألا تتزوج أبدًا، ثم لما بلغت الثلاثين من عمرها فوجئنا بأن لديها سبعة أبناء، [فلما نظرنا فى الأمر وجدنا أنها] وبرغم عدم ثبوت قيام العلاقة الزوجية، إلا أنها فاقت المتزوجين أنفسهم فى الإنجاب، حتى صار لديها أكثر مما يصير للمرأة المتزوجة من أبناء، وهأنت اليوم تدعو الناس إلى عدم الالتحاق بالوظائف [زهدًا وتقشفًا] برغم مافى خزائنك من أجولة الطعام المكدسة، والمئات من الأتباع والأشياع الذين يأتمرون بأمرك، ويذهبون أينما أطلقتهم ليأتوك بما تريد، فأنت فى ظاهرالقول قد هجرت الوظائف الرسمية [مجاهدة وتعففًا] لكنك – فى واقع الحال – قد استغنيت عن العمل الوظيفى بما حزت من ثروة ونفوذ." ولم يلبث تيان بيان أن حنق على الرجل وطرده شر طردة.

لما جمع كوانيان أتباعه

جمع " كوانيان " [أحد الدعاة للمذاهب الفكرية] أتباعه وتلامذته إليه، بعد أن أصدر الملك حكمه عليه بالإعدام، وقال لهم: " أيكم يحب أن يرافقنى فى مسعى طلب اللجوء إلى كنف أحد أمراء الدويلات المجاورة، طلبًا للنجدة ؟"، فصمتوا جميعًا، ولم ينطق لهم ناطق، فانكسر قلب كوانيان من الأسى، وبكى بكاء مرًا حتى تحدّرت الدموع على وجنتيه، وصار يقول لهم: " وأسفًا على العلماء ذوى الفضل والحكمة..

كيف يسهل العثور عليهم بينما يتعذر الاحتفاظ بهم وتوليتهم أرفع المناصب الرسمية ؟"، وهنالك رد عليه " تيانشو "[رئيس وزراء دولة وى، فيما بعد] قائلاً:" إن العلماء ذوى الفضل والحكمة لايجدون من الطعام مايشبعهم؛ وفى حظائرك أصناف وألوان من الداجن الذى سمن وزاد عما مدّت به الأسمطة لك، وقد ملكت يمينك مالايعد من أجمل السرائر والمحظيات؛ يخطرن فى قمصان حريرية ويتزرن بأشرطة من قصب موشّى ساهمات الطرف، ينسجن الدمقس بأصابع مخملية، غير أن العلماء الزهاد يربأون بأنفسهم عن الانغماس فى تلك الملذات، ثم إن المال فيض من غيضك، حتى زاد عن حاجتك؛ فى حين أن الموت، عند العالم الحكيم، أمر ذو خطر وشأن؛ فأنت تأنف أن تمنح الزاهد بعض ما يتيسر لك، ويرخص لديك لأنه زاد عن حاجتك، بينما تطلب منه أن يبذل لك مالايهون عنده، فالأمر – إذن – ليس على النحو الذى ذكرت، والمسألة لاتقاس بدرجة السهولة التى تعثر فيها على العالم [المثقف] الحكيم دون أن تحتفظ به أو توليه منصبًا رفيعًا."

لما حضر سوتشين إلى دولة تشى

حضر سوتشين إلى دولة تشى قادمًا من دولة يان، والتقى عند الباب الجنوبى لمدينة " هواجان" بجلالة الملك " مين "، حاكم البلاد، وقال له جلالته: "مادمت قد حضرت إلينا، فأحب أن أطلعك على ماقام به حاكم تشين من إرساله المبعوث "ويرانغ" إلى ، حاملاً قراره الرسمى بمنحنا اللقب الإمبراطورى، وأريد أن أعرف رأيك فى هذا الموضوع؟ "، فأجابه سوتشين قائلاً:" أراك تتعجل الأمور بسؤالك هذا؛ لأنه من السابق لأوانه التكهن بما سينجم عن هذا الأمر من مزايا أو مساوئ ذلك أن جلالتك لو أقدمت على رفض الإذعان لما تمليه دولة تشين، فسوف تجلب علينا وعلى نفسك المتاعب بما ستصبه فوق رأسنا من سورات الغضب؛ أما إذا أبديت استجابتك لتصوراتها، فستثير استنكار باقى الدول واستياءها، وأرى أنه من الأفضل لجلالتكم، أن تقبلوا ماتعرضه عليكم تشين [فيما يتعلّق بالتحالف معها لشن هجوم مشترك ضد

دولة جاو] وكى يتسنّى لها تسوية الإجراءات المتعلقة بإعلان نفسها إمبراطورية عظمى؛ وذلك دون أن تشرع فى استخدام اللقب الإمبراطورى الذى تعرضه عليك؛ حتى تستميل إلى صفك تأييد الناس فى الممالك المختلفة فإذا مانادى ملك تشين بنفسه إمبراطوراً ووافقته على ذلك كل الدويلات التى تحت السماء، فلن يبق أمامك إلا أن تعلن موافقتك وارتياحك؛ لأن الأمر سيكون - عندئذ - فى حكم تحصيل الحاصل، باعتبار أنك إنما وافقت بعد اجماع الكل وأنك لم تكن تريد الخروج عن قرار الأغلبية، وهكذا، يصير القبول باللقب الإمبراطورى أمراً سائغاً دون أية عقبات أو أضرار، أما إذا قوبل إعلان ملك تشين نفسه إمبراطوراً من جانب الإمارات والدويلات الأخرى بالرفض والاستنكار، فلك حينئذ أن تعدل عن موافقتك لقبول اللقب الإمبراطورى؛ فتكسب تأييد الناس لك [والتفاف] أفئدتهم حولك، وهذا أعظم وأكبر عماد لدوام الملك."

لما تحدث سوتشين إلى الملك مين

تحدث سوتشين إلى جلالة الملك "مين" حاكم تشى، فقال له: " إذا افترضنا - جدلاً - أن صارت الدولتان تشى وتشين جناحى الإمبراطورية الغربية، فأى البلدين كفيل بأن يثير فى الناس المهابة والاحترام؟"، فأجابه الملك: " لابد أن الناس ستنظر نحو تشين بكثير من الاحترام طبعاً فعاد سوتشين يسأله: " فإذا نحينا مسألة اللقب الإمبراطورى جانباً، فأى البلدين يحظى بين الممالك بالحب والتأييد ؟"، فأجابه: " لن يحظى بالحب والتأييد سوى تشى، ذلك أن الناس لن تشعر نحو تشين إلا ببالغ الكراهية!"، وسأله سوتشين قائلاً: "وعندما تتلقب كلٌ من تشى وتشين باللقب الإمبراطورى وتتحالفان للإغارة على أطراف أخرى فهل تظن أن هدف الهجوم فى هذه الحالة سيكون دولة جاو أم سونغ؛ وأى هاتين الدولتين يمكن أن يكون هدفاً أسهل منالاً وأكثر نفعاً للأطراف المغيرة ؟"، فأجابه: " من الأفضل، فى هذه النقطة - أن نهاجم سونغ!"، فقال له سوتشين: " هذا طبعاً هو ما يتم النظر إليه حسب ما تنص

به معاهدة التحالف بين الأطراف المهاجمة [لكن الواقع ستكون له أحكام مغايرة – ذلك أن قيام جناحى الإمبراطورية فى تشى وتشين، لن يضمن لكلا الطرفين أنصبة متعادلة فى نقاط كثيرة، فمثلاً، ستظل تشين [فى ظل التسمية الإمبراطورية] هى التى تحظى بالهيبة والاحترام والتقدير بينما يهمل شأن تشى تماماً، أما إذا أسقطت التسمية الإمبراطورية، فستنال تشى كل الحب والتأييد من جانب الدويلات والممالك بينما تبوء تشين بالازدراء والكراهية، فإذا أضفنا إلى ذلك أنكم ترون غزو سونغ أنفع لكم من مهاجمة جاو، فإننا نكون بإزاء مواقف دقيقة تتطلب حسن التقدير، وإنى [بناء على ذلك] أرجو من جلالتكم التنازل – لو ظاهرياً – عن التسمية الإمبراطورية وما يرتبط بها من سلوكيات؛ مماقد يقرب ما بينك وبين الدويلات والممالك حتى لو تطلب ذلك خرق معاهدة التحالف وما يستتبعه من إقصاء وإزاحة لنفوذ تشين دون الصدام معها تجنباً لأى منافسة أو ضغط تمارسه هذه ضدنا لانتزاع الهيمنة ، بل تستطيع جلالتك أن تستغل الظروف الناشئة عن ذلك لمهاجمة سونغ، فإذا تسنى لك احتلالها، أصبحت دولة "ويه" فى وضع ضعيف بما يتهددها من مخاطر قريبة من منطقة "ياندى " التابعة لها، فإذا تقدمت بقواتك لتحتل شمال نهر "هواى" تعرضت منطقة شرق دولة تشو لخطر محدق، ثم إذا تيسر لك التمركز فى غرب نهر "جى"، أصبحت قاب قوسين أو أدنى من منطقة "بيانى" التابعة لدولة جاو، فإذا تقدمت بخفة وسرعة نحو "إيندى" و "بنجى" فستكون قد أغلقت أبواب عاصمة دولة وى على نفسها من كل ناحية وكتمت أنفاسها، وبالطبع فإن تنازلك عن التسمية الإمبراطورية وهجومك على سونغ [كل ذلك] سيكون بمثابة إشارة واضحة لما يعتمل فى صدرك من تردد وتهافت نحو تشين، وهو ما سيسلط عليك الأهمية ويمنحك الاحترام والتقدير والشهرة الذائعة.

أما من ناحية دولتى يان و وتشو فلك أن تطمئن لأن أوضاعهما تفرض عليهما الولاء والخضوع، وهو ما سيخضع لك رقاب الإمارات والدويلات التى تحت السماء [وقد كان ذلك التصرف الذى قام به الملكان الحكيمان" تانغ" (مؤسس أسرة شانغ الملكية) والملك "أو" حاكم جو..] فاجعل لدولة تشين الاحترام – ظاهرياً – على أن

تدفع الدويـلات والممـالك إلى ازدرائها وكراهيتها ، فذلك هو ما يطلق عليه "استخدام طرق التحقير المرنولة لخلخلة بنـيان الاحترام الجليل [هدم الاحترام بمعول التحقير "] فلتنظر جلالتك فى هذا الأمر جيداً وتأمل !"

سـجـل تـشـى الخـامس

لما ذهب سوتشين إلى الملك مين

ذهب سـوتشـين إلـى الملك "مـين" حـاكم تشـى ، وقـال له وهـو يحـاوره فـى بعض المسائل الفكرية:

" بلغنى يامولاى، أن من بادر إلى تهييج الفتن وإشعال نار الحرب، كان مـآله فى آخـر المطاف إلى البؤس والانكسـار ، وأن من اجـتـهد فـى إحـاطـة الملوك بسـيـاج من الجفاء والعزلة، سينتهى حتمًا إلى الانكفاء داخل إسار العزلة المقيتة. [علمت أيضًا] أن من تمجد شـأنه وتألق نجمه فهو الذى يستند دائمًا إلى قاعدة من التـأييد، وأن من تباعد عن مبغضيـه هو [ذلك الذى] عرف كيف ينتهز الفرصـة المواتية، ولذلك فإن القديسين الحكمـاء لاينجزون أمرًا إلا بالاستناد إلى مرونة فى الفكر والسلوك، وهو ما يفى بالنهوض بهمـمهم دون إبطاء. [هكذا فإن] مرونة الفكر [التكتيك .. حرفيًا] والاستناد إلى أساس من الدعم والتأييد هما – معًا – المقودان اللذان يوجهان مسعى البشر على طريق الحياة، أما :

[– ١ –] انتهاز الفرصة المواتية، [– ٢ –] وإدراك طبيعة الأوضـاع القـائمة ، فـهما طريقتـان ناجعتان لتصـريف الأمور، فإذا قيل إن هناك من يقدرون على إنجاز المآثر الكبـرى دون حـاجة إلى مـرونة فى التـفكيـر أو سند من التـأييد وبغير مـراعاة للأوضـاع القـائمـة أو تقـدير للفـرص واللحظات الملائمـة، فـإن أمـثـال أولئك النفـر من الناس قليلون جدًا ."

الجزء الثانى من الفصل نفسه

" إننا لو تأملنا الأحوال جيداً لوجدنا أن أمضى السيوف لن تكون حادة بتارة بغير الاستناد إلى اليد التى تضرب بها، [حرفيًا= إن أمضى سيفين فى دنيا الشفرات القاطعة وهما "كانجين" و"مويا" لن يقطعا شيئًا إلا بإرادة اليد الضاربة وتقول الأسطورة إن هذين السيفين كانا فى الأصل رجلاً وامرأة تحولا إلى سبيكة معدنية شقت نصفين فخرج منها السيفان الشهيران وقد صارا نصلين قاطعين كأمضى ما تكون النصال] وكذلك فإن أشد السهام صلابة وأحد شفراتها مضاء لن تطلق فى صدور العدو بغير وتر وقوس فلماذا لم تغنِ عن السيف حدة نصله؟، ولماذا لم يعتد برأس السهم وحده نافذًا مسددًا ؟، والجواب عندى أنهما وبرغم كل ذلك فلا يمكن أن تكون لهما قيمة بغير المرونة [= التكتيك] والعون [ربما: الاستراتيجية؟!] لكن كيف لنا أن نجزم بصحة ما ذهبنا إليه ودقة معرفتنا به؟ ، والرد عندى جاهز وسأستند فى ذلك إلى رواية التاريخ نفسه الذى يحكى ما وقع فى سالف الزمان من أن دولة جاو لما قامت بغزو دولة "ويه" وحدث أن توقفت العربات العسكرية عن التقدم فى بعض الطريق، فواصل الجنود المشاة تقدمهم ، فلما ترامت الأنباء بذلك إلى عاصمة "ويه " ضج الأهالى وطالبوا دولتهم بالسعى فى وقف القتال وطلب السلام ، ولو بالتنازل عن بعض الأراضى، وكانت أبواب العاصمة قد حوصرت بالقوات المهاجمة التى استولت على اثنين من الأبواب المؤدية إلى وسط المدينة ، وصارت الأوضاع الماثلة تشير إلى حالة احتلال وقيل وقتذاك أن حاكم "ويه " شوهد وهو يهرول من أبواب القصر حافى القدمين، وهرع إلى دولة وى يقص على الناس هناك مأساته ويطلب النصرة. فأسرع الملك " أوهو" – حاكم وى – إلى درعه فتدرعها وإلى سيفه فشحذه وسار إلى دولة جاو يستثيرها لمقاتلته [فلما ثارت الحرب بينهما] صارت العاصمة هاندان – عاصمة وى – تعج بالخيل وعربات القتال، وصارت الأرض من النهر الأصفر حتى جبال "تايشين" تتلظى بنار الحرب ، وتتقلب فى مراجل الفوضى العارمة. لكن دولة "ويه" حصلت على العون الذى تريده، فجمعت ما تبقى لديها من

قوات وقصدت إلى منطقة "كانبين" فخربتها ثم اقتحمت أسوار مدينة "جونمو" ومهما قيل فلا يمكن أبداً الزعم بأن دولة "ويه" كانت أقدر وأقوى من "جاو" ، لكنا نستطيع إذا توسلنا بالتشبيه والمجاز أن نصور دولة "ويه" بالسهم ونشبه "وى" بالقوس، الذى لولاه لما اندفعت "ويه" صوب منطقة "هدونغ" [جزء من أرضها الأصلية] فتطهرها من القوات المعادية وتعيد سيطرتها عليها، فلما استولى الفزع على دولة جاو استجارت بدولة تشو التى أعانتها فى الحال حتى مكنتها من مهاجمة وى واشتبكت معها فى القتال عند منطقة "جوشى" ثم اخترقتها وبلغت مدينة ليانغمن ثم واصلت القوات زحفها حتى تمركزت فى إقليم "لينجون" [من أراضى وى] واستطاعت هنالك أن تسقى خيلها وفرسانها من مياه النهر الأصفر [فما كان يمكن أن تستطيع] دولة جاو مهاجمة وى، وأن تشعل الحرائق فى منطقة "تسيغو" ثم تستولى على مدينة "هوانشين" بغير الاستعانة [بدولة تشو] حتى يمكن أن يقال بأن تخريب "كانسبين" واقتحام "جونمو" والاستيلاء على "هوانشن" وإحراق "تسيغو" لم يكن يخطر على بال أىٍّ من" جاو " أو "وى" إلا أن كل ما حدث كان من دواعى سعادتها على أية حال ولئن سألت عن السبب فى ذلك فسأرد عليك بأن كل هذا يرجع إلى حسن تقدير دولة ويه للفرصة والأوضاع القائمة ثم سلوكها المرن واعتمادها على العون المضمون ، أما القائمون على دقة توجيه سياسات الدول فى زماننا هذا فليسوا كذلك، [على سبيل المثال فهناك الدولة ذات ..] القوات المحدودة [تسليحًا وكفاءة] التى تصر على مناوأة عدو بالغ القوة. [وهناك أيضًا الدولة ذات] الوضع العام الذى يتسم بالتفكك والضعف، وبرغم ذلك تتخذ من السياسات ما يثير سخط الناس وتذمرهم [ثم هناك الدولة ذات] القوات المنهزمة التى تستميت فى قتال لا طائل وراءه. وهكذا فإن، [– ١ –] استثارة سخط الناس مع ضعف التسليح وندرة القوة الضاربة. [– ٢ –] ومناوأة دولة قوية دون الاستناد إلى مساحة عريضة من الأرض. [– ٣ –] التخطيط القتالى لمواصلة العمليات برغم هزيمة القوات. كل تلك الطرق الستة لن تمكن الدول من تحقيق مطلب الترقى إلى النفوذ والهيمنة ، بل يباعد بينها وبين كل احتمال ممكن للوصول إلى هذا الهدف."

الجزء الثالث من الفصل نفسه

" وقد بلغنى أن رجل الدولة المحنك، والسياسى الداهية، هو من يستمد إرادته من إرادة وأمانى شعبه، وهو ذلك الرجل القادر على التنبؤ بالحرب قبل قيامها، وهو أيضًا المدرك لضرورة التكيف والمواءمة مع اتجاه تطور الأحداث، فى الدنيا كلها؛ ولذلك [فمن مقتضيات التزود بهذه المقدرة] ولابد [لرجل الدولة] ألا تنطوى نواياه على أية ضغائن تجاه الملوك والأباطرة عند عقد المعاهدات والتسويات المتبادلة بين الأطراف، وألا يسعى إلى إلحاق الهزيمة الشاملة بأعدائه عند الظهور عليهم وإخضاعهم؛ فتلك هى الطريقة التى يحمى بها نفسه من التعرض لحرب استنزاف قاسيةومن استصغار لشأن ونفوذ بلاده، فتتسع مساحة مملكته وتزداد طاقة الأمل فى تحقيق أحلامه. [ويحكى التاريخ أنه] عندما قامت فيما مضى من الزمان كلٌّ من تشى، هان، وى بمهاجمة دولتى تشين وتشو، فلم يكن القتال بينهم حامى الوطيس، ولابلغ حجم الأراضى التى تم الاستيلاء عليها [وتم توزيعها بالتساوى بين المنتصرين كغنيمة حرب] يضارع مساحة كلٍّ من هان، و وى مجتمعتين. ومع ذلك، فقد أنحى الجميع باللائمة على دولة تشى؛ لأنها كانت السبب فيما حلّ بكلٍّ من وى وهان من مصائب وأهوال، هذا بالإضافة إلى أنه عندما اشتعل أوار الحرب بين الدويلات والإمارات، واشتبكت كلٌّ من تشى و يان فى قتال مرير، قامت جاو بضم منطقة " جونشان " بينما اشتد القتال دون هوادة بين تشين وحليفتها تشو من ناحية؛ وبين هان و وى من ناحية أخرى، فى حين استعرت حمى الحرب بين كلٍّ من دولتى سونغ و يوى. وفى الوقت الذى اشتبكت فيه تلك الدول العشر الكبرى فى قتال مرير مع بعضها البعض وصار العدوان المتبادل شغلها الشاغل، فقد ظلت كلها ترقب أحوال وتصرفات دولة تشى بكل انتباه واهتمام؛ وذلك لأن هذه الأخيرة كانت تحرص أثناء توقيع الاتفاقيات والمعاهدات مع باقى الدول على استنبات ودعم أسباب التشاحن والكراهية والفتنة [هذا فى وقت السلم أما فى زمن الحرب فقد] كانت تعمل بكل جهد ممكن على إيقاع الهزيمة المهينة بأشد أعدائها قوة وبأسًا."

الجزء الرابع من الفصل نفسه

" ثم إن السبب الأساسى فيما يحل بالدول الكبرى من أزمات يكمن فيما تنطوى عليه نواياها من طموح الى آفاق النفوذ الإمبراطورى، أما السبب فيما ينزل بالدول الصغرى [الضعيفة] من نكبات فيرجع إلى مايساورها من هواجس تصور لها طمع الآخرين فى ثرواتها وتآمرها للنيل منها؛ فلذلك يحيق الخطر بالدول الكبرى، بينما تهلك الدول الصغرى فلا تقوم لها قائمة. وخليق بالدول الكبرى [ألا تكون هى البادئة بالعدوان بل] أن تبنى خططها على أساس دفاعى [يتلقى الهجوم أولاً ثم يقوم بالرد] فتصد الهجوم ثم تتقدم بثبات وإصرار نحو التخطيط لغزو الدول الجائرة [التى خرقت قواعد الحق والعدل] وهكذا يتضح أن سياسة تلقى الهجوم أولاً ثم الرد عليه ثانيًا "هى المقدمة التى تبررالقيام بالغزو اللاحق، حيث يتزايد عدد الأنصار وتتعزز القدرات القتالية، وهكذا، فإن زيادة عدد القوات المعاونة [من الخارج] وتعزيز عناصر القوة ومغالبة قوات دول صغرى أنهكها القتال [كل ذلك] جدير بأن يخلق قدرة قتالية فعالة وقادرة [عندما تسير الأمور وفق إدارة كل الأطراف المتحالفة] تستطيع الأكف أن تقبض على زمام مصالحها، فتلك - إذن - هى الطريقة التى تبلغ بها الدول العظمى مشارف المجد الإمبراطورى، دون أن ينازعها أحد فى ذلك فتتحقق لها الهيبة والنفوذ فوق الممالك. أما بالنسبة للدول الصغرى فإن أفضل ما تسلكه من سبل هو أن تلتزم جانب الحرص والثبات والهدوء على أن تقتصد كثيرًا فيما توليه من ثقة للإمارات والممالك، وأن تحافظ على رباطة جأشها واتزان موقفها نحو جيرانها الملاصقين لحدودها فتأمن معارضتهم ومناوأتهم لسياستها، ثم إن قدرًا من الحيطة والحذر تجاه الدويلات والإمارات، يمكن أن يحميها من مفاجآت الغدر والخيانة، وهكذا فإذا ما أتيح [للدول الصغرى] أن تأمن الخيانة من خارج حدودها، وتطمئن إلى عدم معارضة جيرانها الأقربين فقد أفلحت فى أن تتجنب مالاتحمد عقباه.

إن سوء الظن بالقوى الفاسدة يصون ودائع الخزائن الرسمية من الضياع [من أن تقرضه العثة] حتى لو ذبلت الأرصدة وتآكلت أطرافها، فإذا استطاعت الدول

الصغرى أن تلتزم هذا النهج طاوعتها المقادير ومصادفات البشائر السعيدة مقرونة بالخير العميم دون – حتى – أن تقرب القرابين أو تسبح بحمد الآلهة ، أو أن تقترض أكداسًا مكدسة من القروض الضخمة. ولذلك فيقال دائمًا "إن من جعل البر والتراحم هداية للسائرين، استحق أن يصير ملكًا فوق عرش الممالك، ومن سلك سبيل الحق والعدل اخلولق أن يرتقى مدارج المجد الإمبراطورى [فيصير إمبراطورًا] ، أما من راق كل نقطة دم وعرق حتى استهلك مقدرة قواته على القتال فقد هلك.

وقد يسأل سائل عن الأساس الذى بنينا عليه علمنا فى هذا الأمر واستندنا إليه فى أحكامنا، [وعندئذ نجيب بقولنا أنه قد ..] كان الملك فوتشاى حاكم دولة "أو" فيما مضى مغترًا بقوته وشديد بأسه فشمر عن ساعد الحرب وراح يثير الفتن والاضطرابات ولم يبالِ أن يهاجم مدينة "إينغ" - عاصمة دولة تشو – ويأسر ملك "يوى"، وبالطبع فلم يكن ليسير وحده فى طريق القتال دون أن يسحب وراءه رتلاً من الأمراء وحكام الدويلات، ومع ذلك بلغ به الأمر آخر المطاف، أن شهد نهاية مفجعة، حيث [وقع الجسد وضاع البلد] وصار هُزأة بين الممالك وعبرة لمن يعتبر وكان السبب فى كل ذلك سعيه الدائم لإثارة الفتن والأزمات معتمدًا على بعض عناصر القوة التى تميز بها ، وذلك كله رغبة منه فى الفوز باللقب الملكى الأفخم.

وقد كانت دولتى "لاى"[دويلة صغيرة فى عصر "الربيع والخريف " أطاحت بها دولة تشى] و"إينغ " – قديمًا – تدبران الدسائس والمؤامرات، بينما اشتهرت دولتى "تشن" و"تساى" بالبراعة فى فنون الخداع والتمويه ومع ذلك فقد بادت دولة إينغ دون أن تشفع لها علاقات التحالف مع "يوى"، وكذلك تضعضعت أركان دولة "تساى" وهى التى اتخذت من "جين " حليفة قوية. هذا وقد ضربت كلٌ من تلك الدول المثل فى البراعة فى استخدام الدسائس والمؤامرات والخداع على المستوى الداخلى. فى حين أنها أصاخت آذان الصدق لأقاويل وترهات الإمارات على المستوى الخارجى.

ومن كل ما سبق يتضح بجلاء لا لبس فيه أن كل ماأصاب الدول - صغرى كانت أو عظمى، ضعيفة أو قوية - من نكبات ورزايا ومحن، كان من الممكن جداً استخلاص البراهين والشواهد والمقدمات الدالة عليها والمؤدية حتمًا إليها."

الجزء الخامس من الفصل نفسه

"يقول المثل السائر: إن حمارًا أعرج يمكن أن يسبق حصانًا أصيلاً شاخ وكبر ونالت منه السنون، وإن فتاة ناهدة يمكنها أن تصرع الملاكم الجبار "منغ بن" إذا ما وهن منه الجسد وأثخنته الآلام." وبالطبع فإن مقدرة الحمير لايمكن أن تفوق الخيل، ولاطاقة أى فتاة صغيرة أو بنيانها الجسدى يمكن أن يؤهلها للتغلب على مصارع قوى البنية لكن المغزى هنا يكمن فى التدليل على أن [خطة] الانتظار والتريث حتى تخمد قوى الطرف الأقوى فى الصراع هى التى تفوز دائمًا، [وإذا نظرنا إلى ساحة الصراع الماثلة وجدنا أن ..] قوة الأمراء الآن متكافئة تمامًا وليس هناك من يريد أن يتنازل أو يتراجع، وليس هناك أيضًا من يملك أن يدمر خصمه ، أو أن ينتزع أى مكاسب منه [يستولى على أرضه] ، ولاهناك كذلك من يفكر فى التريث وتجميد حركة قواته ريثما تتبدد طاقة خصمه، وتصريف مشاعر الكراهية لتحل محلها إرادة المقاومة والعدوان ضد كل من حاد عن جادة الصواب وليس هناك من ينزع قناع الحرب ويعلى راية العدل والحق بما يعجل من فرص مغالبة الأمراء وقادة الدويلات والإطاحة بعروشهم. وعندما تنجلى للبصائر ملامح الكارثة التى ستكون قد حلت بالأمراء، وتنكشف [لكُم] تفاصيل الأوضاع، فتنأون بأنفسكم عن التعهد بالانضمام للتحالفات وتمتنعون عن مبادلة الأسرى، وعن أى تصرفات متهورة أو طائشة ويظل بإمكانكم دفع عجلة تطور الأمور إلى الأمام ، فإذا توثقت العلاقات المتبادلة بين الدويلات والإمارات، فليس لنا أن نبدى أدنى اعتراض، حتى لو بلغ الأمر حد التنازل عن الأراضى وإزالة أسباب المشاحنات والكراهية بين الإمارات بعضها بعضًا بما قد ينجم عنه من زيادة قوتها، فسيلزم عندئذ أن نفكر فى طريقة للاقتراب منهم،لماذا ؟،

لأنه وإن كانت أوضاع كل الأطراف تحتوى على ملامح قلق وقروح مشتركة [فإن ذلك يقارب بينها على نحو خفى وينفى شبهة التفوق لأحدها دون الآخر،إذ..] إن الحرب، أساسًا [وعلى العكس تمامًا] وسيلة لاقتناص المنافع والمغانم. وبالطبع فإنه لم يتيسرلنا أن ندرك تلك الحقائق إلا بما حدث من وقائع فى الماضى، بحيث كانت رحى الحرب قد دارت بين دولتى "تشى" و" يان" فى موقعة "هوانشيو" وكانت الدائرة على "يان" التى خرجت مهزومة تلعق جراحها بعد أن فقدت مائة ألف [...] من قواتها، وهنالك انتهزت القبائل الشمالية هذه الفرصة لتشن هجومًا غادرًا على "يان" المنهكة المفككة الأوصال إثرهزيمتها المبالغة وامتد الهجوم إلى إقليم "لوفان" حيث نهبت الحواصل والحظائر واستولت القبائل على قطعان البقر والجياد بأعداد هائلة، هذا وكان من المعلوم أنه لم يسبق أن قامت – على مرالتاريخ – أية علاقات بين تشى والقبائل الشمالية، ولاحدث بين قواتهما أى نوع من التحالف أثناء العمليات القتالية [ضد دولة "يان"] ، ولاحدث بينهما تبادل للأسرى كنوع من التنسيق ضد" يان "، ومع ذلك فقد تطابقت مواقفهما وتماثلت فى طبيعتها مع ما يقوم فى تلك الظروف من تنسيق وتحالف بين طرفين ضد ثالث، لماذا ؟ ؛ لأن الاتفاق الحاصل بين طرفين فى ملامح أزمة ذات سمات متقاربة يوحد بين أغراضهما القتالية ضد هدف مشترك سعيًا لتحقيق مآرب واستلاب مغانم. وهكذا يتضح مما سبق أن التحالف مع دول تتماثل معنا فى ظروفها وأوضاعها كفيل بضمان تحقيق مصالح طويلة الأمد، ولابد أن [سياسة] " الانتظار ريثما تتبدد طاقة الخصم الهجومية " خليقة بحث الإمارات والدويلات على الانضمام إلى صفوفنا والوقوف معنا فى وجه أعدائنا."

الجزء السادس من الفصل نفسه

"لذلك فإنه لاينبغى للملك الحكيم أو الوزير النابه إذا ما أراد [أحدهما] أن يجعل من السؤدد والشرف والنفوذ الأعظم فوق الممالك هدفًا أو غاية مرجوة؛ ألا يبادر إلى إشعال فتيل الحرب أو يسارع إلى المبادأة بالهجوم [ذلك أن] الحرب هلاك للبلاد وإتلاف وتبديد لموارد المدن والبلديات.

فإذا جمعت الظروف على دويلة أو إقليم هاتين الكارثتين [.. هما: خراب البلاد وتبديد الموارد] فمن الصعب جداً يامولاى، أن تطلب إلى الأمير القائم على شئونها أن يأتمر بأمرك ويتبع مشورتك [فمن النادر جدا أن يستمع لما تقول [برغم ماهو معلوم من أن الحرب هلاك وإتلاف وتبديد، فإنك تجد الحكماء والمثقفين والنابهين - إذا ما سمعوا أن حربًا قد قامت - حملوا ما جادت به خزائنهم من أمتعة وهرعوا بها إلى ثكنات الجنود ويتبرعون .. [للمجهود الحربى] بكل ما تجود به طاقاتهم، وتراهم يحملون آنية الشراب والطعام ويقيمون الولائم العامرة للجنود البواسل الذاهبين "للقاء الموت " بجسارة فى ساحات القتال، بل قد تغلى دماء الشهامة والكرم فى عروقهم، فيعمدون إلى عريش الأسواق والعربات فيحرقونها جميعًا فى بطون الأفران [لعمل الولائم الساخنة الشهية للجنود] هذا بخلاف ما يذبحون من العجول والأبقار [المخصصة أصلاً للعمل فى الزرع والحصاد] على شرف المقاتلين الشجعان [وهم يدركون] أن كل ذلك ليس فى مصلحة الجنود ، بل هو إضعاف وانتقاص من طاقتهم وقدراتهم.

ثم إن الأهالى يقومون قبيل الحرب [أثناء الإعداد لها] بالصلوات والابتهالات فى خشوع لأجل الذاهبين للقتال [وبعد انتهاء العمليات] يرسل جلالة الملك وفودًا خاصة من جانبه للقيام بتكفين الموتى وعمل الطقوس اللازمة لدفنهم، وعندئذ، يصير واجبًا على كل المدن والقرى التى تمر بها المواكب الجنائزية أن تقوم بما يلزم من إعداد لأوانى القرابين والأضحيات لآلهة الأراضى، حتى الأسواق والمحال يصبح لزامًا عليها جميعًا أن تغلق أبوابها ؛ كى يتفرغ عمالها لما يناط بهم من خدمات للجيش الملكى، فهذه كلها أمور من شأنها أن تعمل على تبديد مدخرات الخزائن العامة للبلاد وما يأتى اليوم الثانى من أيام القتال، حتى ترى الأنحاء كلها تغص بتوابيت الموتى وتجد العصى والدعامات، وحتى لو كان النصر من نصيب القوات فهو النصر الذى كلف ثمنًا غاليًا، الذى أخذ من الشقاء والعذاب والدموع ما يكفى أن يدمى قلب الإله نفسه. وتذهب الناس لوداع أمواتهم وقد أنفقوا فى طقوس القرابين والدفن آخر

ما تبقى فى حوزتهم من مال، بينما تجد أهالى الجرحى قد استنفدوا لمداواة قروح أبنائهم، أما الأصحاء العائدين من جبهات القتال بكل صحة وعافية، فيمرحون ويرقصون طربًا ويجتمعون إلى موائد اللهو والشراب قد صُفت عليها الأوانى والأطباق العامرة التى أنفقت لأجلها الأموال الطائلة، هكذا يتكلف أهالى الأحياء مثلما يتعلق برقبة أهل الموتى من الإنفاق، ويصير جملة مايصرفه الناس جميعًا فى مثل تلك الظروف، مبالغ طائلة من المدخرات والأموال التى لاتكفى لتعويضها عشرات السنين من دخل المحاصيل والحصاد، هذا بالإضافة إلى خسائر العمليات القتالية نفسها من أموال وأدوات قتال ؛ إذ تكون النصال قد ثلمت والرماح تكسرت والأقواس فقدت أوتارها والعربات انقلبت والجياد أنهكت والأسهم تفرقت بددًا فى الساحات والأركان، أما الدروع والمغافر [فحدث ولاحرج إذ تكون قد] تهشمت برغم ما أنفق لشرائها وصنعها من أموال عامة، هذا بالإضافة إلى ما يكون السادة المثقفون والمتعلمون وكبار الموظفين قد أخفوه واحتفظوا به فى خزائنهم الشخصية من أمتعة وأشياء ولايفوتك أيضًا ما يستولى عليه قاطعو الأخشاب وحراس الحظائر من مغانم متفرقة يجدونها متناثرة فى الساحات. [أرى أنه] من الصعب أن تطلب إلى أمراء دويلتين، تخربتا على هذا النحو أن يصيخا السمع إلى أية نصائح أو توجيهات.

وأرجو أن تلاحظ يامولاى، أن تكاليف مهاجمة المدن الحصينة تزيد أضعافًا مضاعفة عما ذكرت لك ، ذلك لأنه يصير من الواجب على الناس – فى هذه الحالة – أن ينهمكوا فى إعداد أدوات إخفاء الأسهم والأحجارالمعدة للقتال ، وأن يقيموا الأبراج ذات المزاغل فوق العربات الحربية [المعدة لمهمات الاستطلاع] ، وبالطبع فإنه يصبح من المطلوب أن ينخرط الناس جميعًا فى صفوف الخدمة العسكرية ، وأن يقيم معظمهم إقامة دائمة داخل الخنادق أو تحت الأنفاق، هذا دون أن تكل يد الصناع عن إعداد مايلزم من الأسلحة ومعدات القتال، بينما ينهمك الجنود فى عمل التحصينات والدشم والإنشاءات العسكرية المطلوبة، ويظل القادة ساهرين وقد أثقلت أجسادهم الدروع والخوذ الحديدية يرتدونها ليل نهار بحيث يقدرون على القيام بعملية

اقتحام المدينة الحصينة في أسرع وقت ممكن بعد إصدار الأوامر إليهم بذلك، ثم إذا صدرت الأوامر، رأيت القادة والضباط منهكين لكثرة ما بذلوا من جهد في التدريب والإعداد، وألفيت الجنود قد تساقطوا بين قتيل وجريح ، ومن ثم، فقلما نجحت عملية اقتحام لأسوار وخنادق المدن الحصينة عند أول محاولة، بل يتطلب الأمر عدة محاولات متتالية.

فلكل ذلك، أقول لجلالتك أنه لاينبغي لعاقل أن يبادر بالهجوم، ولاأجد ما أستند عليه من دليل سوى شاهد التاريخ، ذلك أنه لما ترأس القائد المظفر "جيبو" – فيما مضى من الزمان القديم – حملة هجومية [مشتركة بين الدول الثلاث: هان، جاو، وى] ضد كلٍّ من "فان" ، "جونشين" [دويلات قديمة] وذبح قادتها وأمراءها ثم خربهما حتى لم تعد تقم لهما قائمة فلما تم له ما أراد،سار بقواته تجاه منطقة "شيوى" حيث انطلق من هناك ليهاجم إقليم "جين يانغ" [التابع لدولة جاو] واستطاع أن يستولى على المنطقة والإقليم معًا؛ مما آثار فزع حاكم جاو- الملك شيانغ وقتئذ – حتى قيل إنه قد ضرب في هذه الحملة مثالاً رائعًا على القيادة العسكرية الناجحة ومع ذلك فقد انتهى به المطاف إلى الخزى والعار،إذ لقى حتفه وانهزمت بلاده شرهزيمة [سقط الجسد وضاع البلد = حرفيًا] وإذا سألت عن السبب، فسأجيبك قائلاً : إنه [جيبو] كان البادئ بالحرب والعدوان، فأباد "فان" و"جونشين" بعد أن خربهما تخريبًا وحشيًا. [هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن] دولة "جونشان " كانت - قديمًا - حشدت كل قواتها لملاقاة جيش التحالف بين دولتى "يان" و "جاو" والتقى الجمعان في موقعة تشانزى، من أرض جاو، حيث هزمت قوات دولة جاو ثم التقت قوات جونشان جهة الشمال، بقوات دولة يان حيث دارت الدائرة على هذه الأخيرة فانهزمت وذبح قائد جيشها. ومع أن حصيلة دولة جونشان من العربات العسكرية لم تكن تزيد عن الألف عربة، إلا أنها تمكنت من صد دولتين تملكان عشرة آلاف عربة، وانتصرت عليهما في معركتين متتاليتين، وهو مايعد أداءً رائعًا من الناحية العسكرية، إلا أن ماحدث بعد ذلك هو أن البلد انهارت تمامًا ، وفر حاكمها

إلى دولة تشى ورضى فى ذل وهوان، أن يعمل وزيراً لدى بلاطها الحاكم،ذلك لأنه لم يستطع أن يجنب نفسه آثار الحرب التى تتجاوز عواقبها التدميرية كل حدود المنطق وتستعصى على الضبط أو التحكم فى تبعاتها. وهكذا يتضح لجلالتك على ضوء ما ذكرت لك من وقائع فشل الحرب الهجومية ".

الجزء السابع من الفصل نفسه

"ولنتناول بعض الجوانب المهمة مما يطلق عليه فى زماننا فن الحرب [فن قيادة القوات] وأحدثك (فى بعض من هذه الجوانب) عن الهجوم وهو يعنى تحقيق الانتصار على نحو مستمر أثناء العمليات قبل انتهاء الحرب،أما "الصمود " فمعناه الحفاظ على أسوار المدينة الحصينة بحيث تبقى صلبة ومنيعة [فإذا ما تحقق هذان الجانبان] صارت الحرب جديرة بأن يقال عنها – وسط الممالك – إنها نموذج للحرب الجيدة، [ومع ذلك، فـ..] إن بلداً تعتمد اعتماداً كاملاً على قدرتها الفائقة فى تطبيق شروط الحرب الجيدة ، وفى الطريقة المثلى لاستخدام القوات العسكرية، ستجنى من ذلك أسوأ النتائج. وقد بلغنى أن أكثر الدول قوة وتحقيقاً للنصر فى ساحات القتال، لاتلبث أن تتعرض لسقوط أكبر عدد من جنودها فى براثن الموت، وبالتالى تصبح قريبة إلى بلوغ المرحلة القصوى من الإنهاك وضعف القدرة القتالية بين الممالك كلها، كما أن أشد الدول صموداً وراء الأسوار الحصينة، هى التى يتفاقم الجزع والقلق بين سكانها ، مما يكشف ثغرات جدرانها ويفضح نقاطها الضعيفة، فيسقط جنودها المحاربون على خطوط النار ويهلك مواطنوها المقيمون داخل الأسوار، وتتعرى ثغرات حصونها، [فكل ذلك] مما لا يرضى به أو يتمناه أى حاكم لبلاده.

واسمح لى أن أقول لك ياسيدى بأن كل رامٍ بسهم وقوس يصوب بدقة وإحكام وبراعة قناص نحو قلب الهدف المعلم بدائرة حمراء فى وسطه، ورغم أن دائرة منتصف الهدف هذه لم تعادِ أحداً ولم تمس إنساناً بسوء، إلا أن المسدد رمية فى

قلبها يعد من خير الرماة، والمخطئ تصويبه يتوارى فى خجل، فالكل من صغير إلى كبير، غنى وفقير، يريد قلب الهدف بدقة وإجادة، لماذا ؟، لأن تلك الدائرة الحمراء ترمز لصعوبة التصويب، وتتحدى مقدرة الرماة على الدقة والإحكام.

إن البلاد التى تحدها أسوار صامدة منيعة وتملك القدرة على أن تخوض غمار مائة حرب وتنتصر مائة مرة، هى البلاد التى تبدو للناس كقلاع يصعب اقتحامها، بل تمثل أيضًا أكبر مكمن للخطر، ومن ثم يتولد فى نفوس الناس جميعًا مشاعر الحقد والكراهية والعداوة تجاهها [مما يعرضها لمواجهات دامية نتيجتها أن ..] تنكشف ثغرات أسوارها، وتنثلم عزيمة جنودها، وتحتشد سحابات القلق والتوتر فى أجواء علاقاتها بباقى الدويلات، وهكذا فإنه ينبغى للسيد العاقل أن يتنكب عن ذاك السبيل؛ ذلك أن الإفراط فى استخدام القوات وتركيز الاعتماد الكلى عليها، سينتهى آخر المطاف إلى الضعف والهوان وإن بدأ فى بواكيره الأولى بالقوة والعنفوان، وهو مالا ينبغى أن يقع فى محظوره رجل الدولة الفطن.

إن الملك الحكيم ورجل الدولة العاقل يستطيعان أن يفرضا سلطانهما فوق الدويلات والإمارات والممالك جميعًا دون حاجة إلى تحريك أية قوات من ثكناتها؛ ذلك أن كبح جماح القوة العاتية، ورد النفس عن الاغترار والتبجّح والتكبر كفيل باجتلاب أسباب الرخاء والحصول على أثمن المغانم، والظهور على الخصم فى النزاعات المسلحة [إذا ماالضطر الملك الحكيم لخوض القتال] دون حتى أن يأمر بتحريك صف واحد من قواته إلى ساحات المعارك، [ويستطيع الملك الحكيم أن] يجبر المدن الحصينة على الاستسلام دون حاجة إلى دفع عربات الاقتحام والعربات ذات الأبراج ومزاغل المراقبة ، ومن ثم تسرى فوق البلاد شروط الطاعة لسياسته ويتحقق له النفوذ والسيادة فوق الممالك فى وقت وجيز جداً [.. ولقد جاء حين من الدهر كانوا فيه] يسوسون شئون بلادهم بأكبر قدر من السؤدد [مستخدمين فى ذلك] أقل مايمكن من الوقت والتكاليف؛ سعيًا لتحقيق أفضل وأبقى المصالح، ومن ثم فيمكن الخلوص إلى نتيجة مفادها أن [التخطيط القتالى القائم على] تلقّى الهجوم أولاً، ثم رد

الضـربة ثانيًا، هـو الذى يضـمن تجنيـد وتطويـع أمـراء وحكام الدويلات والإمـارات [تحت سلطانك] ."

الجزء الثامن من الفصل نفسه

" .. وقد تناهى إلى سمعى رأى حكيم مفاده إنه لايشترط فى الطرق الهجومية أن تعتمد على استخدام القوة العسكرية؛ ذلك أنه مهما بلغ حجم القوات المقاتلة، فإن [الطرق التى يفكر بها] القصر الحاكم يمكن أن تتمكن من صدها وهزيمتها، حتى لو كانت - تلك القوات - تحت إمرة أكفأ القادة (من أمثال "هيلو"، " أوتشى ") فمن الممكن النيل منها والإيقاع بقيادتها.

إن سورًا عـاليًا يبلغ ارتفـاعه ألف " جـانغ " [أربعـة آلاف متـر] تستطيع بكل سهولة أن تقوم (بالتخطيط) باختراقه وأنت فى مأدبة ملكية عامرة داخل أروقة القصر [وليس فى ساحة المعارك] ، وكذلك فإن عربة حـربيـة استطـلاعية ارتفـاعها مـائة " تشى " [ثلاثـون مترًا] يمكن تحطيمـها - بخـطط تُعقـد فى حجرة نوم جلالة الملك [وليس على خطوط النار] .

ولن يكون من العسير - بعد اليوم - أن تصدح الموسيقى بأعذب الألحان، وتنتشر الدفوف والعيدان وتشـخشـخ المصلصلة، وينطلق صفير الناى، وينداح النغم فى أذن كل سـامع، ويتردد الرنين فى أعمـاق النفس [حتى بعد انتـهاء العزف الموسيقى بزمن طويل] وتتـسـع الأراضى، وتمتـد السـيـادة الوطنيـة فوق كل شبـر من تراب الوطن، ويظلل النجاح كل مسعى، فيتهادى الأمل غضًا فتيًا، كمـا تتثنَّى أعطاف فتيات راقصـات وهن يتبعن إيقا ع النغم برشاقة وجمـال، ويعبق الجو بعبير المرح وتنتشى النسمـات بعرف من رائق الهناء والسرور، ويأتيك من كل فج أمراء وشيوخ يسـجدون عند أعتابك ويقسمون لك يمين الولاء.

إنه ليس من الشرف فى شىء أن يوزع القصـر ألقابًا جليلة ودرجات فـخرية على

[كل من هب ودب من] الناس فى كل أرجاء المملكة، وليس من قبيل الكرم أن يكون المال أوالنفوذ هو وسيلة ضبط الأمور وتدبير الأحوال الداخلية فى البلاد، ولذلك لاتثبت دعائم الحكم الملكى الجليل إلا فى الممالك التى يشقى فيها الناس ويكدحون كى يهنأ ملوكهم بالراحة، وتضطرب أحوال الدهماء كى يلتذ الأباطرة بالاستقرار وتحبط فيها مؤامرات الأمراء والوزراء ، فتنعم البلاد بعهود مديدة من الأمان. فإذا سألتنى - جلالتك - عن الأساس الذى بنيت عليه تقديرى هذا، فإنى مجيبك بأن القاعدة التى يستند إليها قيام وازدهار الحكم الملكى، هى أن استقرار المجتمع ورفاهية الإنسان (فى الحياة) يتوقفان على ما ينعم به جلالة الملك من استقرار وسعة عيش ورخاء بال، أما الكد والمشقة والقلق والاضطراب، فتلك كلها من نصيب العامة وأهل الممالك كافة، فإذا ما تعرضت البلاد لغزوة عاتية، أمكن صدها ودحرها، وإذا حلت بالمملكة نازلات الدواهى والنوائب، صار من المستطاع تفاديها واجتناب شرورها، وإذا اندلعت دسائس الأمراء ومكائدهم، وأتيح إجهاضها فى مهدها، فطال بقاء الملك، ودامت أيام رخائه على طول المدى فإن سألتنى عن حجتى التى أستند إليها فى هذا الزعم، فجوابى عليك [فيما سأقص من] أحداث تاريخ مضى ودروس زمان قد انقضى [نطالعها] فيما أقدم عليه الملك "هوى" حاكم وى، من محاولة هجومية ضد "هاندان " - عاصمة جاو - معتمداً على ما توفر له من أسباب القوة حيث قد امتد نفوذه وسلطانه فيما حاز من أراضٍ شاسعة المساحة ، وما اصطف تحت إمرته من قوات متدرعة بالخوذات والمغافر بلغت ثلاثمائة وستين ألفًا من المقاتلين، فلما تمكن من احتلالها تقدم غربًا حتى حاصر "دينيانغ " [مدينة على الحدود بين دولتى "وى " و"تشين"] ، ثم تحالف مع اثنى عشرأميراً واتفق معهم على أن يذهبوا بصحبته إلى أمير دولة جو للتآمر ضد دولة تشين الواقعة جهة الغرب ثم إن حاكم تشين الملك "شياكون " تولاه الفزع وأصابه الأرق ليالٍ طويلة، عافت نفسه الطعام (خشية تعرض بلاده لهجوم مضاد) وأصدر أمرًا بإنشاء وسائل عسكرية هجومية فوق كل الأسوار، ورفع درجة الاستعداد الدفاعى عند الخطوط الحدودية، بل إنه أوفد إلى تلك المناطق عدداً وافراً من الفدائيين والقادة والجنود استعداداً للهجوم المتوقع من جانب دولة

وى. وفى تلك الأثناء ذهب " شانيانغ " إلى الملك شياكون، وقال له:" إن دولة وى من الدول ذات الإنجازات الكبرى والمآثر العظيمة، وهاهى قد مدت شبكة اتصالها بكل البلاد التى تحت السماء، وعقدت تحالفًا مع اثنى عشر أميرًا واتفقت معهم على لقاء أمير دولة "جو"، وترتيبًا على ذلك فلن يكون فى وسع تشين أن تقاوم دولة كبرى فى حجم وى فما المانع أن ترسلنى إلى ملك وى فلعلى أقدر على إيقاع الهزيمة به وببلاده [دون قتال] فلما أجابه الملك شياكون إلى ذلك، قام وسافر إلى وى حيث التقى هناك بالملك هوى، وقال له:" إن لك من المآثر والإنجازات ياجلالة الملك المعظم مالايخفى على أحد، وقد مدت أمامك كل الطرقات فى كل البلاد تمشى فى كل الأنحاء كيف شئت، لكنك آثرت أن تعقد التحالف مع اثنتى عشرة إمارة تقع فى عدة دويلات معروفة للجميع من بينها مثلاً : "سونغ "و"ويه" و"تسو" و"لوقو"و"تشن" و"تساى"؛ وهذه كلها وكثير غيرها، يسوقها الملك الأعظم أمامه كما يسوق الراعى أغنامه بعصاه، ومن ثم فليست هذه هى الدول التى يعتمد عليها أو يعتد بها لتأسيس إمبراطورية كبرى تحت سلطانكم الأعلى، وأرى أن الأوفق والأنسب لجلالتكم هو أن تبادروا إلى عقد تحالف مع جارتكم الشمالية دولة يان ، ثم تقوموا بمهاجمة دولة تشى الواقعة إلى الشرق منكم، وهو ما سينتج عنه إذعان دولة جاو لنفوذكم فإذا تم لكم ذلك التحالف مع دولة تشين جارتكم الغربية ، ثم أرسلتم حملة تأديبية إلى الجنوب ضد دولة تشو، هو ما سينجم عنه خضوع دولة هان لسلطانكم. وعندما تعقدون العزم وتبيتون النية على غزو دولتى" تشى "و"تشو" فإنكم تتفقون فى ذلك – للصدفة الطيبة – مع مطالب وأمانى الناس جميعًا، وهو ما يعنى رجحان كفة اعتلائكم عرش الحكم الإمبراطورى. هكذا يمكنكم من الآن الاستعداد لهذا الأمر، وأنصح لجلالتكم، بناء على ذلك، أن تقوموا بإعداد ما يلزم من الملابس الرسمية المميزة بشعار الإمبراطورية، ثم تدبروا الحيل والمؤامرات للإيقاع بدولتى "تشى "و"تشو"."، ووقع الكلام موقعًا طيًا فى نفس جلالة الملك "هوى" حاكم وى، بل إنه راح يجتهد فى إعادة بناء القصر الملكى وتوسيع منشآته بحيث تتلاءم مع أبهة وفخامة القصور الإمبراطورية وأمر الملك أيضًا بإعداد وتفصيل القمصان الإمبراطورية ذات الشارة الحمراء المميزة برسم التنين، ورفع

الرايات والأعلام التى تحمل الشارة نفسها، وإعداد مايلزم الجنود فى المعارك من بيارق وألوية ذات الرمز الإمبراطورى ، وبرغم أن مثل تلك البيارق والألوية كانت مخصصة – أصلاً – للأمراء وحكام الدويلات، إلا أن جلالته أمر بضمها تحت قيادته، وهو الأمر الذى أثار غضب كلٍّ من تشى وتشو، وترتب على ذلك أن هرع كل الأمراء إلى دولة تشى وانضموا إلى صفوفها، وتحركوا تحت قيادتها فى حملة تأديبية ضد دولة وى، فاقتحموها، وقتلوا أميرها وأهلكوا جيشها الذى كان يضرب به المثل فى القوة والضخامة، وأسقط فى يد الملك "هوى" فهرع إلى قصره حافى القدمين وأصدر قرارًا عاجلاً بإيقاف القتال وتجميد تحركات القوات ، ثم أسرع بنفسه صوب الشرق طالبا التفاوض السلمى مع "تشى "، وهو ما أسفر عن التزام الأمراء أماكنهم وتجميد تحركاتهم ضد وى، وهنالك حصل ملك تشين بكل يسر وبساطة [وهو مسترخٍ،عاقد الكفين (حرفيًا)] على الأراضى الواقعة وراء نهر "شى" دون أن يقدم الشكر على ذلك،لما تفضل به ملك وى من خدمة جليلة قدمها له بكرم بالغ؛ وهكذا يمكننا القول بأن "شانيانغ" عندما شرع فى ترتيب وشرح خططه وأفكاره التآمرية مع ملك تشين فإن فصول المؤامرة كانت قد أعدت فوق المقاعد داخل ردهات القصر ونضجت بالحوار لدى المأدبة الملكية العامرة، ثم تشكلت ملامحها الكاملة والنهائية فى أروقة القصر الحاكم، ومع ذلك، وقبل أن تتحدد تلك الملامح بصورة قاطعة، فقد كان قائد قوات وى موثوق اليدين تحت الأسر فى دولة تشى،دون أن يتمكن حتى من استخدام العربات المهاجمة والعربات ذات الأبراج الاستطلاعية، بينما كانت الأراضى المترامية وراء نهر "شى"، قد وقعت بالكامل فى حوزة دولة تشين وصارت تحت سيادتها التامة، فذلك هو ما أشرت إليه فيما سبق من أن هزيمة الأعداء يمكن أن تتم تحت قباب القصور الملكية، وأن القادة يمكن القبض عليهم وأسرهم حتى وهم بين صفوف قواتهم، وكذلك يسهل اقتحام الأسوار العالية من فوق موائد المآدب الملكية، هذا بالإضافة إلى ما يمكن أن يقوم به المرء من تدمير للعربات العسكرية المعادية دون حتى أن يضطر إلى القيام من مجلسه أو مغادرة مكانه.".

ملحق" ا "

تقويم العصور التاريخية الصينية :

أسرة شيا ، حوالى القرن ٢١- القرن ١٦ ق.م

أسرة شانغ ، حوالى القرن ١٦- القرن ١١ ق.م

أسرة جو (جو الغربية ١٠٦٦- ٧٧١ ق.م)

(جو الشرقية ٧٧٠- ٢٥٦ ق.م)

(عصر الربيع والخريف ٧٧٠- ٤٧٦ ق.م)

(عصر الدول المتحاربة ٤٧٥- ٢٢١ ق.م)

عصر تشين ٢٢١- ٢٠٧ ق.م

عصر خان (خان الغربية ٢٠٦- ٢٤ ميلادية)

(خان الشرقية ٢٥- ٢٢٠ ميلادية)

عصر الممالك الثلاث (وى ٢٢٠- ٢٦٥ م)

(شو ٢٢١- ٢٦٣ م)

(وو ٢٢٢- ٢٨٠ م)

أسرة جين الغربية ٢٦٥- ٣١٦ م

أسرة جين الشرقية ٣١٧- ٤٢٠ م

عصر الدول الست عشرة ٣٠٤- ٤٣٩ م

عصر الأسرات الجنوبية :

(سونغ ٤٢٠- ٤٧٩ م)

(تشى ٤٧٩- ٥٠٢م)

(ليانغ ٥٠٢- ٥٥٧ م)

(تشين ٥٧٧- ٥٨٩م)

عصر الأسرات الشمالية

(وى الشمالية ٣٨٦- ٥٣٤ م)

(وى الشرقية ٥٣٤- ٥٥٦ م)

(تشى الشمالية ٥٥٠- ٥٧٧م)

(وى الغربية ٥٣٥- ٥٥٦ م)

(جو الشمالية ٥٧٧- ٥٨١ م)

أسرة سوى ٥٨١- ٦١٨ م

أسرة تانغ ٦١٨ - ٩٠٧ م

الأسرات الخمس والممالك العشر

(ليانغ الأخيرة ٩٠٧ - ٩٢٣م)

(تانغ الأخيرة ٩٢٣ - ٩٣٦م)

(جين الأخيرة ٩٣٦ - ٩٤٦م)

(خان الأخيرة ٩٤٧ - ٩٥٠ م)

(جو الأخيرة ٩٥١ – ٩٦٠م)

(الممالك العشر ٩٠٢– ٩٧٩ م)

أسرة سونغ

(سونغ الشمالية ٩٦٠– ١١٢٧)

(سونغ الجنوبية ١١٢٧– ١٢٧٩)

أسرة لياو ٩١٦– ١١٢٥

أسرة شيا الغربية ١٠٣٢– ١٢٢٧

أسرة جين ١١١٥– ١٢٣٤

أسرة يوان ١٢٧١– ١٣٦٨

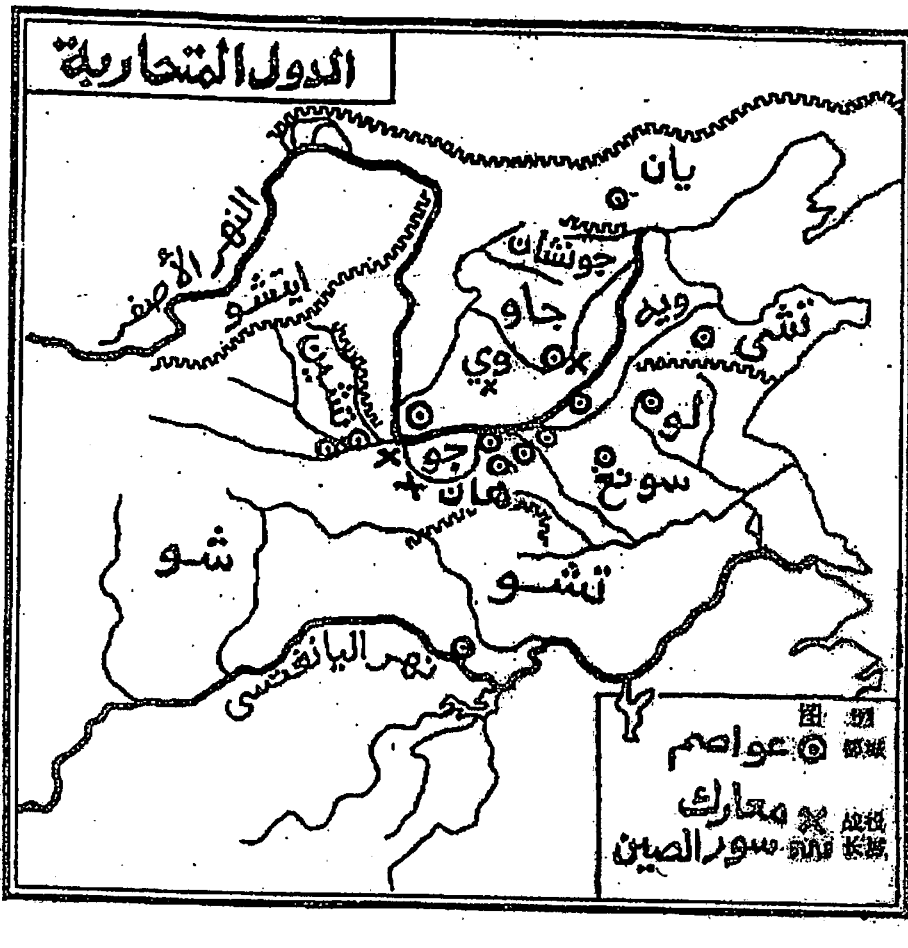
أسرة مينغ ١٣٦٨ – ١٦٤٤

أسرة تشينغ ١٦٤٤– ١٩١١

جمهورية الصين ١٩١٢– ١٩٤٩

جمهورية الصين الشعبية تأسست ١٩٤٩ .

ملحق (٢)



الدول المتحاربة
يان
جونشان
جاو
ويه
تشي
وي
لو
سونغ
جو
هان
شو
تشو
النهر الأصفر
ايتشو
نهر اليانغتسي
عواصم
معارك
سور الصين

الكاتب

ليو شيانغ

ليو شياننغ (٧٧٠ ق.م - ٦ ق.م)

- واحد من أهم المؤرخين الصينيين القدماء.
- عاش فى زمن دولة خان الغربية.
- أحدث تجديداً فى أسلوب الكتابة التاريخية الصينية، حيث تميز أسلوبه بالإفاضة فى ذكر الملاحم والأساطير والسير الشعبية دون إغفال لدوره كمؤرخ.
- عثر بالصدفة على كتاب « سياسات الدول المتحاربة»، فقام بجمع مادته، وأعاد ترتيب فصوله، وحقق نصوصه التى كانت مضطربة التدوين والتصنيف فاستطاع أن يجعل منه قطعة من النثر الأدبى الفريد، ومادة تاريخية مهمة.

المترجم

محسن فرجانى

- مدرس بقسم اللغة الصينية بكلية الألسن جامعة عين شمس.
- يهتم بترجمة التراث الصينى القديم.
- صدر له فى هذا الإطار : « حوارات كونفوشيوس»، و« الطاو » عن المشروع القومى للترجمة .

التصحيح اللغوى : معـــتز العجــمى .
الإشراف الفنـى : حســـن كـامــل .

وثيقة تاريخية مجهولة المؤلف، عثر عليها الأديب والمؤرخ الصينى الشاب ليو شيانغ فى الأرشيف الإمبراطورى لدولة خان الغربية، فنقحها وأعاد ترتيب مادتها، لتخرج إلينا كتاباً يتناول الأحداث التى وقعت فى الفترة التاريخية المعروفة باسم "عصر الدول المتحاربة" (475-221ق.م)، ويركز على المناورات والخطط والآراء المنسوبة إلى رجال البلاط، وقادة القصور، والمفكرين، والفلاسفة السياسيين الذين أسسوا اتجاهاً فكرياً سمى بـ "تسون هنغ" أى مدرسة المناورات السياسية، وهو ما أوحى إلى شيانغ بعنوان كتابه.

إنها فترة مهمة من تاريخ الصين، وكتاب آخر مهم من تراثها.

تصميم الغلاف: نسرين كشك